رواية

عمامة وجسد

دلال زين الدين



عمامة وجسد

عنوان الكتاب: عمامة وجسد
الكاتب: دلال زين الدين
الطبعة الأولى: 2022

ISBN 978- 3- 949551- 16- 1



Veszpremer Str. 8, 06130 Halle (Saale), Germany
nardverlag1@gmail.com

004917631242396 / 00905315965100



لوحة الغلاف: فيفيان الصايغ
تصميم الغلاف: فايز العباس

دلال زين الدين

عمامة وجسد

إهداء

إلى معلمتي التي سألتني ذات يوم: ما الهدية التي تتمنّين الحصولَ عليها من إدارةِ المدرسة بمناسبةِ تفوّقك في الدراسة؟

أجبتُها: أريدُ روايةً!

وعندما حان موعدُ توزيع الهدايا، أهدتْني كتاباً في الفقه عن الفرق بين الحيض والاستحاضة...

فبكيت.

المقدِّمة

كنت أنا طفلة الحب وأنت شيخه... طفلة نيئةً، طبخني الفقر، ورشّت الحرب فوقي كلّ أملاحِها الصخرية، وقبل أن أستوي مددتَ يدك لتتذوّقني على عجل؛ بداخلك تعلّمت كيف أغلي، وأفور لأوّل مرة، وكيف أنضج في غير مواسمي! كيف أشهق في العتمة، وفي الضوء! كيف أركض أنا وطفولتي خلف عمامتك الناصعة!

على تخوم قلبك خضتُ العشرات من المعارك الخاسرة، ومع ذلك لم أُهزم يوماً، كنت أنتصر بك عليّ، وبينما كنتَ تحصد جوائز النصر المؤزّر، كنت أنا أكتفي بجوائز الترضية منك.

المُضحك في الأمر: أنّي كلّما طمعت بجني القليل من الحسنات كانت أمّي تطلب مني أن أرفع كفّيَّ للسماء.

جئتَ أنت لتنسف كلّ تعاليم أمّي بمعادلة أخرى، ومنذ ذلك اليوم وأنت ترفع لي قدميّ بدلاً عنهما...

كانت وعودك لي خرافيّةً بامتياز؛ لم أصدّقها يوماً، لكنَّها كانت العرض المغري والوحيد للقضاء على ذلك البؤس الخرافي الذي كنت أعيشه؛ لم تكن رجلاً كالبقية، كنت سيّدهم جميعاً وشيخ قلبي.

كلمة لا بدّ منها

نحن لسنا أبطال الروايات التي نكتبها كما يتوهّم الكثير من القرّاء.

نحن فقط نشبههم في مرحلة ما، لهذا نكتب عنهم كما لو أنّهم نحن.

قبل أن أكتب عنك هذه الرواية استأذنتُ زوجي.

مربكٌ أن أكتب عنك وأنا على ذمّة رجل آخر، أشعر بالإحراج منه ومن تلك العادات والتقاليد التي لطالما كنت على خلاف شخصي معها.

نصحني زوجي بأن أذهب لطبيبٍ نفسيٍّ اعتقاداً منه بأنّي مصابة بمسّ في عقلي، لكنَّني رفضت الانصياع لأوامره كعادتي.

عشرين عاماً وهو ينصحني، وفي العشرين عاماً لم أكترث لنصيحة واحدة من نصائحه.

ربّما أراد زوجي أن أذهب إلى الطبيب كي تكون فضيحتنا أنا وأنتَ بعيدة عن الأضواء قدر الإمكان، أو أن تكون مجرّد حالة مرَضية يدوّن تفاصيلها ذلك الطبيب في ملف خاص ثم يضعه على أحد الرفوف في عيادته المكتظّة بالمرضى النفسيين أمثالي، أو ممّن أقنعَهنَّ رجالُهنَّ بأنّهن كذلك.

لكنَّني أردت لفضيحتنا أن تكون مدويّة، أن تكون فضيحة مكتملة الشروط والأركان، كخبر عاجل تتناقله وسائل التواصل الاجتماعي، فأنا لست مجنونة كي أذهب لطبيب نفسي، أتمدّد فوق سريره بينما يجلس هو بجانبي ليطرح عليّ أسئلته السخيفة والمملّة؛ والتي أعرفها مسبقا.

أنا أكثرُ جنوناً من ذلك!

استيقظتُ باكراً هذا الصباح كما هي عادة الجنوبيين، وعلى غير عادتي تودّدتُ إلى زوجي، لأوّل مرّة أطلب منه أن نمارس

الجنس، كانت محاولة فاشلة مني لتقديم رشوة صباحية له مقابل أن يكفّ عن إزعاجي وأنا أكتب عنك...

يسألني بعصبية: لماذا تصرّين على الكتابة عنكِ وعنه، ولا تكتبين عني وعنكِ مثلاً؟ يبدو لي سؤاله منطقياً جداً.

أنفضُ ذاكرتي، أنبّش في كلّ زاوية فيها علّني أجد حدثاً زوجياً مثيراً للاهتمام هنا أو هناك، حدثاً يسيل له لعاب قلمي، ويفتح شهيته للكتابة؛ ربما هنالك أحداث مثيرة، لكن الاعتياد في الزواج يحيل كلّ شيء إلى حدث نمطي لا أهمية له.

كلَّ صباح أعدّ له القهوة وأتناولها معه، ثم أعدّ له الفطور، هو يأكل قطعة الجبن بالشوكة والسكين وأنا أتناول البيض المسلوق بيدي، وبلا شهية نتناول الأحاديث الجانبية والتي عادة ما تنتهي بخلاف ودي.

هو مولع بالاقتصاد، وأنا مولعة بالسياسة.

نمارس الحب -عفواً- أقصد نمارس الجنس مرتين في الأسبوع، عدا الأيام الاستثنائية كعيدي الفطر والأضحى وأعياد زواجنا وميلادنا... أحداث روتينية مللتُ ممارستها معه كلّ تلك السنين فكيف أكتب عنها!

نحن لا نكتب إلّا عن تلك القصص التي لم ولن نشبع منها، تلك التي نظلّ نتضوّر جوعاً لها يوماً بعد يوم. أما تلك التي نعيش أحداثها وكأنّها صارت جزءاً منّا فنكتفي بالاصطدام بها والشجار معها.

وحدَكَ تغريني لأن أكتب، وحدك من تُهيّجُ رصاصَ قلمي وتستفزُّ أبجديةَ حبالي الصوتية لتبدأ الصراخ من جديد.

بعد طول عناد يوافق زوجي أن أكتب عنك، لكنّه يضع لي شروطاً تعجيزية:

يقترح أن أستبدل اسم الرواية بآخر. يقول حسب زعمه بأنّ الاسم غرائزي بعض الشيء، فأرفض اقتراحه كالعادة.

يبحث لي عن حجّة أخرى:

- عليكِ الابتعاد عن الإيحاءات الجنسية، فمثل هذا الإيحاءات لا تليق بامرأة محترمة مثلكِ. أرفض مجدداً، وأحاول إقناعه بأنّي أكتب رواية واقعية؛ وليست مجرد إيحاءات. فيهدّدني بالطلاق إن لم أخضع لتلك الشروط.

هذه المرّة أرفض وبشدة، وكأنّ لقب الرافضة الذي أكرهه كثيراً أصبح يليق بي فجأة أكثر من أي وقت مضى.

ها هي الطرق تبدو مسدودة حتى قبل أن أتورط بالخطوة الأولى، ولكنّ موجة الرغبة التي في داخلي كفيلة بنسف كلّ السدود، وفي محاولة لأخذ هدنة؛ أقترح على زوجي أن نبتعد عن بعضنا لفترة من الزمن كي لا يتهوّر أحدنا بقرار يندم عليه لاحقاً.

حسناً سأستغّل فترة غيابه عني لأكتب عنك.

لكن قبل البدء تراودني أسئلة كثيرة:

هل تستحق روايتي عنك كلّ هذه المجازفة، أنا التي أجهل أين ستأخذني معك وأي نتائج كارثية ستلاحقني ما إن أنهي آخرَ فصولها؟

هل سيكتفي زوجي بعضّ أصابعه ندماً على الزواج بي أم سيتطوّر الخلاف إلى أبعد من ذلك؟ هل ستأخذ عدالة الكلمات مجراها بعد مرور كلّ تلك النكسات المتلاحقة؟ أسئلة كثيرة تصيبني بالإحباط، لكن ذاكرتي المتخمة بك تؤنّبني كلّما تراجعتُ عن فكرة الكتابة عنك. يبدو لي أنّها سئمتْ منك وأنت تشغل ذلك الحيّز الكبير فيها، وكأنّك أصبحت عبئاً عليها لذا أرادت التخلّص منك كما يتخلّص المحتلّون من جواسيسهم في بلداننا العربية المنكوبة.

يغريني أن أكتب عنك وقد تجاوزتَ الأربعين من العمر، لا أعلم من أين جاءني كلّ هذا النضج؟ كلّ هذا الكم من اللامبالاة؟

كل ما أعرفه أني لم أعد صغيرة، اكتشفت ذلك بالأمس عن طريق الصدفة، وذلك عندما أسرّ لي ابني البكرُ بأنّه مغرم بإحدى صديقاته، وبأنّه يفكر جدياً بالاعتراف لها بحبه، طالباً مني أن أدلّه على طريقة مثالية ليعترف لها بأنّه مغرم بها.

شيء ما يستيقظ داخلي فجأة ما إن يذكر ابني الحبَّ أمامي، منذ زمن بعيد، بعيدٍ جداً، لم أشعر بهذا الشعور الذي انتابني وهو يخبرني عن حبه ذلك؛ شيء ما يسحبني إليك رغماً عني!

أشرد بك

هذه المرّة الأولى التي أشرد بك منذ أكثر من خمسة وعشرين عاماً ليقطع شرودي صوتُ ابني:

- أمي... أين ذهبتِ؟

لا أجرؤ على إخباره بأنّي ذهبتُ إليك، لكنَّني تداركت غيابي المفاجئ عنه على الرغم من أني أقف أمامه وجهاً لوجه، وسألته عن ماذا كان يحدّثني قبل أن أخون أمومتي، وأذهب إليك، وأنا معه.

ها أنا أشرّع لك نوافذ الذلكرة، أنتزعك من ذاكرتي وأخرجك من أقاصيها المعتمة؛ وكأني أنتزع آخر ورقة في التقويم الهاشمي. ها أنا أرتّب تفاصيل الأحداث بتواريخها وجغرافيتها لأبدأ الفضيحة.

من المعيب أن نفضح من أحببناهم بشدّة ذات يوم، لكن من العار أن نخفي الحقيقة كما لو أنّها قضيّة شرف قبَلية، أو أن نغتالها بكاتم صوت لنحكم عليها بالنسيان عمداً بينما نبقى نحن على قيد الحياة.

ليكن بعلمك، أنا لا أكتب عنك كي أصبح أديبة مشهورة على الرغم من أنّ الشهرة تستهويني جداً. أنا أكتب عنك لأثبت لك جدارتي بعد كلّ هذا التغير الجذري الذي طرأ على شخصيتي؛ أو لنقل: أكتب عنك كي أشفى من عقدة النقص التي لازمتني كلّ تلك السنين، فكما يقولون: الكلمات أدوية المفلسين أمثالي، أو ربّما أكتب لأطرح عليك أسئلة عقلانية، لم تسعفني سذاجتي لأطرحها

عليك قبل خمسة وعشرين عاماً، أكتب كي أعيد صياغة ما فاتني وأنا معك

أليس هذا عدلاً؟

كيف التقينا ذات حرب؟

حين كنت أنا ابنة الأزقّة الحافية، وعرائس الزيت والزعتر، بعدما عجنتني أمّي مع خبز صاجها وعلّمتني القفز فوق أغصان التين والزيتون كالسعادين، بينما تطلّ أنت بكامل هيبتك، كمحارب قديم امتهن لعبة المعارك الساخنة، فكنت أنا إحدى معاركه الساقطة!

كمقاتل مجوسي، محتاط، متأهّب لكل الظروف والخيارات. كقائد مغولي لم يعتد أن يترك لعدوّه فرصة الفرار أو النصر. بعمامتك البيضاء وعباءتك الملطّخة بتعاليم الحوزة العلمية، حيث الزعفران الذي لم أتذوّق طعمه يوماً، والسّجّاد العجمي الذي داسني ولم أدسه.

أمام عمامتك تلك، وقفت يومها كامرأة من حي شعبي تستعدّ لدخول قصر الملك للمرة الأولى! كفقيرة جائعة تصدّق عليها أحدهم بوجبة طعام فاخرة فارتبكت أمعاؤها من اللّقمة الأولى. لقد جاءني حبك في أحرج الظروف في ذلك الزمن المزدحم بالاضطرابات والحروب والمناخات المعقّدة! زمن المنابر والعمائم والفقهاء المزورين. كم يؤلمني تذكرهم، أولئك الذين كانوا يركبون الدين كما يركب الرجالُ عاهرات الليل.

جئت من أقصى الجنوب

الجنوب، ذلك العنيد الذي أورث رجالَه خصلةَ العناد، فكانوا يصدّرون فائض بطولاتهم كدروس مجانية لفقراء العرب وجبنائهم!

الجنوب الذي كنت تحبه كما لو أنه ابنك الثالث، والذي كان حبه هو القاسم المشترك الوحيد بيني وبينك.

ومن قال لك: إنّ القواسم المشتركة محصورة بكتب الجبر والحساب فقط؟

شهيقٌ مسموم

جاء حبك في منتصف عاشوراء، تلك المناسبة التي نرتدي لها كلّ إكسسوارات الحزن، ففي عاشوراء، يصبح الحزن والنواح هما حرفتنا الوحيدة، ونعود أكثر من ألف عام للوراء...

الساعة الثامنة مساءً.

حسيّنية البلدة مكتّظة بالنوّاحين والبكّائين، الكل يجهش بالبكاء، الرجال والنساء، حتى العجائز والرضّع...

وحدنا أنا وأنت علينا السلام نترفّع عن تلك التفاصيل السوداوية وسط هذه المسرحية التراجيدية، وكأننا لسنا في مجلس عزاء، وكأننا في الجنة، مع سيدي الحسين. نتبادل الالتفاتات والابتسامات بحذر شديد وكأن الكل يراقبنا؛ أذكر يومها أنك التفتَّ أنت إليّ أولاً، فكدتُ أطيرُ فوق كلّ ذلك السواد، وعلى الرغم من ذلك تظاهرت بأنّي لم أنتبه لوجودك أصلاً، ثمّ عدتُ والتفتُّ إليك ما إن التفتَّ أنت لجهة أخرى، وهكذا...

لا أعلم لماذا كلّ هذه المكابرة التي اعتمدتُها معك، وهذا التجاهل لنظراتك التي لم تكن عادية أبداً، لكنَّني علمت فيما

بعد أنّ كلّ الفتيات يتصرّفن هكذا بالفطرة، وليس من باب الذكاء، أو التعفّف.

كما لو أنني أراك للمرة الأولى على الرغم من أننا التقينا عشرات المرّات من قبل، ثمّة لقاءات لا تستحق الذكر، كتلك التي تمرّ مرور اللئام بجانبنا من دون أن تعيرنا أي اهتمام يُذكر، أو كتلك التي لا تستفزُّ أيَّ شيء في دواخلنا.

نحن لا نوثّق إلا تلك اللقاءات الجديرة باحترام مشاعرنا، كتلك التي تُحدث فينا حالة تشبه محاولة انقلاب فاشل في إحدى دول العالم الثالث، يعقبها استنفار أمني واسع النطاق، ينتهي بإعلان حالة الطوارئ.

من المخجل أن نتملّص من كلّ هذا الحزن الذي يحاصرنا من كلّ جانب وننصب له كميناً من الابتسامات.

كان علينا أن نشارك الحضور حزنهم على الأقل، ألسنا من شيعة آل البيت مثلهم؟!

فعاشوراء ليست سوى مناسبة سنوية لاستنفار الحزن الذي ندّخره على مدى عام كامل، وذكرى مقتل الإمام الحسين ليست إلّا حجّة للبكاء على خيباتنا المكدسة فوق بعضها البعض.

الكل داخل هذه الحسينيّة يبكي بحرقة؛ فتلك المرأة التي تورّمت عيناها من البكاء على الحسين عليه السلام اكتشفتْ منذ أيام أنّ زوجها الذي أنجبتْ له سبع إناث قد تزوّج بأخرى

تصغرها بعشر سنوات على أمل أن تنجب له ذكراً بحمامتين، وربّما يكون هذا هو السبب المنطقي لبكائها،

وذلك الرجل الذي يجلس في إحدى زوايا الحسينية وحيداً يبكي كالأطفال، فقَدَ أخاه في غارة إسرائيلية منذ أشهر، بعدما قاطعه لأكثر من خمس سنوات بسبب خلاف على قطعة أرض يحتلُّ العدو الإسرائيلي الجزء الأكبر منها،

وذلك الرضيع الذي في حضن أمّه يبكي بسبب انزعاجه من حفاضته المليئة بالبول والبراز، لكنّ أمّه تدّعي بأنه يبكي حزناً على جده الحسين.

أما أمّي المسكينة فلا بدّ أنّها اشتاقت لأخي عباس الذي انضمّ لمليشيا حركة أمل منذ أشهر في بيروت، ولهذا تنهمر الدموع من عينيها بلا توّقف.

لكلٍّ منهم حادثةٌ حسينية يبكي عليها، ولكلٍّ منهم حسينُه الخاص به.

وحدهم العجائز يبكون الحسين بصدق، ربّما لم يعد لديهم ما يبكون عليه غيره!

استشهد الحسين قبل ألف وأربعمئة عام، وما زلنا نحن الأحياء ندّعي البكاء عليه في كلّ مناسبة دينية، ونلعن قاتله، ونتوعده بالثأر، وكأنّه حيّ يُرزق، وكأنّه ينتظرنا في الطرف الآخر من القرية لنبدأ المعركة معه.

غادرتُ الحسينيّةَ يومها مكتفيةً بتلك النظرات التي رشقتَني بها عن بعد، لكنَّني لم آخذها على محمل الجد.

استبعدت فكرة أنّك أحببتني بهذا الزمن القياسي.

أقنعت نفسي بأنّ الحب ليس سهلاً إلى هذه الدرجة، وأنّه يحتاج سبباً قوياً كي نتورّط به.

في الحقيقة لا أعلم ما الذي لفت انتباهك لي هذه المرّة، فلقد التقينا من قبلُ، وعلى الرغم من هذا لم تعرني أيَّ اهتمام يُذكر، لا بدّ أنّ الأمر اختلط عليك، واعتقدتَ بأنّي فتاةٌ أخرى غيري، إذ إنني -وفي هذا اليوم تحديداً- تأنّقت على غير عادتي بعد أن تمّ اختياري من بين كلّ فتيات القرية كي ألقي قصيدة عن أحد رجال الدين، والذي استشهد بغارة إسرائيلية منذ أيام، ومع أني لا أعرف ذلك الشيخ، إلّا أني بالغت بالثناء عليه، وكأنّه واحد من أئمّة آل البيت.

ربما أعجبتك طريقتي في إلقاء القصيدة، أو ربّما أناقتي هي من أثارت اهتمامك!

سأخبرك أمراً مضحكاً: عندما تمّ اختياري لإلقاء تلك القصيدة، كتبتها في أقل من نصف ساعة، أما بقيّة النهار فقضيته وأنا أبحث عن ملابس كي أرتديها لهذه المناسبة الاستثنائية.

استعرت الحجاب الأسود الحريري من صديقة أمي، كانت قد اشترته لتلبسه في زفاف أخيها الأصغر، حتى في أعراسنا نرتدي الملابس السوداء!

تقول جدتي: "إنّ الله خلق اللّون الأسود لنا نحن الشيعة لكنّ الأخرين تطفّلوا عليه"، جلبابي هو الآخر استعرته من جارتنا التي تسكن قبالتنا، كل ما ارتديته من ملابس في الحقيقة لم يكن لي.

وحدهما ملامحي وحنجرتي التي قرأت بها القصيدة لم أقم باستعارتهما.

تُجمّلنا المظاهر أحياناً، فنبدو أقلَّ قهراً وبؤساً مما نحن فيه.

لم أنم تلك الليلة، كنت أجرّب كيف ينام أولئك الذين يفاجئهم الله وهم في ذروة حزنهم بأن يرسل لهم هدية فاخرة بهذا الحجم على هيئة ابتسامة من أحدهم! كنت أتدرّب على ألّا أحبَّك، أو لنقل: كنت أتدرّب على نسيانك قبل أن أحبك...

التعبير هكذا مقنع أكثر.

كان عليك أن تدرك أني فتاة بسيطة لدرجة أن أصدّق أنّ رجلاً مثلك يمكن أن تلفتَ انتباهَه فتاةٌ مثلي!

حين أذّن الفجر استيقظتْ أمّي للصلاة، وجاءت لتوقظني كالعادة؛ هي لم تنتبه بأنّي لم أنم أصلاً، لأوّل مرّة لا مزاج لي لأن

أصلّي. يحدث أن تشغلك ابتسامة أحدهم عن القيام بواجبك الديني.

"إنّها أيام فضيلة، لا يجوز لنا تأخير فريضة الصلاة"؛ أنّبتني أمّي على خمولي.

لحظتها قمتُ وصلّيت رغماً عني، ابتسامتك تلك، شاركتْني السجودَ والركوع وقراءة سورة الفاتحة. مرّ نصف اليوم بسلام، لكنك كنت أنت نصفه الآخر. في الساعة 12 تماماً طرقَ صوتُك بابَنا الحديدي: يا أللّه...

فتحتْ أختي الصغيرةُ لك، فعادت مسرعةً لتخبرنا:

- إنّه الشيخ الذي كان يلقي الخطبة ليلة أمس في الحسينية!

عرفت أنّك أنت! قفزت كالمجنونة لا أعرف ما الذي علي فعله، طلبت من أخوتي الصغار أن ينقلوا أحذيتهم المكدّسة أمام عتبة الباب، ويرمونها تحت الدرج لأفسح المجال لحذائك ذي الماركة العالمية أن يستفرد وحده بالعتبة، بينما انشغلت أنا بترتيب غرفتنا الوحيدة في غضون لحظات.

أمّي المسكينة سارعت في صلاتها، وارتدت سروالها الداخلي على عجل، حتى الأن ما زلت أجهل لماذا كانت أمّي تنزع سروالها الداخلي قبل الصلاة، وتصلّي من دونه!

أربكتنا زيارتك المفاجئة تلك، حتى جارتنا التي كانت تنشر الغسيل على السطح المقابل توقفت عن نشره، وراحت تراقبك بدهشة وأنت تدخل بيتنا.

حين وطئت قدمُك الغرفةَ، ارتبك كلّ من فيها وأكثرهم أنا!

وعلى الرغم من أني بعثت أخي الصغير كي يستعير لك كرسيّاً لتجلس عليه إلا أنك قررت الجلوس على الأرض، وأصررتَ على أن تُظهر لنا تواضعَك الذي أدهشنا جميعاً.

نفرد لك كلّ ما لدينا، فقرَنا وبعضَ ابتساماتنا، نحتفي بك قدر الإمكان فتصنع أمّي لك الشاي، وهو المشروب الوحيد الذي لا ينفد من بيوت الجنوبيين.

يصدر أخي الصغير ريحا كريهة، فيضحك بقية أخوتي لفعلته، بينما أنظر إليه نظرة تأنيب، وأومي له برأسي كي يخرج من الغرفة وكلي إحراج.

تسألنا عن حالنا؟ فيجيبك حالُنا عن حالِه! وبكل تواضع تستأذنُ أمّي للصلاة قائلاً: "من بعد إذنك يا حجّة بدنا نتوضا ونصلي"، وما إن تنطق بهذه الكلمات حتى أسرع أنا كالبرق إلى الحمّام لأنظفّه، أسرف في هدر الماء على غير عادتي كي أخفي أي رائحة يمكن أن تتسبّب بإزعاجك.

حين خلعتَ عنك عمامتك البيضاء، ووضعتها جانباً، وذهبت لتتوضّأ، قمت باستغلال فرصة غيابك، وتناولت تلك العمامة، ووضعتها فوق رأسي، ووقفت أمام المرآة أتفرّج عليّ، لحق بي أخوتي الصغار يترجونني أن أضعها فوق رؤوسهم أيضاً، فنقلتها من رأس إلى رأس، التفَتتْ أمّي إلينا مبتسمة، فاقتربت

منها ووضعتها على رأسها هي الأخرى مع أنّها لم تطلب مني ذلك، لكنَّني فعلتها من باب المداعبة لا أكثر.

في تلك اللحظات التي ذهبت بها أنت للوضوء، كانت عمامتك هي لعبتنا المفضّلة أنا وأخوتي، حتى أنَّهم حاولوا انتزاعها مني، لذا اضطررت أن أضعها مجدداً فوق رأسي خاصة بعد أن اقترح أخي الأوسط اقتراحاً جنونياً؛ وهو أن نفّك العمامة عن بعضها ونفردها داخل الغرفة لنرى كم طولها؟ وكيف يتقنون لفّها بهذه الطريقة الملفتة للانتباه؟ ابتسامة أخرى تفاجئني بها وأنت تقف بباب الغرفة، أجمل بكثير من تلك الابتسامة التي رشقتني بها داخل الحسينية أمس، للابتسامات درجات في الجمال.

خلعت العمامة عن رأسي ورميت بها جانباً ما إن لمحتك، ارتبكتُ كثيراً هذه المرّة وأنا أحاول أن أشيح بوجهي المتجمّر عنك.

أخوتي الذين ملأ ضجيجُهم الغرفةَ -قبل قليل- صمتوا فجأة، وجلسوا يضحكون عليّ، وهم يضعون أيديهم على أفواههم محاولين إخفاء صوت تلك الضحكات، ممّا زاد في إحراجي.

مدّتْ لك أمّي سجّادةَ الصلاة، وما إن أدرتَ وجهك للقبلة حتى غمزتني بطرف عينك اليسرى، ثم رفعت يديك لتكبّر تكبيرة الإحرام: "الله أكبر" غمزَتُك تلك لم تكن مجرد إشارة عابرة بالنسبة لي، كانت صكَّ اعتراف مباشر بإعجابك بي.

أن تغمزني وأنت تقف فوق سجّادة صلاة فهذا يعني أنّك رجل دين مثير للجدل! مثير للحب من الغمزة الأولى. ولكن لماذا اخترت هذا التوقيت بالذات لتغمزني به؟

أنهيتَ صلاتك التي أدّيتها بخشوع تام، وكأنّ تلك الغمزة زادتك إيماناً وتضرّعاً، ثمّ رحت تحدّثنا عن مكانة الفقراء ومنزلتهم في الجنة، أنت الذي لم تجرّب الفقر يوماً! بينما جلستُ أنا وأمّي وأخوتي كلّنا آذان صاغية، نبتسم لكل كلمة تقولها لنا، تأثّرنا بكلماتك لدرجة أننا أحببنا فقرَنا للمرة الأولى، واعتبرناه واحداً منّا بعد أن كان عدوّنا اللدود. حين أنهيت مواعظك تلك، وقمت وأخرجت محفظتك المنتفخة من جيب عباءتك الداخلية علت الفرحةُ وجوهَ أخوتي الصغار ما إن رأوك تفعل ذلك؛ فنحن نعتاش على صدقات الجيوب المنتفخة، على الرغم من قلّتها منذ أن توفي والدي قبل سنوات؛ أخرجت من محفظتك مبلغاً من المال، وأعطيته لأمّي قائلاً: هذا نصيبك من زكاة الخمس لهذا الشهر؛ لم تشعر أمّي بأي حرج لأخذِها المال منك، فهي من سُلالة آل البيت كما يُشاع، ودفع زكاة الخمس حق شرعي لها.

راحت تشكرك وتدعو لك بالتوفيق، بينما كان أخوتي الصغار ينتظرون لحظة مغادرتك الغرفة بفارغ الصبر كي يعدّوا النقود التي دفعتها لها.

من دون أن تتفوّه معي ولو بكلمة واحدة، وكأنّك لم تغمزني منذ نصف ساعة تقريباً، غادرتَ منزلنا، وكأنّك جئت إلينا لتقوم بمهمّة إنسانية بحتةٍ، أو واجب ديني ليس إلّا. ما علاقة الغمزة بالمهمّات الإنسانية والدينية؟! تزاحمت التكهّنات والأسئلة في رأسي من دون أي جواب مقنع.

كان عليك أن تسألني عن اسمي على الأقل، حتماً كنت سأجيبك:

- اسمي ليلى، وأمّي تدلّعني: لالو.

أو أن تسألني سؤالاً محرجاً مثلاً:

- في أي زاوية في هذه الغرفة تنامين؟ أو إن كان شعري الذي أخفيه تحت الحجاب كثيفاً كحاجبي؟ كان عليك أن تسألني أي شيء عن أيّ شيء!

كنت سأجيبك من دون أي تردّد، حتى لو كان السؤال ليس من اختصاصك، أما أن تغمزني، ثمّ تنسحب، وتورطني بالانشغال بك من دون أي تفسير منك، فهذا غرور لا قوّة لي على استيعابه.

تخيّل معي: لو أنّ من قام بغمزي شاب عادي مثلي كان يعبر الطريق مثلاً، كيف كنتُ سأتصرف معه؟

بالتأكيد كنت سأستوقفه، وأسأله عن تصرّفه الوقح! لكن أن يغمزني رجلٌ مثلك وهو يستعدّ للبدء بالصلاة، فهذا يعني أني فتاة ذات امتيازات عنده.

وأنت تسير باتجاه سيارتك المرسيدس السوداء، ركضتُ إلى سطح المنزل لأراقبك من الأعلى، فجأة انتابني الفضول لأن أتعرّف على طريقتك في المشي، وكيف أنّك تسير بكل هذه الثقة من دون أن تتلفّت خلفك!

كان عليّ منذ تلك اللحظة، أن أتوقّع بأنّك لست رجلاً عاديّاً، وبأنّ الأيّام التي في طريقها إليّ لا تشبه تلك التي مضت.

انشغلت أمّي وأخوتي طوال ذلك اليوم بالتخطيط لصرف المبلغ الذي أعطيتنا إياه، بينما اكتفيت أنا بالانشغال بك، قمنا بتقسيم المبلغ على النحو التالي:

سندفع جزءاً منه لسداد الدين المتراكم علينا هنا وهناك، وسنشتري بجزء آخر ملابس لنا جميعاً.

تصوّر؛ هذه المرة الأولى التي يزيد معنا مبلغٌ، فنرتدي ملابس جديدة أنا وأخوتي الأحد عشر، والفضل لك أنت!

ليس ذلك فحسب، هذه الليلة سنتناول الحلوى والكثير من لحم البقر، حتى أنّ أمّي وعدتنا أنّها ستصنع لنا الأرزّ بالحليب صباح الغد. كثير أن يحدث لنا كلّ هذا في يوم واحد! كان سيمر يومنا بشكل عاديّ جدّاً لو أنّك لم تأت بذلك المبلغ الكبير، وتلك الغمزة الإشكالية.

كان مجيئُك أشبه بمعجزة حقيقية بالنسبة لنا، فانوساً سحريّاً أطلّ أحدُهم برأسه منه فجأة، وأغدق علينا كلّ هذا الفرح من دون أن نطلب منه.

لم أنم تلك الليلة! أخوتي أيضاً لم يناموا. كنت أسمع أصوات تنهداتهم وهم يتقلَبون من جانب إلى آخر، إنها الليّلة الأولى التي يغيّر فيها أخوتي عادتهم في النوم باكراً. "لو أنّك لم تأت لكنّا الأن نغطّ جميعنا في نوم عميق" قلت ذلك في سري، وأنا أتشوق للمجهول الذي ينتظرني منك.

لطالما كان نومنا منتظماً، وأحلامنا شبه عادية إلى أن جئت أنت حاملاً لنا كلّ هذا الأرق! هكذا -فجأة- بين ليلة وضحاها تقرّر أن تغيّر لنا عاداتنا اليومية، فترمي لي بغمزة صبيانية، وترمي لأمّي بمبلغ من المال، وترحل وكأنّ شيئاً لم يكن!

بينما تختلط علينا الأحلام أنا وأخوتي؛ كان عليك أن تدرك أنّ الفقراء أمثالنا لهم خصوصيتهم، وأنّ مفاجآتك ربما تسبّب لهم كثيراً من المتاعب، الآن مثلاً: نحن جميعنا عاجزون عن النوم!

وحدهم الفقراء أمثالنا يوشوشون الله آخر الليل، يحكون له عن أحلامهم، وفي النهار ينشرون تلك الاحلام تحت الشمس لتيبسَ ويتغيّر لونها، فينسون أمرها فيما بعد. وحدنا نقدّس الأحلام، ونأوي إليها باكراً لأنّنا لا نملك وسيلة غيرها للبقاء!

وأنا استعيد شريط زيارتك لنا، أستغرب كيف لرجل مثلك أن يسأل أناساً مثلنا عن حالهم!

كان عليك أن تعلم بحالنا ما إن دخلت زقاقنا المثير للشفقة، فكل شيء في هذا الزقاق يفضح ما نحن فيه؛ ملابسنا الداخلية

المهترئة، والملّقاة عشوائياً فوق حبائل الغسيل تنذر بأنّنا على وشك أن نموت قبل الوقت المحدّد لنا، أحذيتنا المرميّة على عتبات المنازل ستخبرك بأنّنا غير آبهين بما يجري في هذه الغابة التي اسمها الحياة، رائحة خبزنا وعرقنا وطبخنا المملّ، وقمامتنا الخالية من أي مظهر من مظاهر البذخ، والمليئة بأعقاب السجائر المستوردة، والمعلّبات الفارغة المدموغة بختم منظمة إغاثية، أطفالنا الذين اعتادوا اللعب وهم حفاة في الأزقّة، لا بدّ وأنّك التقيت بأحدهم وهو يركض عارياً تماماً، ذلك الذي مرّ من جانبك وأدار لك مؤخرته وكأنّه لم يرك.

ضحكاتنا الجوهرية، هل سمعتها وأنت تعبر الزقاق؟ تلك الضحكات العشوائية التي تخرج من حناجرنا نشازاً يجبرك على أن تصمّ أذنيك من شدة الإزعاج، صور زعمائنا التي تتصدّر مداخل بيوتنا لتفضح انتماءاتنا الحزبية. لا تنخدع بتلك الصور، فهذه ليست كلّ الحقيقة، هناك صور أخرى، لأناس آخرين لا يشبهوننا بتاتاً يُلصقها شبابنا بالخفاء خلف أبواب خزائنهم، ولا يراها أحدٌ غيرهم؛ صور لفنانات شبه عاريات، يخفونها عن الأنظار كي لا يُتّهموا بالفاحشة، ولكي تساعدهم على الاحتلام وقت الحاجة. حتى تلك الحيطان التي مررت بها تفضح علاقاتنا الغرامية، فعلى كلّ حائط نُقِش حرفان لاسمين من عشّاق الزقاق، كُتبا باللّغة الأجنبية، أحدهما يعود إلى فتاة

والآخر لشاب مغرم بها، يفصل بين الحرفين سهم صغير وقلب أكبر منه.

لا بد وأنّك ابتسمت وأنت تتابع سيرك متسائلاً:

لماذا يُصرّ هؤلاء الفقراء على كتابة حروف أسمائهم باللّغة الأجنبية ولا يكتبونها بلغتهم الأم؟

لماذا يصرّون على فضح قصص الحب التي يعيشونها وكأنّ ليس لديهم ما يتباهون به غيرها؟! وكأنّهم يتعمّدون لفت أنظار المارّة والعابرين، ليدركوا أنّ خلف تلك الجدران هناك أناس يقتاتون على الكثير من الحب والقليل القليل من الحياة!

كما أتساءل أنا الآن وأنا اتقلّب في فراشي:

ما الذي جاء بك إلى زقاقنا الفقير ذلك اليوم؟

ما الذي أسال لعابك لتفاجئنا بهذه الزيارة من دون إبداء أي سبب مقنع لها!

كان حضور أخي عباس في اليوم التالي أشبه بهدية إضافية بعد زيارتك لنا بالأمس، وكأنّ الله جمع لنا كلّ هداياه الجميلة ليرسلها لنا على دفعات متتالية.

يكبرني عباس بثلاث سنوات فقط، وقتها كان في التاسعة عشر من عمره. حين كان عباس يحضر ببدلته العسكرية المموّهة تلك والتي يعلوها شعار (حركة أمل) كنّا نشعر وكأنّ جيشاً من الرجال جاء ليحرسنا! يحضر ويجر خلفه كلّ

الابتسامات التي ادّخرها لنا طوال الأشهر التي غابها عنّا، وهو يقاتل في بيروت بين صفوف مليشيا حركة أمل.

قبل ذلك بسنة فقط، كان أخي عباس رسّاماً بارعاً على الرغم من أنّه كان فاشلاً في دراسته. كثيراً ما كان يهرب من المدرسة هو ورفيقه مهدي عندما تتعرّض قريتنا للقصف من قبل الإسرائيليين، لم يكن يهرب ليعود إلى البيت خوفاً من القصف، كان يهرب كي يجمع فارغات القذائف والصواريخ هو ومهدي قبل أن يسبقهما أحد لجمعها، كانا هما الاثنان مولعين بهذه المغامرة لضرورات شخصية.

وفي كلّ مرة يقصف فيها الإسرائيليون أطراف القرية كانا يسرعان إلى مكان القصف، ليجمعا تلك الخردة الحربية، ويذهبا إلى بيعها لتاجر الحديد، وبعدها يتقاسمان المبلغ بالتساوي.

مهدي المولع بكرة القدم كان ينفق حصته من تلك النقود بشرائه لبعض المستلزمات الرياضية، فمرة يشتري بها حذاءً رياضيّاً، ومرة يشتري كرة، وعندما يكتفي من شراء حاجياته، كان يديّن المبلغ المتبقي معه لأخي عباس الذي كان يفوقه فقراً!

أما أخي عباس فكان يملك موهبة الرّسم، لذا كان ينفق المبلغ الذي يخصّه على أدوات الرّسم.

بدأت تظهر موهبة عباس بالرسم عندما بدأ برسم الأشياء البسيطة في غرفتنا التي كانت أشبه بزنزانة.

لم تكن لغرفتنا سوى نافذة واحدة تطلّ على حائط الجيران المسدود وتكاد تصطدم به. عندما سألنا أمّي ذات يوم:

- من الأحمق الذي فتح تلك النافذة؟ وما فائدة وجودها في الغرفة إن كانت تحجب عنّا الهواء والضوء؟

قالت لنا:

- عندما فُتحت تلك النافذة لم يكن الجيران قد بنوا منزلهم بمحاذاتنا بعد، وكانت هذه النافذة التي تسخرون منها هي الممرّ الوحيد الذي يعبر الهواء من خلاله إلى الغرفة... لا تلوموا من فتح النافذة، لوموا سوء حظنا.

كان وجود تلك النافذة يستفز أخي عباس كثيراً خاصة أيّام الصيف، لذا قرّر أن يرسم نافذة أخرى بمحاذاتها. أذكر أنّه طلب منّا مغادرة الغرفة أنا وأخوتي ومنعنا من دخولها إلى أن يأذن لنا هو بذلك.

أكثر من ثلاث ساعات قضيناها في الشارع، ونحن نتكهّن، ونخمن ما الذي يفعله عباس وحده كلّ هذا الوقت؟! وعندما نادانا للدخول تفاجأنا بتلك النافذة التي رسمها. أشجار وعصافير وكثير من الورود ونهر يجري على جانبها!

لن أنسى ما قاله لنا في تلك اللحظات ونحن نتأمّل رسمته بكثير من الدهشة:

- منذ اليوم لا أريدكم أن تنظروا إلى النافذة القديمة، لقد رسمت لكم أجمل منها بكثير، صحيح هي لا تُدخل الهواء، لكن قد يغنيكم عن ذلك منظرها الجميل

سأله أخي الصغير ببراءة:

- هل تستطيع أن ترسم طريقة تُدخل الهواء من تلك النافذة التي رسمتها؟

فأجابه عباس: أنا لست الله...

منذ ذلك اليوم تصالحنا مع غرفتنا أكثر من أي وقت، حتى أنّ أخوتي الصغار كانوا يأتون برفاقهم كي يشاهدوا تلك الرسمة الجميلة، لقد وجدنا أخيراً ما يدعو للفخر والتباهي في هذا المنزل الضيق الكئيب! رسم لنا عباس نافذة بالألوان والحياة، وفتح لنا باباً على سعادة ابتكر هو أسبابها وآفاقها!

إحدى نساء القرية قالت لأمي:

- ابنك حمار في المدرسة من أين جاء بهذه الفكرة الجميلة؟

كان عباس لا يجيد إلّا صنع الجمال من حوله. عندما رسم تلك النافذة انتابني شعور غريب ومخيف، شعرت بأنّه أصبح رجلاً قبل أوانه هو الآخر، وبأنّ هذه الحرب اللعينة لن تتركه بسلام، ومنذ أن انشغل هو بالرسم، صرت أنا أكتب عنه وظائفه المدرسية، كان يسخر مني قائلا:

- لا أعلم لماذا تصرّين على كتابة وظائفي على الرغم من أن المعلّمة في كلّ مرّة تقول لي:

- هذا ليس خطك يا عباس!

فأجيبها:

- هذا خط أختي لالو

فأردّ عليه بكثير من الحب:

- أعلم ذلك، لكنَّني أخاف أن تعاقبك المعلّمة بالضرب أمام بقيّة التلاميذ على تقصيرك في كتابة الوظائف، وهذا سيؤلمني جداً.

كان عباس أخي البكر وأقرب أخوتي إليّ. كنا متشابهين في كلّ شيء تقريباً، حتى أنّه عندما كان يرسم لوحة ما، كان ينبطح على الأرض وكأنّه يكتب وظيفة مدرسية، تماماً كما أفعل الآن وأنا أكتب عنه! أذكر يوماً أنّ عجوزاً من عجائز القرية طلبت منه أن يرسمها على أحد جدران منزلها الداخلية.

كان زوجها عجوزاً مقوّس الظهر، وعلى الرغم من ذلك كانت تغار عليه غيرة شديدة، لذا طلبت من عباس أن يرسمها، فلقد خافت أن تموت قبل زوجها فيتزوج بأخرى، لهذا خطرَت لها فكرة أن تترك له صورتها كالوشم على الجدار بحيث يراها كيفما أدار وجهه داخل المنزل الذي جمعهما طوال تلك السنين.

وبالفعل رسم عباس تلك العجوز لكنّ الزمن مقامرٌ بارع، فقد فارق زوجها الحياة قبلها!

قالت يومها لعباس:

- كيف نسيت أن أطلب منك أن ترسم صورته إلى جانبي على الجدار؟!

فردّ عليها:

- كان عليه هو أن يطلب مني ذلك وليس أنتِ.

كان عباس يملك فلسفة خاصة به لا تقلّ أهميّة عن موهبة الرسم. لم تخلُ جدران أي بيت فقير في القرية تقريباً من بعض العصافير التي كان قد رسمها بيديه النبيلتين بناء على رغبة ساكنيه.

استغلّت حركة أمل وحزب الله موهبته في الرسم فبدأوا يتقرّبون منه كي يرسم لهم زعماءهم. فعندما كانت الحركة تقيم مهرجاناً جماهيرياً، كانت تطلب منه أن يرسم لوحة لزعيمها نبيه بري مقابل مبلغ زهيد من المال، وكذلك يفعل حزب الله في مهرجاناته حيث يطلب منه رسم لوحة لصورة الخميني وغيره من قادة الحزب.

كان هناك تنافس شديد بين حركة أمل وحزب الله، حتى على أتفه الأشياء وأبسطها يصل في بعض الأوقات إلى حد استخدام بالسلاح!

منذ أن بدأ عباس برسم صور قادة أمراء الحرب والدين، لم يعد يلتفت إلى رسم العصافير على جدران أبنية الفقراء، أقنعه أحد قادة حركة أمل بأن ينضمّ إلى الحركة بشكل رسمي مقابل راتب شهري، كانت الحركة في ذلك الوقت في شبه حرب باردة مع

حزب الله خصوصاً بعدما تخلّى كثيرٌ من عناصر الحركة عن حركتهم لينضمّوا إلى الحزب، وذلك طمعاً بالرواتب الخضراء التي كان يخصّصها لعناصره، زيادة عن المعونات الإيرانية عالية الجودة التي تفتقر لها حركة المحرومين.

منذ أن انخرط عباس في صفوف حركة أمل سرقته متاريس بيروت منّا، لم نعد نرهُ إلّا في الإجازات، وذلك عندما يمنحونه استراحة حربية.

تستثمر الحرب مواهب البسطاء أمثالنا، فكيف لموهبة نبيلة كموهبة عباس أن تفلت منها!

نحن الذين نبيع خردة رصاص العدو وقذائفه لنشتري بها علبة ألوان، وعندما يحالفنا الحظ نشتري بالمبلغ المتبقي علبة حليب!

"ما نفع العصافير التي نرسمها على تلك الجدران، ما دامت عاجزة عن الطيران!"

قالها عباس لأمّي وهي تحاول إقناعه بأن يتخلّى عن حمل السلاح، ويعود لمزاولة موهبته في رسم العصافير على جدران الفقراء. منذ أن حمل عباس الكلاشنكوف في بيروت الغربية، لم يعد يَطرب لزقزقة العصافير في الجنوب!

فبيروت مدينة تُحب المواهب؛ لهذا أغرته بمتاريسها ورائحة بارودها، وصبيانها الذين أرخوا لحاهم على عجلة من أمرهم ليعتاشوا منها فيما بعد.

ترتفع أسعار اللحية في الحرب ارتفاعاً جنونياً، لذا يُرخي الجميع لحاهم لأسباب تجارية بحتة؛ بائع الحليب المغشوش يرخي لحيته! وبائع السجائر يرخيها هو الآخر، الشباب المتسكّع في الشوارع والطرقات يفعل ذلك من باب الغيرة، القصّاب الذي أشيع عنه منذ وقت طويل بأنّه لا يستحّم من الجنابة، تحوّل فجأة لواعظ، وها هو يستعيد ثقة أهل القرية به بعد أن أرخى لحيته، وذلك الرجل الأربعيني الذي كان يسب الذات الإلهية على الملأ ويتعاطى المخدرات، حمل بيده مسبحة وراح يتمتم بها أمام الجميع بعد أن أرخى لحيته!

الكل تنكّر بتلك اللّحية وكأنّها مشروع استثماري مضمون الأرباح، الكل تقمّص دور القديس، وارتدى لحية الدين، وراح يُقامر بها وبنا، وكأن اللّحية من متطلبات الحروب وأحد أهم شروطها ، لهذا أرخى عباس لحيته، على الرغم من أنه لا يشبه أحداً من الذين ذكرتُهم.

*

عندما التقيتُ بكَ للمرة الثالثة لم أكن أتوقع أن ثمّة أمنيات بهذا الحجم يمكن أن تضيء كلّ ما حولي دفعة واحدة.

ذات يوم كنت أنت مصدر الضوء، بل كنت أنت الضوء الذي فتح شهيتي كي أشعّ، وكأنني كوكب دريّ!

حين التقيتك في رأس السنة، بعد مرور عدة أشهر على زيارتك لنا، كنتَ منشغلا بانتقاء ما لذّ وطاب من الفواكه

والمكسرات والحلويات من أحد المحال التجارية، هذا المحل تحديداً، أنا لا أدخله إلّا في رأس السنة كي أشتري منه حبّات الكستناء، ثلاثة عشر حبة كستناء، عدد مطابق لعددنا أنا وأمّي وأخوتي، لكل واحد منّا حبة واحدة.

في كلّ سنة في مثل هذا اليوم نتذوّق أنا وأخوتي الكستناء لمرّة واحدة بسبب ثمنها الباهظ. رحت أتباطأ بانتقاء تلك الحبّات ما إن لمحتك داخل المحل، أقلّبها قبل أن أضعها في الكيس، وأنا أسترق النظر إليك بين الحين والآخر على الرغم من أنّك لم تهتم لوجودي -هكذا تهيّأ لي- لكن بعدما انتهيت من شراء مستلزماتك، وخرجت من المحل، وهممت بفتح باب سيارتك، كان غريباً جدّا ما حصل؛ وهو التفاتك عليّ، وعرضك أن توصلني إلى المنزل.

شعرت حينها أنّك كنت تتجاهلني عن طيب خاطر، كان الجو ماطراً جدّاً، لذا كان عرضك لي أخلاقيّاً بامتياز. حين صعدت سيارتك، ووضعت كيس الكستناء بين قدميّ لأوّل مرة أفقد ذلك الشعور الجميل الذي كان يرافقني عند شرائي لحبّات الكستناء، وأخونه مع شعورٍ جديدٍ طارئ.

شعرت لأوّل مرة أن تلك الحبّات -التي ننتظر عاماً كاملاً لنتذوّقها أنا وأخوتي- لا قيمة لها بوجودك!

سألتَني من دون أن تلتفت إليّ:

- كيف حالك؟

- منيحة

سؤال وجواب، تلاهما صمت مستفزّ.

كنت أنتظر منك سؤالاً آخر، لكنّك فاجأتني كعادتك بجملة حسمت أمرها مسبقاً:

- سآخذك في (كزدورة زغيرة بالسيارة) ولن نتأخّر.

هكذا من دون أي إذن مسبق قرّرت أن تأخذني في جولة ترفيهية حول أطراف القرية، وكأننا لسنا في حالة حرب! بينما قرّرت أنا أن ألتزم الصمت حيال قرارك ذلك تعبيراً عن انصياعي لك بعد أن سحبتْني دوامتُك إلى أعماقها.

في تلك اللحظة التي كنت أجلس فيها إلى جانبك والأرض تسير بنا، اكتشفت أن الأشياء تضحك مثلنا تماماً؛ الطرقات، والأبنية، وأعمدة الكهرباء التي نسيت أن تضيء طوال فترة الحرب. حتى تلك التلال التي يتمركزُ فوقها الإسرائيليون كانت تضحك هي الأخرى!

الحسينيّة، والمسجد الوحيد في القرية، والرايات السوداء التي ترفرف فوق كلّ شيء كلها كانت تشاركني نشوتي في تلك اللحظات التي كنتَ فيها تقودُني إلى المجهول الذي لم أكترث له يوماً.

ما زلتُ أجهل سرّ اختيارك لتلك الأماكن الروحية! إذ ركنت سيارتك بالقرب من مقبرة القرية؛ فتوقّعتُ لحظتها أنك تريد أن تأخذني لزيارة قبر أبي أو قبر أحّدٍ يخصك، وقررت أن يكون معك

شريكٌ في هذه اللحظات الماطرة. رغم انزعاجي جداً من جدلية المكان والزمان اللذين تختارهما للإيقاع بي أكثر فأكثر!

تبتسم لي للمرّة الأولى داخل حسينية في مجلس عزاء للحسين، ثم تغمزني وأنت تستعدّ إلى الدخول في الصلاة، وبعدها تأتي بي إلى هذا المكان لتفاجئني بما لم يخطر ببالي يوماً.

من دون أن تُطفئ محرّك سيارتك، وأنت تحرّك وجهك نحوي أصابني الذهول، يبدو أنَ رغبتك اتجاهي كانت أقوى من كلّ الأسلحة الدينية والحربية؛ وحتى أقوى من رغبتي. اقتراب فمك من شفتيّ الخام تركني في حالة ذهول، وأنا مستسلمة لك بكل طفولتي؛ ثم تبدأ بتقبيلي ببطء وكأنّك تعلّم فمي درساً في الغيبيات، وكأنّك تعلّمه أصول الدهشة للمرّة الأولى!

شفتاي الأميّتان الّلتان لم تجرّبا القُبَل يوماً، بدأتا تتخدّران تدريجيّاً على وقع أنفاسك الساخنة! كنت أرتجف وكأني خرجت من رحم أمّي للتو، أنتظر أحدهم كي يمسكني من قدميّ ويضربني كي أبدأ الصراخ.

كانت تلك اللّحظة الوحيدة التي تمنيت فيها الصراخ، لكنَّني فشلت! اللّحظة التي كانت فيها شفتاك تتزحّلقان على عنقي ليزهرَ بقعاً بلون أزرق فيما بعد، بقعاً تشبه طابو الملكيّة في الدوائر الحكومية.

كنت أتقاسم تلك القبلة مع شفتيك المنتفختين في وضح النهار، وكأني أتقاسم حصتي من السعادة مع هذه الحياة اللئيمة.

أحاسيس لم أختبرها من قبل، وكأنّ قلبي يغمس إصبعه في قلب الفرح ليتذوّق صنفاً جديداً لم يتذوقه من قبل!

"شفافِك طيبين كتير"؛ قالها بنبرة مَن ينازع الموت.

كانت شفاهك هي الألّذ، لكنَّني لم أخبرك بذلك، ليس غروراً مني، لكنَّني كنت منشغلة جداً في تفكيك شيفرة تلك الرعشة المفاجئة التي كانت تصيبني للمرّة الأولى، كنت حريصة على ألا تفلت مني أية لحظة من تلك اللّحظات النادرة. كيف لفتاة مسكينة مثلي أن تفرّط ولو بلحظة واحدة من هذه اللحظات المليئة بالدهشة؟ وأية دهشة! مزيج غريب من الرغبة والخوف، من السعادة وتأنيب الضمير، من جملتين متناقضتين: "أريد ذلك" و "لا ينبغي أن أقوم بذلك".

استفزّت تلك القبلة أشياء بداخلي لم أكن أعلم أنّها موجودة أصلاً، كنت أشتعل كأنبوب نفط عربي بينما أنت مستمر بالتهام شفتي.

شفتاك كانتا أطيب من طبيخ أمّي قليل الدهن والدّسم، والمليء بالزيت والخضروات!

كانتا أشهى من حبّات الكستناء التي لا أتذوّقها إلّا في رأس السنة! لو كنت أملك أدلّة دامغة على قبلتك يا شيخ علي لي في ذلك الوقت لكانت دخلت موسوعة غينس من حيث الجودة والجرأة!

كانت قبلة مشرّفة بامتياز؛ فلقد كنا نمارسها على وقع أصوات الرصاص الذي راح الإسرائيليون يطلقونه من حولنا. وكنّا كلّما علا صوت رصاصهم نزيد من سرعة تلك القبلة وحماوتها، وكأنّنا نريد مجاكرة العدو لا أكثر! وكأنّ الإسرائيليين الذين كانوا يتمركزون فوق تلك التلة أرادوا أن يرسلوا لنا برسالة مفادها؛ استحوا

ومع ذلك لم نستحِ لا أنا ولا أنت.

هناك قبلة أشبه بعمل بطولي، تستفّز الرصاص من مخازنه، قبلة ترتقي لأن تخوض وحدها معركة حب في زمن الحرب.

كنت مثلك أستمتع بتلك القبلة البطولية، وأرفض أن ينتصر الرصاص على عناد شفتينا، أرفض أن تنصاع قبلاتنا لأوامر الاحتلال. لا أعلم من أين أتتني كلّ تلك الشجاعة، وكل ذلك العناد؟! وكيف تجاهلتُ طفولتي، وانصعتُ لرغبة الأنثى التي بدأتْ تخضرًّ في داخلي بسببك!

قبّلتنَي من دون توقّف حتى شعرت بضيق في التنفس، وكأنّ الأكسجين انعدم تماماً من حولنا. أتذكر أني -وفي لحظة صحوٍ- حاولت إبعادك عني لكنّك عنيدٌ جداً، وكأنّك كنت تتعمّد أن تفقدني وعيي!

رصاصة من تلك التلّة المحتلة اخترقت زجاج السيارة الخلفي، لتعلن قبلتنا الاستسلام!

لأوّل مرة كنت أشعر بأنّ العدو يتصرّف بشيء من العقلانية. يحدث أن تأتيك الرصاصة على هيئة مسعف لتنقذك في اللحظة الأخيرة، أيّة مفارقة هذه!؟

أنا مدينة لذلك العدو الذي فشل في قتلي لمرّات ومرّات، ونجح في إنقاذي من الموت لمرّة واحدة.

حتى هذه اللحظة، ما زلت أتساءل:

- لماذا بقينا أنا وأنت على قيد الحياة؟

لماذا أطلق العدو حولنا كلّ تلك الرصاصات ولم يقتلنا بواحدة منها؟

حتماً هو كان يراقبنا بأحدث المناظير السوداء، لا بد وأنّه كان يستمتع بمشاهدته لتلك القبلة كما لو أنّه يشاهد فيلماً.

وماذا عن تلك القبور التي أحاطت بنا، والتي أصابتها معظم الرصاصات؟ كيف لم نُقم أي اعتبار لهيبة الموت يا شيخ؟

كيف لم أنتبه يومها لكل تلك الأشياء التي كانت تحيط بي!؟ مقبرة وأموات، رصاص ومحتلون! وأخوتي الذين ينتظرون عودتي إلى البيت ومعي حبات الكستناء، كيف تجاهلت كلّ ذلك؟!

طلبت منك أن تعيدني إلى البيت، وكنت أعني بذلك أن تستمر في تقبيلي لمزيد من الوقت. لكنّك كنت أحمقَ بعض الشيء، فقد صدّقت ما قلته لك، وعدت بي إلى المنزل، هذه المرّة تركت لي جملة معلّقة، جملة حطّت فوق رأسي كحمامة سلام

تحمل بمنقارها رأس قنبلة ذرية؛ أتذكر ما قلت لي وبالحرف الواحد:

- هيك ما بيمشي الحال، بدي أعقد عليكي عقد شرعي.

أفقدتْني تلك الكلمات ما لم تفقدني إيّاه قبلتك منذ قليل، أفقدتني توازني وما تبقى مني. وصلنا المنزل؛ نزلت من سيارتك ونسيت كيس الكستناء الذي ينتظره أخوتي بفارغ القهر!

لم أكن أعلم أن كلّ تلك الأشياء التي كنت قد اشتريتها من ذلك المحل لسهرة رأس السنة؛ اشتريتها لنا نحن!

نسي أخوتي حبّات الكستناء حتى أنّهم لم يسألوني عنها ما إن طلبت منهم تنزيل كلّ تلك الفواكه والحلويات من السيارة،

ناموا متخمين، بعضهم أصابه تلبّك في الأمعاء بسبب تناوله لكل تلك الأصناف، وبعضهم أفقدته الفرحة شهية الأكل فنام شبِعاً من كثرة ما لم يأكله!

ناموا جميعاً إلّا أنا. مذ تعرّفت عليك أصبح النوم أمنية بالنسبة لي، شغلني معنى قولك: "بدي أعّقد عليكي "؟

بدأت أحلامي تتّسع شيئاً فشيئاً في تلك الليلة، ولأنّ غرفتنا ضيّقة جداً، راحت تلك الأحلام تتدحرج من تحت الباب لتملأ الزقاق. لم أصدق أن تتم الأمور بهذه السرعة، وأن تعجبك قبلتي لهذا الحد، فتجرّك لتجعلني زوجك!

في تلك الليلة الطويلة كصبر أمي، تزوجتُ بك على الرغم من معارضة أهلك وزوجتك. كان عرسنا بسيطاً جدّاً كبقيّة أعراس

القرية، ما إن دخلت بي حتى طلبت مني أن أحبل على عجل، قلت لي إنّ الأمة الإسلامية ينقصها كثير من الرجال.

هكذا أنت، الدين وهموم الأمّة الإسلامية هما المبرر لفعل أيّ شيء تريده، أنجبت لك عباساً ومهديّاً وحمزة وفاطمة وسكينة.

زوجتك التي كانت تتفوّق عليّ بكل شيء، فاجأتني بأنّها تغار عليك أكثر مني؛ ممّا تسبّب بوقوع الكثير من الخلافات بيننا، وحتى هذه اللحظة ما زلت أنت مصراً على الاحتفاظ بنا -نحن الاثنتين- معاً.

كل هذه الأحداث وغيرها مرّت بمخيلتي وأنا أفكر بتلك الجملة التي قلتها لي "بدي أعقد عليكي "

هناك كلمات تفتح لك الحلم على مصراعيه لتغلق عليك كلّ منافذ العقل والمنطق.

مرّ شهر آخر، وحان موعد دفع مبلغ زكاة الخمس الذي كنت قد وعدت أمّي بأنّك ستدفعه لها كلّ أوّل شهر، ولكنك لم تأت، ولم ترسله لنا مع أحد رجالك كما هي العادة.

بكيت في ذلك اليوم تحديداً، جميعهم كانوا بانتظار خُمسك، وحدي كنت بانتظارك!

أبكاني منظر أخوتي وهم يتأفّفون من عدم مجيئك، بعدما أخبرتهم أنا بأنّك حتماً ستأتي هذه المرّة، كما كنت قد وعدتني من قبل.

اعتكفوا جميعهم في المنزل، منهم من صعد السطح ليبشّر الآخرين الذين انتظروك عند عتبة الباب الرئيسي في حال لمح سيارتك وهي تعبر شارعنا المتهالك، ومنهم من اكتفى بالجلوس والدعاء كي تأتي كما وعدتنا، ومنهم من أصيب بالملل من الانتظار فألهى نفسه باللّعب كي ينسى.

صرت أنت وخمسك محور أحاديثنا وتفكيرنا والكثير من أحلامنا السخيفة. بكيت شوقاً لك طوال الليل بعيداً عن أنظار أخوتي الذين لعنوك ألف مرة قبل أن يناموا لأنّك لم تأت لهم بذلك الخمس. بكيت خيبتي التي كانت لا تزال تترّقب وعدك لي بأن تأتي وتعقد عليّ.

لا شيء أبشع من انتظار من نحب، ومعه تلك الوعود الجميلة التي أسأنا فهمها.

كيف لك! وأنت الصاخب برجولتك أن تعدني أنا البسيطة المسكينة وعداً بهذا الجمال؟

كيف لك أن تضعني بهذا المأزق من الفلتان العاطفي، أنا التي لا أجيد ضبط هذه المشاعر المتضاربة داخلي، مرّة أحبك، ومرّة أخرى أقرّر أن أكرهك فأحبك أكثر من المرّة التي سبقتها. كان عليّ أن أكرهك بعد الخيبة التي تسبّب بها عدم مجيئك. كان عليّ فِعل ذلك تعاطفاً مع حزن أخوتي الصغار على الأقل، لكنَّني لم أستطع أن أفعل، فالأمر خارج عن سيطرتي تماماً.

أمّي التي لاحظت حجم الخيبة على وجوهنا قالت لنا بلهجتها الجنوبية المباركة:

- عزا عمرو ما يجي، الله ما بيقطع.

كانت أمّي تملك موهبة رهيبة في انتزاع الحزن الذي بداخلنا ورميه بعيداً عنا.

في صباح اليوم التالي أشيع بأنّ هناك مساعدات إنسانية للعوائل الفقيرة أرسلها رجل أعمال سعوديّ، لكنّ حزب الله كان قد أفتى بإتلافها على مرأى من أعين فقرائها بحجّة أنّ من قام بإرسالها سعوديٌّ (كافر)

كان رجل الأعمال رفيق الحريري هو من أرسل تلك المساعدات للجنوب، لم يكن يومها قد دخل المعترك السياسيَّ بعد.

حين علمت أمّي بالأمر أسرعت إلى ساحة القرية لتتفاجأ بعناصر المليشيات وقد تجمهروا حول جبل من المعونات الغذائية استعداداً لحرقها.

طالبت أمّي بحصّتها من تلك المعونات من دون أن تقيم أي اعتبار لفتواهم، فما كان من إحدى نساء القرية إلا أن نعتتها بـ(عديمة المبدأ).

تناولت أمّي صندوق المعونة من ذلك الجبل الحريري، وضعته فوق رأسها، وأدارت ظهرها للجميع قائلة:

- إذا كان من أرسل هذه المساعدات كافراً، فالجوع أكثر كفراً منه. أفشلت أمّي يومها مخطّط المليشيات بحرق تلك المساعدات؛ فما إن رآها فقراء القرية تطالب بحصّتها من دون أي حرج، حتى راحوا يتزاحمون على المطالبة بحصصهم هم أيضاً. جاءت إلينا وهي تحمل ذلك الصندوق الثقيل فوق رأسها وتلك الابتسامة التي لا مثيل لها تعتلي شفتها. كانت أقوى من أي مرّة! لا أعلم من أين جاءت أمّي بتلك القوّة في ذلك اليوم؟

كانت كثيراً ما تفاجئنا ببعض تصرفاتها رغم أنها كانت تستفزنا ببساطتها وإصرارها على أن تكون تلك المرأة (الضيعجية) بكل تفاصيلها وطيبتها.

ورثتُ عن أمّي كلّ تلك الأشياء التي حُرمت منها، وتلك التي لم تجرؤ على القيام بها يوماً. أورثتني عينين جميلتن، على الرغم من أنّها لم تكن تملك سوى عين واحدة بالكاد ترى بها. قال لي أحد فتيان الحي ذات مرّة:

- عيناك جميلتان يا بنت، من أين جئتِ بهما؟

فأجبته:

- اسأل أمي.

كانت أمّي تفرح كثيراً عندما يقول لها أحدهم:

- عيون أولادك جميلة جداً أجمل من عينك بكثير.

عندما عدت من زيارة مقام السيدة زينب في سوريا ذات يوم، كانت أمّي تنتظرني عند مفترق أحد الطرق في القرية، اقتربت منها

ووقفت قبالتها وجهاً لوجه، انتظرت منها أن تأخذني بالأحضان ما إن تراني، لكنَّها لم تفعل.

- أمّي هذه أنا ألا ترينني!؟

علمت حينها أنّ أمّي لا ترى نهائيّاً بتلك العين اليتيمة عندما تتعرّض لأشعة الشمس. من بين ملايين الناس اختارت تلك الحرب اللعينة عين أمّي لتفقأها بشظيّة لا يتجاوز حجمها رأس دبوس، ومنذ ذلك اليوم وأمّي ترى القليل من الأشياء بعينها الأخرى. تلك الشظية الصغيرة جدّا كانت كافية لتنتزع من عين أمّي نور العالم كله، وتغرقها في ظلام دامس، وتغرقنا معها في حزن يفوق حزننا على الحسين بأضعاف.

حين طلبت مني أن أعلّمها القراءة والكتابة أسوة بنساء البلدة اللواتي سجّلن في دورة لمحو الأمية، خِفت على عينها من التعب فقلت لها:

- أخاف أن يؤثّر ذلك على سلامة عينكِ، فالكتابة والقراءة تحتاجان لتركيز كبيرٍ في النظر. أجابتني ببراءة لا يمكن أن أصفها بكلمات عادية:

- أريد أن أتعلّم كيف أكتب اسمي فقط، أريد أن أعرف كيف هو شكله؛ لا أريد أكثر من ذلك، ولا أرغب في الالتحاق بتلك الدورة.

لأكثر من شهرين وأنا أحاول معها، كانت كلّما تعلّمت حرفاً نسيته في اليوم الثاني؛ لكنَّها بعد أشهر استطاعت أن تميّز اسمها

من بين عشرات الأسماء، وكانت سعيدة جدّاً بهذا الإنجاز العظيم، أنا كذلك شعرت بفرحة لا توصف عندما أخبرتني أنها وجدت اسمها جميلاً جدّاً، وأنّها لن تنسى شكله أبداً، حتى إنّي كنت أجري لها اختباراً كلّ فترة، فأكتب لها عدة أسماء ومن بينها اسمها وعندما أسألها عنه تشير بإصبعها عليه وهي تبتسم قائلة:

- لقد قلت لك: إني لن أنساه أبداً!

أورثتني أمّي ثقافة خاصة بها، ثقافة الصبر وطول البال، في كلّ مرة أوشك فيها على الوقوع، يلتقطني صبرها ذلك، ويرفعني على كتفيه ويمضي بي؛ أتساءل:

عندما خلق الله الملائكة الذكور كيف استثنى أمّي من أن تكون الأنثى الوحيدة بينهم!

تلك العظيمة التي كانت تنشغل بنا طوال النهار، وفي الليل تنشغل بصديقاتها العوانس والأرامل والمطلّقات، وتتبادل معهن النكات والطرائف التي تدور بمعظمها حول الرجال.

ثلاث عوانس، وأرملة، ومطلقتان كنّ يأتين لقضاء السهرة عندنا يوميّاً؛ تبدأ سهرتهن منذ الساعة الثامنة، وتمتد حتى الحادية عشر قبل منتصف الليل، وكأنّه دوام مسائي في إحدى الدوائر الحكومية، إذ لم تتغيّب إحداهن يوماً عن الحضور.

يأتين ليُفرغن كلّ ما في داخلهن من حسرات في غرفتنا تلك، البعيدة عن الأنظار والشبهات وأبراج المراقبة الإسرائيلية، والخالية من أصناف الرجال.

نساء تفوّقن على أمّي بالحرمان، فاخترن غرفتها لتكون الموقع الاستراتيجي للتنفيس عن كبتهن بحريّة مطلقة.

قبل أن يدخلن غرفتنا تلك، كنّ يخلعن أحذيتهن وبعضاً من حيائهن عند عتبة الباب. يتحدّثن بصوت مرتفع، يضحكن وكأنّهن يحبسن ضحكاتهن طوال النهار ليطلقن سراحها آخر الليل عندنا. يتلفّظن بمفردات سوقية إلى أن مللت سماعها منهن كلّ ليلة. كنت الوحيدة التي أشاركهن سهراتهن بعد أن ينام أخوتي.

كثيراً ما أشفقت عليهن وهنّ يتحدّثن عن الرجال، عن أجسادهم وصدورهم وحجم أعضائهم الذكرية. يتحدّثن بينما دخان السجائر يتصاعد مع أنفاسهن المثقلة بالحسرات. سمعت إحداهن، وهي امرأة مطلّقة تفوح منها على الدوام رائحة الغنم تتحدّث إليهن ذات ليلة:

- الرجال يحلفون علينا بالطلاق بسبب امتعاضهم من وجود شعرة صغيرة في طبق الطعام بينما يذهبون للعق فروج العاهرات الممتلئة بالشعر!

كنت أعجب كيف لامرأة تقضي النهار في رعي الأغنام أن تتحدّث بهذا المنطق وهي التي لا تعرف كيف تكتب اسمها!

زينب -تلك الفتاة التي بلغت الأربعين من العمر ولم تتزوج بعد بسبب حروق بالغة في جسدها- اعترفت للجميع بأنّها مغرمة

بجارنا المسيحي (إلياس) وهو أرمل يكبرها بعشر سنوات، قالت إنّها لن تتزوج به إن لم يغيّر اسمه من إلياس إلى حسين أو علي.

أما فاطمة التي تتظاهر بكرهها للرجال ولا تكف عن الحديث عنهم، فقد طلّقها زوجها بعد أن أغرم بفتاة تصغرها بسنوات، حين تتحدّث فاطمة عن زوجها تفضحها نبرة الغيرة والحقد عليه؛ تتهمه بأنّه غريب الأطوار، وبأنّ بعض تصرفاته مثيرة للريبة، فلقد اصطحبها في إحدى المرّات إلى زريبة الغنم والخراف وقال لها:

- أريدكِ أن تصبغي شعرك بمثل ذلك اللون؛ وأشار بيده لأحد الخراف.

لطيفة هي الأخرى مطلّقة، طلّقها زوجها بعد يوم واحد من زفافها بعد أن اكتشف أنّها ليست عذراء. تقول إنه لم يمسّها رجل غيره لكن فقدها لعذريتها ربّما يكون بسبب استئصالها لإحدى كليتيها.

نساء منهكات من الوجع والخيبات وغارقات بتفاصيل الحرمان ومتعطشات لرجال لم يعد لهم مكان إلّا في أحاديثهن الليلية في غرفتنا المنكوبة تلك.

إحداهن كانت تتصبّب عرقاً ما إن تبدأ بالحديث عن زوجها الذي توفي أثناء القصف الإسرائيلي للقرية منذ سنوات.

تقول إنّها حين تزوجته لم تكن لديه أية خلفية عن كيفية الدخول بها، وذلك لأنّه (على البركة)، فما كان منها إلاً أن تكفّلت

هي بتعليمه تلك الأشياء خطوة بخطوة إلى أن دخل بها بعد سبعة عشر يوماً، فأقامت مجلس عزاء فرحاً بذلك الحدث.

وبينما صديقات أمّي يتحدّثن عن رجال لا أعرفهم، كنت أنا أفكّر بك، ماذا لو حدثتهن عن قبلتك تلك التي ما زال لعابها عالقاً تحت لساني. تلك القبلة التي قذفتني بعيداً عنهن وعن أحاديثهن المملّة. أجزم أني لو حدّثتهن عن تلك القبلة لأغشيَ عليهن. قالت إحداهن واسمها عفاف:

"إنها تفضّل ممارسة الجنس على الأرض ومن دون وسادة لذا ستطلب ممن سيتزوج بها أن لا يشتري لها غرفة نوم كبقية النساء"، فالأرض لا تمتص عرقنا ونحن نتقلّب فوقها، تبقيه عالقاً على لحمنا، على عكس الوسائد والفرش التي تمتصّنا على عجل وكأنّها تتقاضى أجراً مِنّا لقاء ممارستنا الحب فوقها.

لابد وأنّ أولئك النسوة كانت لهنّ طقوس غريبة وخاصة جداً في كيفية التوصّل لتلك اللحظة التي يمهّدن لها الطريق بزيارتهن لنا والأحاديث عنها!

أتخيّلهن وهنّ يحضنّ وسائدهن ويمارسن الحب مع أنفسهن من طرف واحد، كم كنت أشفق عليهن وعلى أمّي التي لم أسمعها يوماً تتحدّث أمامهن عن أبي. ربّما لأنّها لم تحبه يوماً. لم تشغلني صديقات أمّي يوماً عن التفكير بك. لماذا تأخّرت كلّ هذا الوقت؟ هل يُعقل أنّك نسيتني؟

مرّ الأسبوع الثاني على بداية الشهر، وفجأة طرقتَ الباب بعد كلّ هذا الغياب!

إنّه صوتك. كنت أستطيع تمييزه وكأنّه صوتي! ما إن سمعته حتى تدحرجتُ من على السطح، حيث كنت أنشر ملابس أخوتي وأنا أفكّر بك. ركضت مسرعة إلى الغرفة كي أرتّبها، وأرتب تلك الفوضى التي اجتاحتني فجأة. دخلتَ من دون أن أراك، وجلستَ في الخارج مع أمي، سمعتك تعتذر لها عن تأخّرك بالمجيء قائلاً:

- كنت في إيران وجئت منذ أيام إلى بيروت، أعتذر منكم على التأخير في دفع زكاة الخمس.

أخوتي الصغار راحوا يتوافدون واحداً تلوَ الآخر إلى الغرفة كي يخبروني بأنّ الشيخ علي الذي أعطانا النقود منذ شهرين قد حضر!

هم لا يعلمون أني انتظرك كما لو أن قلبي مقطوع من شجرة، كما لو أنّك أنت تلك الشجرة.

أخي الصغير قال لي: لقد جلب معه علبة حلوى فاخرة.

أجابه أخي الأصغر منه:

ليس المهم علبة الحلوى، المهم أن يعطينا النقود كما وعدنا.

ردّت عليه أختي:

- ولماذا جاء إذا لم يكن سيعطينا النقود؟

سألتني إحدى أخواتي بصوت منخفض:

- هل أخرج، وأحضر علبة الحلوى؟

أجبتها بنبرة حاسمة:

- لا، هذا معيب. انتظروا قليلاً، عندما يرحل سنتذوّقها جميعاً.

غيّرت ملابسي على عجل، ارتديت جلبابي الوحيد، تأمّلت نفسي في المرآة فبدوت أجمل من قبل قليل. نبّهت أخوتي أن لا يتصرفوا أي تصرّف أحمق بحضور سماحتك، ثمّ خرجتُ إليك وكأنّي أخرج من نفسي!

وقفت لي.

لأوّل مرة يقف لي أحدٌ!

- كيفك؟

هُيّء لي أنك أخطأت في نطق الأحرف، وكأنّك كنت تودُّ أن تقول لي كلمة أخرى أكثر مصداقية؛ أجبت جواباً تقليدياً: الحمد لله

في ذلك الوقت، لم أكن أجيد غير الأجوبة التقليدية، أما أنت فكنت محنّكاً خبيراً فعندما دعتك أمّي لتناول طعام الغداء معنا اعتذرت بلباقة وذكاء قائلاً:

- كنت أوّد ذلك، لكنَّني لا أملك الوقت للأسف، فلقد أعطاني أحد العلماء في إيران مبلغاً من المال، واستأمنني أن أشتري به ملابس جديدة للأطفال الأيتام هنا في الجنوب، ولكن تبدو هذه المهمة صعبة عليّ، لذا سأضطر لأن أصطحب معي

من كلّ عائلة واحداً من أفرادها كي ينتقي الملابس للبقية. حبّذا لو تسمحين لليلى بمرافقتي كي تنتقي الملابس لأختها.

كم كنت بارعاً في تحقيق ما ترغب به! علمت وقتها من كلامك أنك تريد الاستفراد بي بعيداً عن المنزل، ولكنّني ولسذاجتي استغربت أنّك لم تلّمح لأمّي عن موضوع الزواج الذي كنت موعودة به.

لم تمانع أمّي ذهابي معك، فلقد كانت تثق برجال الدين أكثر منّا نحن. صعدتُ السيارة كما لو أني أصعد سلّماً موسيقيّاً، كلّ شيء بداخلي كان يترنّح، وكأنّ مجيئك سكب بداخلي عشرين كأساً من الويسكي من دون أن يضع فيها قطعة ثلج واحدة!

- ما رحتي من بالي ولا يوم.

- وإنت كمان.

- بعدني عند كلمتي، اليوم بدي أعقد عليكي.

- عم تحكي جد؛ مش مصدقة!

- زواج المتعة متلو متل الزواج العادي.

- ما فهمت؟

وتجمّد الدم في عروقي، كأنّ أحدهم صفعني على رقبتي فأحدثت صفعته غشاوة في عينيّ. خيبتي كانت بألف، خيبة لم أتوقعها بعد كلّ تلك الأحلام العريضة.

- أعدني إلى المنزل لو سمحت. خرجت تلك الجملة من أعماق خيبتي.

- هل نحن نلعب كالأطفال؟ لقد جئت من بيروت خصّيصاً من أجل هذا الزواج.

- لكنّك فاجأتني به!

- لقد أخبرتك بذلك المرة الماضية، عن أي مفاجأة تتحدثين؟!

خجلت أن أقول لك أنّ فهمي البسيط، وأنّ نفسي الأمارة بالسوء سوّلا لي فكرة أنك تنوي الزواج بي زواجاً طبيعياً، كما يفعل بقيّة الرجال مع الفتيات اللواتي يغرمون بهن.

- لا أرى أي مبرّر لانزعاجكِ. قبل قليل كنتِ سعيدة، هذا ما لاحظته.

بقيتُ صامتة طوال الطريق الذي أجهل أين سيأخذني، ونفسي تقول:

"أحبه، وهذا يكفي لأن أكفّ عن طرحِ تلك الأسئلة السخيفة التي تتكوم في رأسي، مرددة ما قرأته في قصاصة ورقية: "توجد السعادة حيث يوجد قلبك".

يا إلهي! كيف أنحاز لمجرد مقولة عن السعادة، وأتناسى دروس أمي، وقبلها جدتي عن الشرف والعرض والأعمال التي تدخلنا النار؟

يبدو أننا ننحاز لتلك الأشياء التي توفّر علينا طرح الأسئلة التي من شأنها أن تمنع وصولنا إلى أشياء أخرى أجمل وأهم.

وبماذا تفيدني تلك الأسئلة النمطية، بينما كنت أجلس إلى جانبك، ولا أشعر بشيء إلا بك أنت؟

الطائرات التي كانت تحوم فوقنا لم أسمع هديرها، المنازل المدمّرة على طرفي الطريق هنا وهناك لم تؤثّر بي بتاتاً، وكأنّي لست من هذا الجنوب، صور الشهداء المصطفّة بانتظام، صور الخميني والصدر وبري وكل تلك العمائم السوداء والبيضاء لم تعن لي شيئاً في تلك اللحظات تحديداً، وأنا في طريقي معك.

عسل الغواية

"ما أتعس الحب الذي يقبل أن يُقاس"

عند مدخل إحدى "الڤلل" المهجورة والمتطرّفة في إحدى القرى الجنوبية، ركن سيارته وطلب مني أن أنزل منها وأتبعه. أدرت ظهري لكل تلك المثاليات التي علّمتني إيّاها أمّي وجدتي، وركلت أيضاً كلّ ما تعلّمته عن الحلال والحرام في حسينيات البلدة، ومشيت خلفه كنعجة.

الغريب في الأمر أن الرغبة كانت تفوق الرهبة، وكأنَّ أخرى انسلخت عني، حمّلتها كلّ ما يثقلني من أفكار ومخاوف، وتركتها خارجاً!

فتح باب الڤيلا، وكأنّه يفتح لي باباً من أبواب الجنة التي لم يحدّثني عنها يوماً. لأوّل مرة أرى ما رأيت، كلّ شيء بدا مخيفاً. تسمّرت في مكاني، لأول مرّة أرى ڤيلا من الداخل لطالما كان منظر الڤلل يغريني من الخارج، لكنّني كنت دائماً أقنع نفسي بأنّها من الداخل تشبه غرفة أمي.

وقفت في منتصف هذه الدهشة وأنا أحاول أن أخفي دهشتي بكل ما يحدث لي، بينما يخلع هو عمامته ويرمي بها أرضاً، وكأنّها خرقة لا قيمة لها! تقدّمَ وحملَني!

وهو يصعد بي ذلك الدرج المؤدي إلى غرفة النوم كان كمن ينتشلني من الدرك الأسفل ليقذف بي في الطبقات العليا.

عطره مختلف هذه المرّة، لا يشبه عطره الذي كنت على وشك الاختناق به عندما قام بتقبيلي من قبل. كيف لرجل أن يخون عطره ويستبدله بآخر؟!

راحَ يقرّب شفتيه من شحمة أذني، ويهمس لي بكلمات أسمعها للمرّة الأولى، كلمات كانت أمّي تنبّهنا أن لا نتفوّه بها كي لا نُتهم بقلّة الأدب.

يسألني فلا أرّد، يختفي صوتي فجأة وأنا بين يديه. ركل باب الغرفة بقدمه، ودخل بي إلى ذلك الجحيم فائق الجمال. لطالما شاهدت هذا المشهد في الأفلام المصرية: "يدخل البطل حاملاً حبيبته بعد أن يركل باب غرفة النوم بقدمه".

كان الشيخ علي في تلك اللحظات هو بطلي الحقيقي والوحيد في هذا العالم، أليس ما نقوم به عملاً بطوليّاً؟ فقد أتى بي من بيت أمي، وعلى مرأى من الجميع، ثم عقد علي من دون أن يهتم لأي أحد، ومن دون أي رفض أو اعتراض مني، وهل يقول أمثالي لأمثاله: لا؟!

وقفت أمامه مطأطئة الرأس وبكامل حشمتي، أبتلع ريقي بانتظار أشياء لا أعرفها! في داخلي أشياء لا تُفسّر، نبضات قلبي تتسارع بشكل مخيف وكأنّها في سباق للجري، تركض بي وأنا ثابتة في مكاني، عاجزة عن اللحاق بها. أشياء ترفع حالة

الاستنفار في كلّ جزء مني إلى الدرجة القصوى، كلّ شيء كان يدور بي وأنا أقف أمامه.

يتأمّل تفاصيل وجهي الذي تحوّل إلى ما يشبه حبة بندورة شديدة الاستواء، يتأملني وكأنّه يعرفني منذ زمن طويل، يمرّر أصابعه المقدسة فوق شفتيّ؛ فتسخن الأرض تحتي وأرتفع شيئاً فشيئاً؛

- بتحبيني؟

خرجت من فمه وكأنّها ترتيلة صوفية.

كنت أنتظر أن يقول لي: "بحبك" بدلاً من سؤالي إن كنت أحبه. حتى الأسئلة يمكن أن تخذلنا في لحظة كهذه عندما يطرحها أحدهم بالمقلوب؛ وهل هذا سؤال يليق بتلك الحرائق التي أشتعل بها الأن؟

- أحبك جدّاً.

أحبك أكثر مما تتصوّر.

أحبك كما لو أنّك كلّ رجال العالم ومعهم أنت.

كلمات كانت تخرج من أحشائي وما إن تصل إلى طرف لساني حتى تعود أدراجها إلى الداخل. في لحظات باذخة الجمال كهذه، علينا أن نخرس تماماً، ونكفّ عن الثرثرة، طالما هناك مشاعر تثرثر نيابةً عنّا. تنهدّت بعمق، كأني لم أتنهد منذ سنوات، فأعادها ثانية:

- سألتك: بتحبيني؟

- نعم، أحبك.

- ولماذا تقولينها وكأنّك تجيبين أستاذك على سؤال في مادة التاريخ؟ تكلّمي معي بغنج، قالها وكأنّه يُصدر لي أمراً عسكريّاً.

- لا أعرف الغنج، لست معتادة عليه، لأوّل مرّة يطلب مني أحدهم أن أتغنّج له.

- عليكِ أن تعتادي عليه من الآن فصاعداً، فأنا أحبه.

- حسناً، كما تريد.

- هيا ردّدي خلفي كلّ ما سأقوله:

- متعّتك نفسي على مهـ..

لقد نسيت أن أسألك عن المهر الذي تريدينه.

- أريدك أنت مهري، لم أقلها له، لكنَّني تمنيت ذلك.

- هل تكفي مئتان وخمسون ألف ليرة؟ هذا حقكِ فلا تخجلي.

- نعم، تكفي.

- لنبدأ من جديد إذاً:

- متعّتك نفسي.

- متعّتك قلبي، أقصد متعّتك نفسي.

- على مهر قدره مئتان وخمسون ألف ليرة لبنانية.

- على مهر قدره مئتان وخمسون ألف ليرة لبنانية.

- لمدة شهر كامل بأيامه ولياليه

كالببغاء كنت أردّد خلفه ما يقوله من دون أي اعتراض، أو حتى استفسار، كتلميذة نجيبة تُسمّع الدرس لأستاذها الذي تحبه.

- مبروك حبيبتي

- الله يبارك فيك، قلتها بغنج هذه المرّة.

بدأ بفك أزرار جلبابي الثمانية، اكتفى بفك ثلاثة منها فسقط الجلباب وحده أرضاً مغمًى عليه، ثم خلع عني حجابي، رماه بعيداً وكأنّه يستعرّ منه:

- نهداك صغيران، سيكبران على يدي، قالها وهو يداعب صدري الذي لم يعجبه حجمه.

استفزتني كلماته، فأجبته من دون غنج، وكأنّني أبرّر له لماذا صدري ما زال صغيراً:

- أنا لم أبلغ السادسة عشر بعد، بقيَ لديّ شهر كي أتمّها، أنا أيضاً صغيرة مثل صدري.

- ستكبرين بسرعة، أعدكِ بذلك.

راح ينزع عني ملابسي، وكأنّه يقشّر قطعة موز، كنت أرتجف من الحب، رجفة تختلف كليّاً عن ارتجافاتي السابقة التي كانت ترافقني أوقاتَ البرد الشديد، أو عندما كانت طائرة الـM.K تحلّق فوقنا على علوٍ منخفض؛ رجفة تؤسّس لمرحلة شديدة من الانهيار وسط كلّ هذا الزخم من المشاعر، رجفة جديدة، لم تصبني من قبل، حتى إنّي أجهل كيفية التعامل معها!

- لماذا كلّ هذا الخوف؟

يباغتني بسؤاله وكأنّ ما يحدث لي أمرٌ عادي:

- لست خائفة، أقصد خائفة قليلاً فقط

- ممنوع أن تخافي وأنتِ معي، هل هذا مفهوم؟

- مفهوم.

قلتها بخوف شديد، فكل الأشياء من حولي كانت تبدو أكبر مني بكثير، بينما كنت أنا أصغر بداخلها شيئاً فشيئاً.

ما إن خلع عني ملابسي الداخلية حتى شبكت يديّ محاولةً إخفاء عورتي

يضحك ساخراً ما إن يراني أفعل هذا وهو يقول لي:

- أبعدي يديكِ، فأنت ملك لي لمدة شهر كامل، وأنا لا أحب أن يضع أحدهم يديه على جزء من أملاكي الخاصة.

يقولها بنبرة جدية تزيد من خوفي وقلقي، فأبعد يديّ على الفور؛ يحملني بيديه الدافئتين، يمددني فوق السرير بعد أن خلع عني كلّ ملابسي، أصابعه الناعمة راحت تتنقّل على مساحة لحمي الطري لتفتح له شهيته على رغبات لم تكن بالحسبان.

يبعد ركبتَيَّ عن بعضهما، وكأنّه يفتح مدينة محتلة، فأعود وأضمهما على بعضهما البعض علّي أحتفظ بآخر معاقلي، أضمّهما بقوّة وكأني أخفي بداخلهما منجماً من الماس.

يداهمني صوت أمّي بشكل مفاجئ ليفسد عليّ ما أنا فيه وهي تقول لإحدى صديقاتها بفخر شديد:

"أثق بليلى لدرجة أني لو وضعتها بين عشرة رجال فلن أشك بأنّها ستخرج من بينهم كما دخلت"

أطاحت كلماتها بذلك الشعور الذي أجهل توصيفه بدقة، بينما جسدي مفروش أمام الشيخ علي يلتهمه قطعة قطعة، ويدمغه كما تُدمغ الخِراف قبل ذبحها.

- أبقني عذراء يا شيخ.

تستفزّه تلك الكلمات فيتحوّل لوحش كاسر وهو يصرخ بي:

- قلتلك إحكي معي بغنج، ولا تقولي شيخ مرّة تانية، شو مفكرة حالك بالحوزة؟

سبي، اصرخي، اعوي، اعملي متل ما بتعمل بقية النسوان.

في تلك اللحظات الفاخرة، وعلى ذلك السرير الفاخر، وفي تلك الڤيلا الفاخرة، كان الشيخ علي يعمل على استبدالي بامرأة أخرى لا تشبه تلك الطفلة التي جاءت معه قبل قليل.

- لن أفض بكارتك، سأجعلك ترجينني كي أفعل ذلك.

نبرة إذلال لم أعتد عليها على الرغم من كلّ الفقر الذي عشته طوال ست عشرة سنة.

رجل يمتهن متعة الأجساد الطرية كجسدي، يعرف كيف يخرج الزيت الصاغ منها.

رجل يجيد الاحتفاء بالفقراء أمثالي، يجيد إذلالهن بطريقته التي يصعب وصفها. هي لحظات لا يمكن وصفها هنا على هذه الورقة التي لا تفي بالغرض، كلّ شيء كان يتصبّب عرقاً؛

الجدران والسرير وتلك الثريّا الفاخرة التي تتفرّج علينا من الأعلى، الساعة الرقمية التي اختلط عليها الأمر، وراحت تعدّ لنا الوقت على أصابعها، المرآة التي تعَرّينا أمامها، ورحنا نسترق النظر إليها لنتفرّج على جسدينا وهما يمارسان الحب طليقين.

كيف أصف ما لا يوصف؟

هي أشياء يصعب وصفها، أو شرحها أو تفسيرها، هي أشياء تحفر في العمق، العمق جداً، هناك -حيث يحدث لك كلّ شيء مرّة واحدة، وأنت بالكاد تجيد التقاط أنفاسك- وهي تعبر بك إلى أماكن لم تحلم بأن تطأها روحك يوماً.

هي لحظات من المعيب أن نختصرها ببضع كلمات، أو أن نُطفئ وهجها ونفردها على موائد اللغة وكأنّها أمرٌ عادي يحدث معنا كلّ يوم!

تلك لحظات لا توثّق إلا في مكانها الآمن؛ الذلكرة.

أكاد لا أصدق أن هذا الذي يأكلني بنهم هو نفسه سماحة الشيخ علي الذي تهتز له منابر الجنوب من أقصاه إلى أقصاه.

عدت إلى المنزل وكأني لم أعد، نصف امرأة تجرّ خلفها بقايا طفلة، وتجرّ معها الكثير من الأحلام الباكرة.

عدت وأنا أحمل ملابس أختي الجديدة، والكثير من السعادة الطازجة:

"منذ اليوم أنا الزوجة السرّية للشيخ علي، ظلّه الخلفي، عاهرته، صديقته، حبيبته، لا يهم من أكون بالنسبة له، كلّ ما يعنيني أني أحبه كثيراً، وأثق بعمامته أكثر وأكثر!

منذ اليوم سأودّع اليُتم مع الاعتذار الشديد له، سأطبع على جبينه قبلة أخوية عريضة مع شكري وامتناني.

سألتقي الحزنَ للمرة الأخيرة، سأودعه هو الآخر على أمل أن لا نلتقي مرة أخرى، سأشكره شكراً جزيلاً على كلّ هذا الوفاء الذي خصّني به على مدى أكثر من خمسة عشر عاماً!

سألوّح للفقر بيديّ الاثنتين، سأدعوه لتناول الغداء معنا للمرة الأخيرة، سأعدّ له اللحمة والأرز، وسأشكره على العشرة الطويلة بيننا! سأنساهم جميعاً، وأحبك أنت، فأنا لم أحبهم يوماً، كنت مجبرة على خداعهم كلّ ذلك الوقت".

ما إن دخلت المنزل حتى ركضت بتلك الملابس الجديدة وبدأت أجربها على أخوتي واحداً واحداً. كانوا سعداء بها لدرجة أنّ أحد أخوتي قال لأمي:

"بكرى الجيران بيحسدونا لأنو كلنا لابسين تياب جديدة"

أمّي راحت تطوي تلك الملابس، وقبل أن تقوم لتضعها في الخزانة سمعتها تنطق باسمك: " يا علي "

تردّد أمّي هذه الكلمة كلّ ساعة تقريباً، وكأنّها فريضة إلزامية، ولكثرة ما كانت تردّدها اعتدت على سماعها وكأنّها اسم لواحد من أفراد العائلة، فحين تستيقظ عند أذان الفجر،

وقبل أن تنهض من فراشها تنادي: "يا علي"، توقظ أخي الصغير إلى الحمّام كي لا يبول على نفسه، وقبل أن تحمله تنادي: "يا علي"، تسقط قذيفة إسرائيلية في القرية المجاورة، فترتجف خوفاً، وتستغيث: " يا علي ".

تحبل بطفلها السابع، وعند الولادة، وبينما تلك القابلة المسترجلة تصرخ عليها:

"هيا اضغطي أكثر" تنشغل أمّي بالصراخ مع كلّ طلّقة: "يا علي"!

لم يكن يعنيني ذلك الاسم من قبل، ولا تلك المعجزات الخفية التي تحدث لأمّي ما إن تردّده. كان ذلك قبل أن أحبك. تقول الآن أمي: "يا علي "، فيطير البيت بنا أنا وأخوتي الصغار بملابسهم الجديدة، نشاهد الغيوم على حقيقتها للمرة الأولى، نعانقها وكأنّها واحدة منّا. ثمة فرق بين الأرض والسماء. لا فقراء هنا ولا جوعى، لا جثث ولا متاريس ولا صواريخ كاتيوشا، لا بطانيات رمادية اللون مدموغة بختم الـ UN، لا عمائم سوداء ولا بيضاء ولا مليشيات، حتى طائرات الـ M.K التي كنا نشاهدها ونحن في الأسفل لا أثر لها هنا!

وحدنا أنا وأخوتي نزعج السماء، ندوخ ونتقيّأ على أنفسنا، نحن الذين لم نعتد التحليق بعيداً عن ذلك الزقاق المليء بنا.

يسقط البيت بنا مجدداً، تعصرنا أمّي بيديها المباركتين وتصرخ مجدّداً: "يا أبا الحسن يا علي" فتُضاء كلّ أعمدة الكهرباء

التي عطّلتها الحرب، تتشابك مع بعضها البعض لتعقد حلقات الدبكة في تلك الساحة المكتظة بالرايات السوداء، تشمّر الحسينيات عن ساقها وتزنّر خصرها لتتمايل على أصوات القذائف الإسرائيلية!

تلك القذائف نفسها تتحوّل فجأة لحمائم بيضاء تحمل بمناقيرها "البون بون" المحرّم لأطفال الجنوب.

تُدهشني كلّ تلك المعجزات التي تحدث بداخلي ما إن أسمع أمّي تنطق باسمك، ويؤسفني أني لم أجرؤ يوماً على مناداة الشيخ علي به، على الرغم من كلّ هذا الحب الذي أحببته إياه.

ثمة سبب منطقي كان يمنعني من ذلك؛ كنت أخاف أن أناديه: يا علي فيرد إمأمّي بدلاً عنه! وأمّي التي نادته آلاف المرات، لم يرد عليها ولو لمرّة واحدة!

على طبق شرعي

لم تكن أمّي تفكّر بالجنس، على الرغم من أنّها أنجبت قبيلة من الأطفال، كان الجنس بالنسبة لها عبارة عن وظيفة زوجية لا أكثر، لذا لم يخطر لها أن تتمتّع يوماً.

انتشرت ظاهرة المتعة كالوباء في الجنوب بعد ظهور حزب الله، كانت تلك الظاهرة من ضمن الظواهر التي قامت إيران بتصديرها لنا على طبق شرعي، لذا حظيَتْ بتوافق جماعي، فراح الكثيرون يمارسونها بغطاء ديني بحت، بعيداً عن المحاسبة أو تأنيب الشرف!

هنالك من يراها وضاعة بغطاء ديني، وخِتم فارسي، ومع هذا الجميع يخجل بها، ويمارسها بشكل سرّي تجنباً للفضيحة، كحالي أنا والشيخ علي. أيُّ شرع ذلك الذي يشرّع لك أمراً تستحي به؟

كثيرة هي القصص والفضائح التي تسببّت بها ظاهرة المتعة في الجنوب. ما زلت أذكر حادثة تلك الأرملة الأربعينية التي تعيش مع ثلاثة من أبنائها، في تلك الليلة استيقظ ابنها الأكبر الذي يبلغ الخامسة عشر من عمره على وقع أصوات المعارك الدائرة على أطراف القرية بين الاحتلال الإسرائيلي من جهة، وبين رجال

المقاومة من جهة أخرى، وإذا به يسمع صوت أمه في الغرفة المجاورة.

فما كان منه إلا أن صرخ بأعلى صوته:

- من هناك؟

فجأة فُتح الباب، وخرج منه رجلٌ عارٍ، فأسرع بالهرب، فلحق به ابن تلك الأرملة تحت جنح الظلام من زقاق إلى آخر وهو يشتمه بأعلى صوته حتى استيقظ نصف أبناء القرية على تلك الفضيحة.

المضحك في الأمر أنّه بعد عدة أيام من تلك الحادثة طلب ذلك الرجل من أحد أصدقائه أن يذهب إلى بيت تلك الأرملة كي يجلب له ثيابه وحذاءه، قال إنّه اشتراهم حديثاً، وهكذا علم الجميع من هو.

فضيحة أخرى كانت من نصيب امرأة مطلقة بعد أن ضبطها أحدهم وهي تخرج من ثكنة الكتيبة النيبالية التي كانت مهمّتها (حفظ السلام) في الجنوب!

وعندما سألها عن سبب تواجدها في ثكنة أصحاب القبّعات الزرق في هذا الوقت المتأخّر من الليل، أجابت أنّها جاءت بحالة إسعافية لتحصل على دواء لآلام المعدة، لكن سرعان ما أطلّ أحد النيباليين من الداخل وهو عاري الصدر.

برّرت فعلتها تلك بأنّها تمتّعت مع ذلك النيبالي كي تستميله للإسلام؛ وقد وجدت في المتعة الطريق الأقصر لإقناعه بذلك.

بعضهم سخر منها، والبعض الآخر اعتبر أنّها امرأة تحمل هموم الطائفة، وآخرون تحفّظوا على إبداء رأيهم واكتفوا باحتقارها.

لكن سرعان ما انكشف أمر تلك المرأة وذلك حين أفشت لبعض النسوة الثرثارات بأنّها تمتعّت مع ذلك النيبالي بعد نصيحة صديقتها المتزوجة من رجل أفريقي، إذ قالت لها يوماً:
"إنّ الرجال ذوي البشرة السوداء يتميزون بفحولة جنسية كبيرة، أنصحكِ بأن تتزوجي برجل أسود"
ولأنّه لا يمكنها الزواج برجل أسود فكّرت بأن تتمتع معه.

في ذلك الزمن المتخم بالسقوط الديني والسياسي وحدها البنادق وأعضاء الرجال كانت منتصبة طوال الوقت، ومتأهبة لأي طارئ قد يحدث، بينما كانت عقولنا المغيّبة وأجسادنا الجوعى هي المسرح الفعلي لتمرير كلّ صفقات تلك الحرب المجنونة تحت مظلّة الدين والوطن!

كانت تلك الفضائح تتسبّب بالعار الكبير لأصحابها على الرغم من شرعنتها، لكن لم يجرؤ أحد منهم على انتقاد رجال الدين الذين أباحوا تلك الفضائح بعد أن استخفّوا بقدراتنا العقلية، فأبدعوا في اختلاق البدع التي تتوافق مع مصالحهم الخاصة.

لطالما كنّا مزارع خصبة للجهل، وكانت فتاويهم المشبوهة عبارة عن سماد لتخصيب ما زرعوه فينا، هم أنفسهم الذين

أفتوا لنا بحرمانية مصافحة المرأة للرجل، أفتوا لنا بجواز المتعة بينهما، ومنذ ذلك اليوم ونحن لا نصافح لكن نزني باسم الدين!

صنعوا لنا ديناً على مقاس جهلنا، نحن الذين لم نجرؤ يوماً على طرح الأسئلة الكبرى عليهم وجهاً لوجه إيماناً منّا بقدسيّة تلك العمائم، أو ربّما احتراماً لجهلنا المزمن، وحرصاً على عدم إحراج الطائفة، وكشف عورتها، وتطرّفها ذي النزّعة الفارسية.

كانت حركة أمل في ذلك الوقت من المعترضين على فكرة زواج المتعة على الرغم من أنّ جنودها كانوا يمارسونها عن قناعة تامّة، لكنّ اعتراض الحركة كان من باب مخالفة حزب الله ليس إلّا، خاصة بعد أن سحب حزب الله البساط من تحت أرجلها وسيطر على كلّ مفاصل الجنوب المحرّر.

اكتشفتُ ذلك الأمر عندما قام أحدُ مسؤولي الحركة بزيارتنا ذات ليلة، ليخبرنا بأنّ هناك توزيعاً لمعونات غذائية وصحيّة في مدينة صور التي تبعد عن قريتنا نصف ساعة بالسيارة.

صديقات أمّي اللواتي كنّ بضيافتنا ككل ليلة تحمّسن للفكرة، وقرّرن أن يستأجرن تاكسي لتقلّهنّ إلى المدينة في صباح الغد، بعد أن طلبن من ذلك المسؤول أن يكتب لهنّ العنوان بالتفصيل.

لم تكن أيّ واحدة منهنّ تجيد القراءة، لذا استأذنَّ أمّي بأن يأخذني معهنّ كي أقرأ لهنّ العنوان، وكي أجلب معونة لنا أيضاً.

في البداية لم أتحمّس للفكرة، لكنّ حضور الشيخ علي في صباح اليوم التالي جعلني أغيّر رأيي، خصوصاً بعد أن عرض علينا أن يوصلنا بسيارته، على أن نستأجر سيارة في طريق العودة، وذلك لأنّه سيتابع هو طريقه إلى بيروت، ولا وقت لديه كي يعيدنا بسيارته إلى القرية.

جلست إلى جانبه في السيارة، بينما جلست صديقة أمّي السمينة إلى جانبي من الطرف الثاني لتحشرني بينها وبينه، أمّا البقيّة فجلسن في المقعد الخلفي، وانشغلن بالحديث عن صندوق المعونة، ورحن يتحزّرن ماذا يوجد بداخله؟! بينما انشغلتُ أنا والشيخ علي بأشياء أخرى لا علاقة لها بصناديق المعونة ولا بوكالات الغوث، ولا بجدار الصوت الذي تخرقه الطائرات الإسرائيلية فوقنا.

في تلك اللحظات شعرت بأنّه أقرب إليّ من أي وقت، كان يحفّ فخده بي، وكانت صديقة أمّي التي إلى جانبي تدير وجهها عني، وتتأمّل صور الشهداء المعلّقة على طول الطريق والمحاطة بأعلام حركة أمل وحزب الله، وهي تتحسّر على زهرة شبابهم. نصف ساعة وأنا أتمالك أعصابي كي لا أنهار أمام حركاته الصبيانية في تلك المساحة الضيّقة من السيارة وذلك الحصار الخانق من صديقات أمي. نصف ساعة تمنيت أن يحدث فيها أي شيء كي أكون معه وحدنا، أي شيء.

ما إن وصلنا المبنى حتى نزلنا من السيارة، وبعدها نزل الشيخ علي وراح يشير لنا إلى الطابق الرابع المكتوب في العنوان.

صعدن جميعهن المبنى، بينما تباطأت أنا وهو...

كان درج المبنى مظلماً، وكانت هناك فرصة كي نُفرغ ما بداخلنا، لذا توقّفنا في الطابق الثاني بينما تابعن هنّ الصعود.

خلال لحظات، كان يضمني إليه بقوة، يلتهم فمي وهو يسند ظهري إلى الجدار، يتفوه بتمتمات ساخنة، لم يكن لديّ الوقت كي أفهمها، كدت أقع أرضاً ما إن رفع عباءته وراح يوزّع عليّ قبلاته على عجل، وكأنّه يوزع معونة مستعجلة!

كانت لحظات خاطفة، لكنَّها من أجمل اللقاءات الحميمية التي جمعتني بالشيخ علي، كنّا نجرّب الحب وسط المدن المكتظة بكل شيء، والمكتظّة بنا أكثر من أي شيء آخر!

نجرّبه على وقع الحاجة لحفنة من الأرزّ المكسّر، وأكياس المعكرونة التي يملؤها السوس، تُفقدنا الحرب الكثير من أخلاقنا، تجرّدنا شيئاً فشيئاً من بعض كرامتنا التي تشبه علب السردين والمرتديلا والتونة التي قاربت مدة صلاحيتها على الانتهاء.

حين صعدت إلى تلك الشقّة في الطابق الرابع، رأيت صديقات أمّي يجلسن جنباً إلى جنب وهنّ يستمعن إلى واحد من أصحاب اللحى، وكأنهنّ في حصة مدرسية وهو يقول لهن:

- كلّ واحدة توافق على التمتّع، ستحصل على صندوقين من المعونة بدل صندوق واحد. ردّت عليه إحداهن باستغراب:

- هل تمزح، أم أنّك تتكلم بجديّة؟

فردّ عليها ساخراً:

- وهل أعرفكن من قبل حتى أمزح معكن، نحن هنا نوزّع المعونات للنساء اللواتي يوافقن على التمتّع، ألم يخبروكن بذلك قبل أن تأتينَ؟

كانت تلك الشقّة خاصة بالمتعة، وكان ذلك الرجل الملتحي تابع لحركة أمل، بدا ذلك واضحاً من خلال الصور التي عُلّقت على الجدران. أي حرمان ذلك الذي قادنا إلى شقّة كهذه؟!

أي شقاء ذلك الذي نحن فيه كي نقايض أجسادنا ببعض المعلّبات والصابون والشامبو المغشوش!

شعرت بالقرف من ذلك الملتحي الذي راح يحدّثنا عن الحسنات التي سنجنيها من المتعة، وكأنّي لم أمارسها قبل لحظات مع الشيخ علي، وكأنّي لا أتقاضى راتباً شهرياً مع معونة غذائية مقابل التمتّع بجسدي، "ثمّة فرق بين أن تمارس المتعة مع أحدهم كعاشق، وبين أن تمارسها كصاحب حاجة"، حاولت أن أقنع نفسي بهذه الكذبة السوداء، وأنا أستمع إلى ذلك الملتحي الذي رفضت صديقات أمّي عرضه الناقص؟

"لو أنّه أعطانا صندوق المعونة، وبعدها عرض علينا التمتّع لكان الأمر أهون علينا، ولكُنّا حسمنا أمرنا، وهل نحن نمارس الحرام لا قدّر الله؟"

قالتها إحدى صديقات أمّي وهي تنزل عن الدرج وكأنّها تقول "أنا لا مشكلة لديّ في هذا العرض المغري، لكنّ المشكلة من سيدفع أولاً، أنا أم هو"

أجابتها عفاف:

- هذا عرض ناقص جداً، ولو أعطاني كلّ أمواله ما كنت لأرضى بذلك.

ما أرخص أجسادنا في الحرب، كلّ شيء أغلى ثمناً منها! أي فظاعة تلك التي تضع كرامتك وإنسانيتك في إحدى صناديق الأمم المتحدة، ثم تخيّرك بين عجزك وبؤسك، وبين لحمك المتورّط بالجوع؟! لم أكن يومها بحاجة لتلك المعونة، فالمال الذي يتصدّق به علينا الشيخ علي يكفينا أنا وأمّي وأخوتي، لكنَّني ذهبت معهن بناء على رغبتهن. عندما أخبرت الشيخ علي بما حدث جُنّ جنونه، وكأنّه لا يمارس الشيء ذاته معي بحجّة الحب!

أقفاصٌ ذهبيّة

"لكي يقوم الجيّدون بأفعالٍ سيّئة لا بدَّ من الدين!"

لم يحدث يوماً أنّي تحاورتُ مع الشيخ علي حواراً دينياً، كنتُ كلّما سألّته في مسألة فقهية كي أثبت له ذكائي يجيبني بتأفّف: "هذا ليس الوقت المناسب لهكذا أسئلة، عندما نجتمع في المقر، اسألي ما يحلو لكِ."

عندما كان يلقي الدروس الدينية والحزبيّة في المقّر التابع لحزب الله، كان يتحوّل إلى رجل مختلف تماماً عن ذلك الذي يتسكّع فوق جسدي، ويضع سيجارته بين أصابع قدمي لينفث دخانها وهو يتلّذذ بالنظر لما بين فخدي!

كانت تبهرني شخصيته الجدية وهو يحضّنا على عشق آل البيت والجنوب. كان مولعاً بعشقه للجنوب! عندما سألته ذات مرّة:

- لماذا اخترتني من بين كلّ فتيات القرية؟

أجابني ببساطة:

- لأنكِ جنوبية بكل تفاصيلك.

صدّقته يومها، فلقد كنت أعلم حجم عشقه المبالغ فيه للجنوب!

الجنوب: ذلك الساحر الذي يتأبّط ذراع فلسطين، وكأنّه مغرم بها مذ ولدته أمه، ذلك المتورّط بالحروب على مدار الساعة دفاعاً عن عناده المشرّف، ورزق أبنائه من أحفاد زينب.

يكفي أن تكون جنوبياً لتدرك ماذا تعني الحرب، ماذا تعني القنابل العنقودية وطائرات الـM.K التي كان الجنوبيون يطلقون عليها لقب: "أم كامل" كما يُسمون "البعثات الإنسانية": البعصات الإنسانية

يكفي أن تكون جنوبيّاً لتتفوّق بأبجديتك الخاصة على البقيّة، لتعرف كم أنت محظوظ لأنّك تنتمي لأرض تحاذي أرض فلسطين، وماذا يعني أن يقف الجنود الإسرائيليون عند أعلى نقطة مراقبة وعيونهم المفجوعة تلتفت لجنوبك تارة ولفلسطين تارة أخرى، بينما يديرون لك مؤخراتهم غير آبهين بأنّك الابنُ البارّ لتلك الأرض!

لم يرفع الجنوب يوماً إشارات النصر الوهمية، كتلك التي كان يرفعها ياسر عرفات وغيره من القادة العرب، كان النصر هو من يرفع الجنوب وأبناءه فوق كتفيه ويرقص متباهياً بتضحياتهم ودمائهم المجبولة بالزعتر البري والتبغ الذي يتصاعد دخانه ليزعج العدو فوق تلك التلال المحتلّة. لا مكان للهزائم في الجنوب ولا لحبوب منع الحمل، نحن نمارس فيه الحب كواجب شرعي، والنصر كفرض عين. لا وجود للخمّارات في الجنوب، فنحن نسكر بعشق الحسين، ونثمل بحب علي، ونهذي بلطم

زينب. لا وجود لبيوت الدعارة في الجنوب، هناك القليل من بيوت الله والكثير من بيوت الحسين، وفي كلّ بيت هناك علي وحسين وزينب.

لهذا كان الشيخ علي يعشق الجنوب، ويخاطر بحياته لقضاء ولو ساعة واحدة على أرضه، كان جنوبياً أكثر من غيره على الرغم من أنّه لا يشبه الجنوبيين بشيء، كان من أعند المسوّقين لفكر الثورة الإيرانية وبعض العادات الفارسية، يكفي أن تكون الفكرة إيرانية حتى نتهافت على تطبيقها بحذافيرها من دون أن نسأل عنها!

ما زلت أجهل، ما هو الدافع وراء الكثير من تلك الممارسات الإيرانية التي كنا نعتمدها وكأنّنا ورثناها عن أجدادنا الجنوبيين؟! نحن موهوبون جدّاً في تبني كلّ الأفكار التي تصدّرها لنا إيران حتى من دون أن نكلّف أنفسنا عناء فلترتها.

منذ أيام عملت إحدى الماكينات الإعلامية في إيران على تصدير خدعة جديدة للشيعة العرب، وذلك عندما أقنعت بعض العراقيين من البسطاء والسذّج بأنّه أصبح بمقدورهم التواصل مع الإمام الحسين بشكل مباشر، وذلك عبر الاتصال به عن طريق أحد الخطوط التي تملك خاصية الاتصال به مقابل مبلغٍ من المال!

أجزم لو أنّ أمّي ما زالت على قيد الحياة، لكانت باعت سطح غرفتنا، وذهبت بثمنه إلى العراق لتحظى بذلك الاتصال الكاذب.

تُرى لو أتيح لأمّي بأن تتّصل بالحسين فعلاً، بماذا كانت ستخبره يا ترى؟

هل كانت ستخبره بأنّها أنجبت اثني عشر طفلاً تيمّناً بعدد أئمّة أهل البيت الذي هو منهم، وأنّ كلّ من يدّعون أنّهم من سلالة آلِ البيت لم يتبرعوا لواحد من أخوتي ولو بعلبة حليب صغيرة لوجه الله؟

هل ستخبره أن خزانتنا المليئة بالسُبحات وأقراص السجود الفخارية والتي يهدوننا إيّاها طوال الوقت، كانت خالية تماماً من أقلام الرصاص وحبوب وقف الإسهال التي يحتاجها أخوتي الصغار!؟

هل ستخبره أنّ أحفاده من حزب الله قاتلوا أحفاده من حركة أمل، وأنّه كلّما قتل أحدهم الآخر كان يصرخ يا حسين على نيّة إصابة الهدف؟

هل كانت أمّي ستخبر الحسين عن فلذة كبدها عباس، وعن تلك النافذة التي رسمها لنا على جدار الغرفة قبل موته بعام!؟ وأنّها عملت لسنتين كي تجمع المال الذي نذرت وضعه في قفص أخته زينب عليها السلام؟

بالطبع لم تكن لتخبره بأنّها زارت ضريحه في الشام والعراق، وأنّها أقامت عن روحه أكثر من مئة مجلس عزاء وأنّها في كلّ مجلس كانت تستدين المال كي تدفع للقارئ الذي يدّعي بأنّه يقرأ العزاء حبّاً بالحسين!

حتماً: لا، فأنا على يقين أنه لو أتيح لها ذلك الاتصال، لكانت ستكتفي بذرف الدموع شوقاً له، وستدعو له بطول العمر وبالنصر على ألدّ أعدائه، وعلى رأسهم أبو بكر وعمر، وستدعوه لزيارة بيتنا، وتناول الشاي الجنوبي معنا.

أجزم أن أمّي هي أكثر من أحبّ الحسين على وجه هذه الأرض، وأنّها أكثر من صدّق أكاذيب رجال الدين.

لا بدّ للحسين أن يكافئ أمّي يوماً على كلّ هذا الحب وتلك التضحيات! عليه أن يكافئها على ذلك النذر الذي نذرته لأخته زينب عليها السلام، بعد تعرّض أحد أخوتي الصغار لحادث خطير، ذلك النذر الذي عملت لسنتين في قطاف الخضار والفواكه الموسمية كي تجمع نقوده، وتذهب لتضع تلك النقود داخل ذلك القفص الزينبي في دمشق!

من كان سيقنع أمّي المسكينة أنّ السيدة زينب التي ماتت منذ أكثر من ألف عام، لن يستطيع أمهر ساعي بريد أن يخبرها بأنّ هناك امرأة جنوبية عملت في الحقول لمدة سنتين كي تجمع لها ذلك النذر!؟ وأنّ أحدث أجهزة الصرف الآلية لن تنجح بإيصال ذلك المبلغ لها؟ وكأنّهم عندما صنعوا لنا تلك الأقفاص

الوهميّة كانوا على يقين بأنّنا سنظل أسرى لها، ولتلك الموروثات التي استحكمت عقولنا، وكبّلتها بأكاذيب تاريخيه لا ندري مدى صحّتها.

أي جرم ارتكبنا كي يتوغّلَ هؤلاء الذين يدّعون أنَّهم وكلاء آلِ البيت داخل عقولنا، ويحتلون تلك المساحات الشاسعة منها!؟

أي نوع من المخدّر ذلك الذي يحقنون به أدمغتنا لنفقد كلّ هذا التركيز، وننشغل بهم وحدهم، بينما هم يسترزقون على حساب تراجعنا للخلف عبر سلطتهم التعسفية التي تفوق خطورتُها أيَّة سلطة أخرى!

من سيدفع لنا ضريبة كلّ تلك الدموع التي ذرفناها؟ والتي حولوها لمادّة مستهلكة يتاجرون بها، وكأنّها سلعة في تبادلهم التجاري؟

من يعيدنا لطبيعتنا الفطرية، ونحن الذين لا قضية لنا سوى الثأر للحسين، ولا مهنة لدينا سوى البكاء عليه وجمع المال لوضعه في أقفاصه الذهبية!

تلك الأقفاص التي تحوّلت إلى زنازين تقيّد عقولنا الهشّة! تلك الأقفاص التي تدّر عليهم المال، وتدر علينا المزيد من الفواتير المستحقة.

أتذكّرُ حين توفي رجل معروف في الجنوب، فأفتى المجلس الشيعي بأن يقسّم ميراثُ ثروته بين زوجته وبين الإمام المهدي (صاحب الزمان)، وذلك لأن الزوجة لم تنجب أولاداً منه.

أثارت يومها تلك الفتوى الكثير من التساؤلات في الوسط الشيعي، الجميع تساءل:

"كيف سيصل هذا الميراث للإمام المهدي؟

وكانت الاستنتاجات: أنّها ستذهب للمجلس الشيعي الأعلى في لبنان!

نزني باسم آل البيت، ننهب أموال الأحياء والأموات باسمهم، ونقتل باسمهم. كم من الأرباح جنينا بحجّة آل البيت؟

كم من الأرواح قتلنا، كم من غشاء بكارة فضضنا، وكم من الأكاذيب تم تلفيقها ورحنا نروّج لها على أنّها حقيقة عن آلِ البيت!

مستودعات للجهل المقدّس نحن يا أمي، وهؤلاء الذين كنت تصدّقين كلّ ما يقولونه عن الدين، يصلحون لكل شيء إلا لتسويق فكرة الدين!

لم تكوني يوماً غبية يا أمي، هم من كانوا بارعين في قلب الحقائق رأساً على عقب، ليجعلوا من هذا الدين العظيم شركة تجارية مختصّة بصناعة الجهل لنا في زمن التكنولوجيا والأقمار الصناعية!

كل العقائد والأديان والأحزاب والإيديولوجيات تصعد على أكتاف الفقراء والجهلة أمثالنا يا أمي، فلماذا لا نخلع تلك الأكتاف، ونمضي بعقولنا إلى آلِ البيت الذين أحببتِهم أكثر منّا جميعا!

فاصلة بين أثرين

أكثر ما كان يشعرني بالانزعاج من علاقتي بالشيخ علي هو أنّني لم أجرؤ على البوح بها لأحد، حتى لأقرب صديقاتي؛ فالشيخ علي شخصية لها حضورها الديني والسياسي في الجنوب، لذا لا يمكن أن أتسبّب له بفضيحة؛ سألتني صديقتي ذات مرة:

- أيُعقل أنّكِ لستِ مغرمة بأحد ما؟

- لا، أتمنى أن يحدث ذلك يوماً.

- هل أخبركِ سرّاً؟

- تكلّمي

- عماد مغرمٌ بكِ على ما يبدو

قالتها بسخرية ثم أفرطت بالضحك

- ومن يكون عماد هذا! ولماذا تضحكين لهذه الدرجة؟!

- انظري إلى المبنى المقابل لنا ستجدين نافذة، وخلف تلك النافذة سترين شاباً يحمل بيده كتاباً، ويتظاهر بأنّه منهمك بالقراءة، بينما هو واقف يسترق النظر إليكِ، في كلّ مرة تقومين بزيارتي يطلّ من النافذة ويتحجّج بالقراءةِ، لاحظت هذا الأمر لأكثر من مرّة، هل يعقل أنكِ لم تلاحظي ذلك؟

- لا، لم ألاحظ ذلك!

رحت أراقب ذلك الشاب، كان وسيماً جدّاً، ملامحه تشي بالهدوء، بدا كأنّه لا يشبه بقية الشباب في قريتنا، سألتها:

- أذكر أنّي لمحت هذا الشاب من قبل، تُرى من يكون؟

- إنّه ابن جارنا، شاب مجنون، فقد عقله لشدّة ولعه بالعلم والدراسة، لهذا أضحك!

- وهل هذا أمر مضحك؟

- ليس جنون عماد هو من يضحكني، بل أن يغرم بكِ شاب مجنون مثله.

- تتحدّثين وكأنكِ متأكدة من حبّه لي؟

- أجل، متأكدة وجدّاً، عندما ستغادرين بعد قليل، وتنزلين الشارع، سيذهب عماد للشرفة الأخرى كي يراقبكِ حتى تغيبي، عندها سيدخل، ويُغلق النافذة خلفه.

- أسمع عن قصص مشابهة لأشخاص أصيبوا بالجنون لفرط تعلّقهم بالعلم، لكن لم أكن أتوقع أنّ في قريتنا نماذج من هؤلاء الأشخاص!

- عماد كان يقيم في بيروت، منذ سنة تقريباً جاء مع عائلته للاستقرار هنا في القرية.

أربكتني قصة عماد، خصوصاً بعد أن لاحظت نظراته المليئة بالإعجاب لي: "يا إلهي! كيف يفكّر بالحب من فقد عقله؟"

عندما قمت بزيارة صديقتي بعد أيام، لمحت عماداً واقفاً مع بعض الشباب عند مدخل منزله، وما إن رآني حتى دخل منزله

ووقف عند النافذة نفسها؛ انتابني خوف شديد، فاقترحت على صديقتي أن تقوم هي بزيارتي بدل أن أزورها أنا، لكنَّها اعتذرت قائلة:

- إخوتكِ الصغار يُحدثون ضجة كبيرة طوال الوقت، ولن أجد مكاناً هادئاً في الغرفة كي نتحدّث أنا وأنتِ، هنا في منزلنا نجلس بهدوء، أما بالنسبة لعماد فهو يقوم بمراقبتكِ منذ أشهر الفرق الآن أنك عرفت بذلك لا أكثر!

تذكرتُ أني لمحت عماداً أكثر من مرّة؛ وهو يمرّ من زقاقنا على الرغم من أنّ منزله يبعد عنّا مسافة لا بأس بها؛ هل يُعقل أنّه يمرّ كي يراني!؟ فأنا أنقطع عن زيارة صديقتي بين فترة وأخرى؛ وتذكرت أيضاً أنّ أحد أخوتي الصغار كان يتناول قطعة من الشوكولا غالية الثمن وعندما سألته:

- من أعطاك هذه؟

أشار بيده لشاب كان يتابع سيره من دون أن يلتفت إلينا، كلّ الظن أنه كان عماداً نفسه!

كيف لم أنتبه أنّ هناك شاباً شبه مجنون مغرم بي، وأنّ تلك النظرات التي يلاحقني بها ربّما تكون قد تخطّت مرحلة الإعجاب!

شاب لا يملك من العقل سوى بعض الفتات يغرم بي! أنا المكتظّة بعشقي للشيخ علي، ذلك الرجل الذي يملك بدوره نوعاً حصرياً من الجنون لا يمكن لرجل آخر أن يملكه.

من المضحك أن تحظى فتاة مثلي بعشق اثنين من الرجال لا يشبهان بعضهما بشيء، حتى إنّهما هما الاثنان لا يبدوان جنوبيين!

فالشيخ علي ذو النزعة الفارسية، يختلف تماماً عن عماد ذلك الشاب الذي قضى شبابه وهو يتنقّل بين مدارس المدينة.

في ذكرى ولادة فاطمة الزهراء التقيتُ بعماد بالصدفة؛ كان يقف عند مدخل الحسينية وهو يحمل بيده علبة من الحلوى الفاخرة، ويقوم بتوزيعها على المارّة احتفاء بتلك المناسبة؛ ابتسم لي من بعيد، وكأنّه يقول لي:

"تعالي وتذوقي حلواي، ألستِ سعيدة بمولد الزهراء مثلي؟"

اقتربت منه، مددت يدي، وأخذت قطعة من الحلوى، بينما أشاح هو بوجهه خجلاً مني؛ كنت أرى ابتسامته وقد تمددت إلى سائر أنحاء وجهه، شرايين عنقه ظهرت لي فجأة وكادت تنفجر خجلاً وفرحاً بي، تناولت قطعة أخرى وأكلتها، وبقيت واقفةً أنتظر أن يلتفت لي، لكنّه لم يفعل، فتناولت قطعة ثالثة، وأنا أتناولها وسوس لي الشيطان أن ألمس يده، وأن أتظاهر بأنّي لمستها عن غير قصد، فعلت ذلك تطفلاً لا أكثر، وبينما كان هو يناول قطعة من الحلوى لأحد الأطفال، أمسكت أنا بأصابعه، وأخذتها منه بدل ذلك الطفل، لم أكن أعلم أن لمستي تلك ستحدث فيه كلّ هذا الأثر! شعرت برعشة في أصابعه وهو ينسلها من بين يدي، وما هي إلا لحظات حتى رمى بعلبة الحلوى

أرضاً، ثم وضع يديه بين فخديه محاولاً إخفاء ذلك البلل الذي ظهرت آثاره فجأة على بنطاله ومشى مسرعاً. أقسم إنّي لم أكن أقصد ذلك، كلّ ما في الأمر أنّي كنت أستثنيه من بين الجميع، وكان يُهيأ لي بأنّه مختلف عنّا، لا يحدث له ما يحدث لنا نحن الذين ندّعي العقل!

لم أكن أتوقّع أن تُحدث لمستي كلّ هذا الارتباك في جسده! لقد أحرجتُ نفسي حين قمت بتلك الحركة، وشعرت بقذارة الحماقات التي نرتكبها عن سابق إصرار، تلك الحماقات التي تشبه ضربات الترجيح، إما أن ترفعنا إلى الأعلى، وإما أن ترمي بنا على وجوهنا. كيف أستلذّ بالسيطرة على مجنون؟

هو الحب، لو اجتمع كلّ علماء النفس في العالم لما استطاعوا إحداث تلك الفوضى الجميلة التي أحدَثتْها لمستي لأصابعه، ومع هذا كنت أتمنّى لو أنّي أملك الجرأة كي أعود وأعتذر له عن هذا الجرم الأخلاقي الذي ارتكبته.

ماذا لو لاحظت أمّه ذلك السائل الذي على بنطاله وأحرجته بسؤالها عنه؟

ماذا لو اعتقدت أنّه بول، وليس بسبب لمستي تلك؟

ماذا لو قال لها بأنِّي من قمت بلمس يده، وبأنّه لم يحتمل ذلك؟

دخلتُ الحمّام واستحممت ما إن وصلت البيت،

كان الشيخ علي قد نصحني باللجوء إلى الاستحمام كلّما انتابني شعور بالذنب، أو كلّما تجاوزت خطاً أحمر، منذ أن نصحني تلك

النصيحة، وأنا أستحمّ من تلك الأشياء كما أستحمّ من الحيض، فالخطوط الحمراء ليست إلّا جرائم مقصودة نرتكبها بغرض الخروج من حالة الركود التي نعيشها مجبرين، نحن المفرطون بتنفيذ الأوامر، والذين نتمرّد على الأشياء فجأة ومن دون أي تخطيط مسبق.

عماد كان هو الخط الأحمر الوحيد الذي كنت أرفض تجاوزه على الرغم من تعاطفي مع حبه لي، فنحن نتجاوز الخطوط الحمراء على الرغم من أننا نعلم بأن هذا التجاوز سيتسبّب لنا بالكثير من المتاعب، باستثناء تلك التي تحرّك فينا غريزة الشفقة، فتجبرنا على التزام حدودنا.

عماد لا يُشبه الشيخ علي بشيء إلا أنني كنت أكنّ لجنونه الكثير من الاحترام والتقدير، كان يلزمني الكثير من الطاقة والحذر كي أتعامل مع شخصيته النادرة والاستثنائية بكل تفاصيلها، مع ابتسامته الملائكية التي تشيطن مشاعرك من الداخل فترغب بتقبيلها من دون توقف، مع جماله ذي الطابع الفرنسي، مع تسريحة شعره المستفزة، كيف لمجنون مثله أن يملك كلّ هذا؟!

كيف له أن يؤثّر فيّ إلى هذا الحد، فلا أنا أحبه، ولا أتمنى بأن يتوقف هو عن حبي.

لم أستخفّ بحب عماد لي، بل العكس تماماً: شكّلتْ شخصيتُه لغزاً بالنسبة لي، لغزاً يحتاج الكثير من التأنّي

لتفكيكه. عندما التقيت به بعد تلك الحادثة في مستوصف البلدة، كان جالساً إلى جانب والدته في المقعد المقابل للمقعد الذي كنت أجلس عليه، بدت أمّه مغرورة بعض الشيء وهي تبرّر لي سبب مجيئها لمستوصف البلدة بدل ذهابها لعيادة خاصة:

- لا أعلم لماذا يصرّ عماد على المجيء لهذا المستوصف على الرغم من أنّه لم يكن يُمانع من قبل في الذهاب إلى طبيبه الخاص.

أجبتها مرغمة:

- حسب علمي، كلّ أطباء القرية الذين يملكون عيادات خاصة يناوبون هنا في المستوصف.

- نعم هذا صحيح.

- ما الفرق إذاً؟

ردّت بنبرة ملؤها الفوقيّة:

- بالنسبة لكِ ليس هناك أي فرق، أمّا بالنسبة لنا فهناك فرق كبير.

- كما تشائين سيدتي.

مسكينة أم عماد، هي أيضاً أميّة مثل أمي، كانت فقيرة مثلها، لكن الحظ الذي كشّر لأمّي عن أنيابه ابتسم لها ابتسامة عريضة، ومع هذا كانت لا تزال تعاني عقدة النقص والحرمان، كان عماد يستمع لحديثنا أنا وأمّه وهو يحني رأسه خجلاً، بينما ركبتاه تهتزان كقلب مراهقة، كان يبتسم وكأنّي أحدّثه هو لا أمّه!

عندما خرجت الممرضة، وطلبت من أم عماد الدخول للطبيب، قامت هي وبقي عماد جالساً مكانه، خجلت أن أقول له قم والحق بأمّك.

شعرت بالصدمة عندما أخرج من جيبه قطعة من الشوكولا وأشار بيده كي أخذها منه، وكأنّه كان يقول لي:

"تعالي والمسي يدي كما فعلتِ في المرة السابقة كي يحدث لي ما حدث..."

رعشة تشبه صعقة ماسٍ كهربائيٍّ أصابتني وهو يعرض عليّ قطعة الشوكولا، قفزت من مكاني، وغادرت المستوصف، وكأني أهرب من فضيحة ما.

كيف لعماد أن ينحدر بتفكيره إلى هذا الحد؟

رحت ألعنه وألعن نفسي.

ألعن هذه الحياة التي استكثرت علينا براءتنا، فلا تركتني طفلة صغيرة كما كنت قبل أن أتعرّف على الشيخ علي، ولا تركته هو بكامل قواه العقلية!

هذا الدخول المتدفق لعماد في حياتي كان بمثابة عقوبة إضافية لي، أنا التي كنت قد تفاءلت كثيراً لوجود الشيخ علي بجانبي معتقدةً أنّ حبّه لي سيوّفر عليّ خوض الكثير من المعارك الخاسرة في هذه الحياة!

لاحقاً، بدأت أتعايش مع فكرة وجود عماد في حياتي، كنت سعيدة بهذا الحب على الرغم من أنّه تسبّب لي بالكثير من

الإحراج في القرية، لطالما حدّثت نفسي بأنّه عليّ أن أواجهه، وأقنعه بأن يكفّ عن التورّط بحبي أكثر، لكنَّني كنت أتراجع في كلّ مرّة. ربّما خوفي من ردّة فعله هو من كان يمنعني من ذلك، فماذا لو فاجأني بما لم أتوقعه، كأن يقول لي مثلاً:

"ألا يكفيكِ فخرا بأنّي أحبكِ بذلك الجزء المتبقي من عقلي والذي لا أملك غيره!"

كيف لي أن أطلب منه ذلك فأقضي على تلك الابتسامة التي لا يملك وسيلة أخرى غيرها ليعبّر لي بها عن حبه!

ابتسامة عماد هي البصمة التي يتميّز بها عن الآخرين، هي اللّغة التي كان يحدّثني بها من دون أن ينطق بحرف واحد!

علاقتي التراجيدية به كانت مليئة بالتناقضات، إذ كنت أستحي بحبه لي أمام الآخرين من جهة، ومن جهة أخرى حرصت على أن لا أظهر له ذلك، فقد رأيت في حبّه لي ما يشبه الإعجاز الروحي والذي كان يصعب عليّ رفضه أو مقاومته!

وعندما يسأله أحدهم عني: هل أنت مغرم بليلى؟

كان وجهه يفور خجلاً، ثم ما يلبث أن يترك المكان مسرعاً من دون أن يجيبه على سؤاله، فيسخر كلّ الموجودين من تصرّفه ويضحكون عليه إلى أن يغيب عن أنظارهم.

كان عماد يشعر بالسعادة عندما يردّد أحدهم اسمي أمامه، تماماً مثلما كان يحدث لي عندما كان أحدهم يذكر اسم الشيخ علي أمامي، الشيخ علي الذي وفّر لي وجوده في حياتي الاكتفاء

الذاتي من جميع النواحي. عندما كان ينفرد بي كنت أشعر بأنّه يمارس الحب للمرّة الأولى، يتغزّل بي وكأن ليس لديه زوجة تتفوّق عليّ في كلّ شيء!

كثيرة هي المرّات التي شعرت فيها بأنّه يحتاجني أكثر ممّا أحتاجه، على الرغم من أنّه كان يملك كلّ شيء بينما كنت أنا أحد أملاكه.

كان الحفاظ على ثقته أهم أولوياتي، فلقد كنت أخاف خسارته جداً خاصة بعد أن اعتاد أخوتي على تناول العشاء كلّ يوم بعد أن خصّص لنا راتباً يكفينا لسد احتياجاتنا لشهر كامل من دون أن نضطرّ لأن نستدين من أي محل تجاري.

يحدث أن يجعل أحدهم من جسدك مصدر رزق، فتأتي الظروف لتثني على فعلته تلك، ولتمنحه كامل الصلاحيات!

في كلّ مفترق طرق نمّر به دائماً هناك طرف ثالث لا نراه بالعين المجرّدة، طرف يطلّ علينا كقاطع طريق ليسرق منّا شغف الوصول للذروة، ثم ما يلبث أن يرفع لنا بإصبعه الوسطى ساخراً، ويكمل الطريق وحده من دوننا.

طرف لا يملك عصاً سحرية، ولا أسلحة متطورة، ولا قرارات من مجلس الأمن تحت البند السابع، لكنّه يملك جهاز التحكّم بنا. طرف لعين اسمه: الظروف.

ثمة ظروف لا يروق لها أن تُرافقك جنباً إلى جنب، وكأنّها تستحي بك، فتركض أمامك لتركض أنت خلفها، لا يعنيها كم من

السيقان عليك أن تبدل وأنت تجري لتلحق بها، وكم من الوقت سيحتاج قلبك لتنظيم عدّاد نبضه وهو يلهث وراءها على أمل الوصول!

لولا تلك الظروف لما تجرّأ الشيخ علي على ملاعبتي فوق أصابعه وجسده لأكثر من عام.

عندما تكون فقيراً معدماً، يسهل استدراجك لأي شيء مهما كنت عنيداً ومكابراً، فكيف إذا كان ذلك الشيء هو الحب.

كان الشيخ علي هو رجل المرحلة الانتقالية في حياتي، المرحلة التي أعادت تشكيلي وفق مزاجه الخاص؛ رجل نصفه شيطان ونصفه ملاك، وكان نصفه الشيطاني الذي يشرعن لي الخطيئة هو من يستهويني.

"نحن فقراء منذ زمن طويل، لماذا لم ينتبه الشيخ علي لهذا الأمر من قبل، لماذا يُغدق علينا كلّ هذا الكرم الآن؟"
قالها لي عباس عندما حضر من بيروت.

غياب عباس عن البيت، وانخراطه في حركة أمل صبّا في مصلحة الشيخ علي، وإلّا لكان كشف أمرنا منذ اليوم الأول، ولكان وفر على نفسه طرح ذلك السؤال!

كان عباس ذكيّاً جدّاً على الرغم من فشله في الدراسة، وأكثر ما كان يهمني في ذلك الوقت أن لا تهتز ثقته بي هو وأمي.

عندما حضر في إجازته من بيروت والتي لا تتجاوز ثلاثة أيام، طلبت منه أن يرسمنا جميعنا في لوحة واحدة، إذ اكتشفت أنّه

لا يوجد عندنا ولا صورة فوتوغرافية تجمعنا أنا وأمّي وأخوتي لذا اقترحت عليه رسمنا. أمّي التي تحمّست للفكرة طلبت من أخوتي أن يرتدوا ملابسهم الجديدة التي كان قد اشتراها لهم الشيخ علي، لكنّ عباس اعترض قائلا: "بدي أرسمكن على طبيعتكم"

لم تكن مهمة رسمنا كعائلة مجتمعة بالأمر السهل، خاصّة وأنّ أخوتي كثيرو الحركة، لذا كان من الصعب ضبطهم والتزامهم بالجلوس بشكل متواصل حتى انتهاء "الرسمة"

اعتمد عباس خطة ذكية كي لا يشعروا بالملل؛

أختي الصغيرة والمدمنة على أكل حبّات البندورة، وضع إلى جانبها وعاءً من البندورة لتتناول منه متى أرادت ذلك.

أخوتي الصبيان طلب منهم أن يمارسوا لعبة رمي الدحل التي يحبونها داخل الغرفة.

كما أجلس أمّي هي الأخرى في مكانها المعتاد، وطلب منها أن تضع أختي الصغيرة في حضنها، وتقوم بتفلية شعرها الأجعد كما تفعل لها دائماً؛ كما طلب مني أن أنبطح على الأرض كعادتي وأنهمك بكتابة وظائفي المدرسيّة؛ كانت تلك الساعات التي قضيناها ونحن نمثّل أدوارنا الحقيقية أمام عباس من أطول الساعات وأجملها! كنا جميعاً ننتظر انتهاء تلك اللّوحة بفارغ الصبر، ونتوق لأن نرى حقيقتنا معلّقة على أحد جدران الغرفة،

وكان عباس يرسمنا بكثير من التأني وكأنّه يخاف أن ينسى أي تفصيل مِنّا.

أحد أخوتي طلب منه أنّ يتوقف عن الرسم ريثما يذهب إلى الحمّام ويتبوّل، لكنّه ذهب ولم يعد، فخرجنا جميعنا للبحث عنه وأعدناه للغرفة رغماً عنه.

عندما أنهى تلك اللوحة تكوّمنا حوله ورحنا نضحك على أنفسنا كيف بدونا بداخلها، كنا بسطاء جداً، وعاديين أكثر من أيّ وقت مضى!

ثمّة شعور جميل لا يوصف أن تجد نفسك فجأة داخل لوحة، ومعك كلّ من تحبهم. ثمّة دهشة لا حدود لها وأنت تقف أمام نفسك وجهاً لوجه تتأمّل كلّ تفاصيلك بعمق، وكأنّك لم تقف أمام المرآة من قبل!

علّق عباس تلك اللوحة على الجدار، ونسي نفسه خارجها.

فجأة انتبهنا أنّ اللوحة ينقصها هو، وأنّه الوحيد الذي ليس بداخلها، وكأنّ عدم وجوده معنا كان يمهّد لحدث ما، ومع ذلك لم يؤثّر ذلك على فرحتنا بأنفسنا، ونحن نمارس هواياتنا بصمت على ذلك الجدار.

طيف من الماضي

"اللحظات لا تعلن عن نفسها عندما تأتي فجأة"

كان من المتوقّع أن يكون نهاري عادياً هذا اليوم بعدما كنت قد قرّرت بالأمس أن أمنح نفسي إجازة من الكتابة عن الشيخ علي كي ألبّي دعوة زوجي لتناول الغداء خارج المنزل، فما زال الخلاف بيننا قائماً حتى الآن بسبب إصراري على نشر هذه الرواية.

لا شيء أجمل من جنون إسطنبول، حين تتواضع لك وتوافق على أن تشاركك يومك العادي جداً لتضيف إليكَ بعضاً من جنونها الملفت للنظر، فتجد نفسك مجبراً على أن تُصاب بالعدوى من هذه المدينة التي لا تعرف شيئا عن الهدوء.

يصرّ زوجي أن نتناول الغداء على تخوم بحر مرمرة ويطلب لي وجبة من السمك الذي لم أحبه يوماً، لكنّ اسطنبول مدينة تفتح لك شهيّتك على تذوّق سمكها الحار حتى وإن لم تكن تحبّه.

هذه المدينة تحترف إغواءك، تدرّبك كي تحبّ كلّ شيء فيها حتى تلك الأشياء التي لم تحبها في أماكن أخرى!

انشغل زوجي بمتابعة إحدى المباريات العالمية من على هاتفه الجوّال، لا أعلم لماذا قام بدعوتي إذا كان سينشغل عني؟

رددّت على إهماله لي بالمِثل، ورحت أتصفّح أنا أيضاً حسابي على الفيسبوك وأردّ على بعض التعليقات التي تركها الأصدقاء الافتراضيون على أحد منشوراتي التي كتبتها صباح اليوم. منذ سنوات أصبحت أهتم كثيراً لوسائل التواصل الاجتماعي؛ تلك التي تفتح لك كلّ النوافذ دفعة واحدة، وتدعوك للتلصّص عليهم جميعا من دون استثناء.

لم أكن أعلم أن تلك الصورة التي مررت عليها مرور الكرام قبل قليل ستكون المحرّض الفعلي، والسبب المباشر لارتكاب المزيد من الحماقات معك أنت تحديداً، والبدء من جديد. هذا الوجه يعرفني جيداً، وأنا أيضاً أعرفه، عدت إلى الصورة بعدما تجاوزتها؛ أيُعقل أن يكون هو؟ الشبه كبيرٌ جدّاً!

انزلقت أصابعي مسرعة تبحث عن صفحته على الفيسبوك، ما إن انتبهتُ لخبر استشهاده؛ إنّه مهدي! صديق أخي عباس، إنّه هو!

أنا من أقنعته قبل خمسة وعشرين عاماً بالتخلّي عن حركة أمل والانضمام لحزب الله بناء على طلب الشيخ علي الذي قام باستخدأمّي لهذا الغرض.

أي حظ سيءٍ ذلك الذي يلاحقني، أيّة لعنة هذه! أيّة أكوام من الحزن تنتظرني!؟

رحت أنا ودموعي نقلّب في صفحته الشخصية؛ لقد مات أوّل أمس إثر تعرّضه لكمين من قبل ثوّار الغوطة في سوريا. رافقتني نوبة من الضحك وأنا أبكيه؛ أهؤلاء هم الثوّار الذين أدافع عنهم منذ سنوات، يكافئونني بقتلهم لمهدي رفيق أخي عباس!؟ أي مفارقة هذه؟

أن ينتابك الحزن على القاتل والمقتول، على الثوّار الذين يدافعون عن أرضهم، وعلى رفيق البؤس الذي جاء ليتطفّل على ثورتهم ويقضي عليها!

تلك الجروح المزمنة التي ظننت أنّها لن تستيقظ يوماً، ها هو مهدي ينفخ فيها الروح، أي ذنب اقترفته عندما قمت بإقناعه في ذلك اليوم بأن ينضّم لحزب الله!

من كان ليصدّق أن يُغتال عباس في بيروت بينما يُغتال رفيقه مهدي على أطراف مدينة دوما السورية!

كيف أبرّء نفسي من جريمة بهذا الحجم؟

على إحدى صوره الحديثة، علّقت على خبر موته وأنا أبكيه: "لماذا صدّقتهم يا مهدي، أنّهم يكذبون عليك، طرقات القدس لا تمرّ من دوما كما أوهموك، الجنوب أقصر الطرق لفلسطين، لماذا صدّقتهم؟ أقسم لك أنّهم يكذبون."

لم أكن أعلم أنّ تلك الكلمات ستستفزّ الكثيرين، ليبدأوا بردودهم التخوينية عليّ، أغلقت الفيسبوك، وما إن عدت إلى البيت حتى دخلت غرفتي لأندسّ في سريري. لأوّل مرّة منذ زمن

طويل أتمنى النوم كي أنسى، أريد أن أجتاز هذه الفاجعة وأنا مغمضة العينين؛ لم أنم، الحزن هو من أبقاني مفتوحة العينين، فمهدي لم يكن من هواة الحرب يوماً، عكسك أنت!

عدت لأتأمّل صورته مرّة أخرى، علّ ما رأيته وقرأته كان ضرباً من الخيال، لتقطع علي تركيزي رسالة في بريدي الخاص تستفسر وتصدر لي أمراً يشبه أوامرك التي كنت تصدرها لي:

- هل أنتِ ليلى؟ ملامحكِ التي في الصورة تشبهها إلى حد ما، هل أنتِ هي؟

احذفي تعليقكِ الذي كتبته على صورة الشهيد مهدي!

ما إن قرأت رسالتك حتى هرعت لفتح حسابك، كان قلبي يجري أمامي! شيء ما أنبأني أنك أنت الشيخ علي، كيف لم أبحث عنك يوماً على مواقع التواصل الاجتماعي!؟

كيف نسيت أنّك عصريٌّ جداً، وأنّك من القلائل الذين يجيدون الرباط على أكثر من جبهة! ها هي صورتك الشخصية تحدّق بي بعد كلّ هذا الغياب، تشدّني وبكل قوّة إلى هناك، إلى ليلة النصف من عاشوراء!

أي جنون هذا الذي يحدث لي؟

أي معجزة هذه التي اخترقت كلّ تلك الأيّام والسنين، وجاءت لتحمل لي رسالة منك؟

الصُّدَفُ معجزات البسطاء أمثالنا، يفاجئنا الله بها كجوائز ترضية لأنّه لم يخلقنا على هيئة رسل أو أنبياء!

ضغطتُ زرَّ التكبير، فتحتُ وجهَك على مصراعيه، رحتُ أتجوّل بين أدق تفاصيله: عمامتك ما زالت ناصعة البياض، شفتاك المنتفختان والمدمنتان على تناول البن والسجائر بدتا كحبتي بن برازيلي وسط كلّ ذلك الشيب الذي طفا على لحيتك وشاربيك، عيناك تحدّقان بي، من دون أن تتجرّأ إحداهما على أن تغمزني كما فعلت منذ أكثر من خمسة وعشرين عاماً، تنظران لي وكأنّهما تغويانني لكي أحبك من جديد.

فجأة نسيت حزني على مهدي، يبدو أن تأثيرك عليّ ما زال يتفوّق على كلّ شيء! ثلاث ساعات قضيتها وأنا أقلّب في صفحتك، قرأت منشوراتك كلّها لم أستثن ولا واحداً منها، قرأت تعليقات المعجبين وردودك عليها، قلَبت في صورك الواحدة والعشرين، صورك لا تشبه بعضها! أنت المختلف في كلّ شيء، المتطرّف لأشيائك وقناعاتك وتاريخك المثير للجدل، صورتك تلك وأنت ترتدي البدلة العسكرية المموّهة أكثر ما استفزني من بين صورك الواحدة والعشرين، لم ترتدِ يوماً بدلةً عسكرية مموّهة في حربنا مع الاحتلال الإسرائيلي، ما الذي جعلك ترتديها في الحرب السورية؟

في أعلى تلك الصورة كتبت العبارة التالية: "بانياس خالية من المندسين التكفيريين" أما أسفل الصورة، فقد انهالت عليك الدعوات من كلّ حدب وصوب، الكل يدعو لك بالنصر الحسيني المؤزّر.

أحدهم استفسر في تعليقه على تلك الصورة: "سماحة الشيخ، من قام بتصويرك؟" رددت عليه سماحتك: "أحد جنود الجيش السوري"

فردّ عليك ساخراً: "ههههه، هذا يعني أنّكم أنتم من تُديرون المعارك في الحرب السورية، بينما جنود النظام تقتصر مهمتهم على تصويركم!" ضحكت لتعليقه، وضحك معك الكثيرون، وكأنّكم تثنون على ما كتبه.

ما زلت تجيد لعبة الحروب، ما زلت فارسي الهوى كما أحببتك قبل أن أكفّ عن أحبّك. استفزّتني أيضاً تلك العبارة التي تضعها كنبذة في أعلى الصفحة: "أنا لم أمت بعد".

للحظات شعرت بأنّك كتبتها لي أنا، لكن ما إن تصفّحت حسابك حتى خابت ظنوني، مازلت شرساً كعادتك، تحرّض الجميع على الموت بحجّة الدفاع عن القدس والمقدّسات الشيعية.

- لماذا قرأتِ رسالتي ولم تجيبي عليها؟ هل أنتِ ليلى؟ إذا كنتِ هي أرجوكِ أجيبي؟ اسمكِ نفس اسمها، هل أنتِ هي؟

أسئلة متسارعة راحت تتدفّق على بريدي الخاص مصدرها أنت! أنت نفسك من يشغل تفكيري منذ أشهر، وأنا أكتب عنه وعني هذه الرواية، وأتعرّض لكل أشكال الضغط من زوجي، ومع ذلك لا أبالي! استجمعت كلّ ما بي من ضعف وقوّة وعجز وتشتت لأردّ على رسالتك:

- نعم، أنا هي!

كملهوف يطلُّ عليّ سؤالك الثاني:

- أين تقيمين الآن؟

- كم طفلاً أنجبتِ؟

- هذا ليس شأنك

- أصبحتِ سليطة اللسان!

- لماذا اخترتَ مهدياً تحديداً؟

- الله هو من اختاره، ثم لماذا تهتمين للموضوع إلى هذا الحد؟ توقعت منكِ سؤالاً أخر، أن تسأليني عن حالي مثلا؟

- لا أحب الأسئلة النمطية، مهدي والثورة السورية أهم الآن

- ههههه، تسمينها ثورة! هل أنتِ ليلى أم أحدٌ غيرها؟

- عذراً، استيقظ ابني الصغير، عليّ الاهتمام به.

- ما اسمه؟

- ليس علياً، لم أسمّي أحداً من أولادي بهذا الاسم.

- هل تعمّدت ذلك؟

- ربما!

- هذا يعني أنّك تخافين هذا الاسم.

- لا، لكنَّني عندما نسيتك نسيت الاسم، هذا كلّ ما في الأمر.

- تكابرين، وهذه ليست عادتك.

- لقد تغيّرت عاداتي.

أغلقتُ بابَ الحوار بيني وبينه، وكأنّي أغلق عليّ باباً من أبواب جهنم.

تركنا الأسئلة معلّقة على حالها، كملابس الجنود على حبائل الغسيل تنتظر بدء معركة جديدة.

هناك أسئلة تترفّع عن الإجابة عليها من المرّة الأولى كي تترك الطريق مفتوحاً للعودة إليها فيما بعد، وثمّة أسئلة تحتاج منّا لنَفَسٍ عميق لأنّها تطرح أكثر من استفسار في اللحظة نفسها. أما الأسئلة الأكثر جدلاً وتعقيداً، فتلك التي تخلو من علامات التعجّب والاستفهام، تلك التي تفاجئك بحضورها من دون أي موعد مسبق، ومن دون أي التزام بآداب التوقيت المناسب.

أقفلت هاتفي كمحاولة مني للتخلّص من الانشغال بالتفكير بك، منذ أشهر وأنا أكتب عنك هذه الرواية ولم أنشغل بك إلا بعد تلك الرسالة!

سألني زوجي وأنا أتقلّب إلى جانبه على السرير:

- ما بكِ؟ لماذا كلّ هذا الأرق؟

أفكر بك، لكنّني تحجّجتُ له بأنّ رأسي يؤلمني بسبب التدخين، تلك العادة السيئة التي ورثتها عنك ذات يوم، وحتى الآن لم أستطع الإقلاع عنها.

"أحب أن تتصرّفي أمامّي كالعاهرات" ما إن قلتها لي حتى بدأت بتناول السجائر، لم أكن أجيد التصرّف مثلهن، لكنّني فعلت ما بوسعي لإرضائك. تعددتْ مواهبي، وأنا أحبّك لذا احترفت معك أشياء ما خطرت لي يوماً.

تناوبَتْ على رأسي وقلبي أنت ومهدي طوال تلك الليلة، كنت أبكيه تارة، وأبتسم لك أنت تارة أخرى، فتختلط عليّ الأوجاع كلّها وسط هذه العتمة، وتفتح الذلكرة الجرح أكثر فأكثر.

"نحن لا ننسى عندما نريد، ولكننا ننسى عندما تشتهي الذلكرة"؛ زادت كلمات واسيني الأعرج من أرقي وحُرقة قلبي!

في الظُلمة يتضاعف حجم الأشياء التي نريد نسيانها، تصبح أكثر عرضة للتمدّد فنمتلئ بها مرغمين، ما إن يطفئ الله الضوء علينا، ونصير وحدنا يصبح الألم أثقلَ من أي وقتٍ مضى، تستعيد الذلكرة نشاطها الدكتاتوري لتبدأ بفرض عقوبة الانشغالات الشاقة بماضٍ هربنا منه عن سبق الإصرار، فأصرّ أن يقفز من الذلكرة والورق ليلاحقنا هنا على أرض الواقع.

تلك الانتصارات الوهمية التي ادّعينا إحرازها منذ زمن بعيد، ها هي تحشد كلّ إمكانياتها لتردَّ لنا الصاع صاعين، وتعيدنا إلى نقطة الصفر، كم استعجلنا حينذلك عندما أحسنّا الظنَّ بقلوبنا، وصدّقنا أنها نسيتْ أمرَ أولئك الذين أحببناهم ذات يوم!

استيقظتُ مع أنّي لم أنم، كانت ليلة من أكثر الليالي لؤماً عليّ، تجاهلتُ هاتفي خوفاً من رسالة أخرى منك تزيد من هذا التشتّت الذي كنت قد نسيته منذ زمن طويل، وقرّرتُ إجراء بعض التعديلات في عاداتي اليومية المتكرّرة والمملّة، ممّا سيساعدني على نسيانك، فمثلاً:

ومن باب التمرّد على الروتين، كان من المفترض أن يحضر بائع الحليب ويطرق باب شقتي في الساعة الثامنة صباحاً كما جرت العادة حاملاً الحليب الطازج لطفلي النحيل الذي انجبته في عمر متأخر، يومها قررت أن أذهب أنا إليه باكراً قبل أن يأتي هو إليّ.

انفجرت ضحكاً عندما وصلت محلّه، وسمعت أحد الزبائن يناديه بالحج علي

سألته ضاحكة:

- هل اسمك علي؟

فأجابني بشيء من الامتعاض:

- تشترين الحليب مني منذ أكثر من سنة، ولا تعرفين اسمي؟

تُضحكنا الصُدف الغريبة، تزيدنا حماقة فوق حماقتنا، تفاجئنا بأشياء لا نتوقعها! وفي طريق عودتي إلى المنزل، التقيت بجارتي المزعجة التي تزورني بين الحين والآخر لتخبرني عن آخر صرعات الموضة للملابس الداخلية النسائية، وحين استوقفتني، ودَعتني لتناول فنجان من القهوة في منزلها، قبلتُ عرضَها، مع أن طريقة تفكيرها ساذجة وسطحية، ولا تتطابق مع عقليتي!

يبدو أني سأقبل أي عرض يُقدّم لي هذا اليوم مهما كان سخيفاً، فقط كي أبتعد عن التفكير بك قدر المستطاع.

أعلم أنّه ليس بالأمر السهل أن أحبّك كلّ ذلك الحب، ثم أضطرّ لنسيانك بطريقة أو بأخرى، ثم تأتي أنت بعد كلّ تلك السنوات، لتسألني وبكل وقاحة: كيف حالي، وكأنّ شيئا لم يكن! أعلم كلّ هذا، لكنَّني أحاول...

راحت جارتي المزعجة تعرض أمامّي بعض الملابس الداخلية المثيرة التي اشترتها حديثاً، بينما كنت أتناول القهوة وأضحك، وكأنّي لم أقرأ خبر استشهاد مهدي يوم أمس، كأني لم أصعق برسالتك التي قلبت موازين قلبي وعقلي. يأتي الضحك أحيانا كتعويض عن شعور آخر مغايرٍ تماماً، كالبكاء مثلاً!

ضحكتُ حين أخبَرتني جارتي عن "السوتيان والكيلوت" اللذين يضيئان من تلقاء نفسهما ما إن ترتديهما، وأنّ غرفة النوم عندها تتحوّل إلى ما يشبه صالة للديسكو بعد منتصف الليل، حين ارتدتْهما أمامّي انفجرتُ بالضحك مجدداً، سألتها:

- لماذا زوجك مولع بمشاهدة الأفلام الإباحيّة كما تقولين، ما دمتِ تلبسين له كلّ هذه الملابس المثيرة؟

- ألبسها له كي يكّف عن تلك العادة السيئة، ومع هذا لا يتوقّف عن فعل ذلك، حتى إنّي وفي كثير من الأوقات أنام إلى جانبه عارية تماماً، وعندما أستيقظ ليلاً، أتفاجأ به وهو يقلّب في هاتفه المحمول صور نساء عاريات، فأقوم وأدير له مؤخرتي وأنا أصرخ به:

أيّها الأحمق، انظر إلى مؤخرتي، بماذا تختلف عن مؤخراتهن؟

لأوّل مرّة كنت أشفق على سذاجتها وهي تحدّثني عن زوجها بطريقة ساخرة.

سألتني:

لو كنتِ مكاني، ماذا ستفعلين لو رأيتِ زوجكِ يشاهد فيلماً إباحياً بينما أنتِ تنامين إلى جانبه عارية؟

لم أنم يوماً إلى جانبه عارية، ربّما لهذا السبب لم يُدمن زوجي مشاهدة الأفلام الإباحيّة.

فجأة خطرتَ أنت ببالي، تذكّرت حين كنت تطلب مني خلع ملابسي كلّها دفعة واحدة، وكذلك تفعل أنت، ونقضي الوقت كلّه عاريَيْن.

كانت لديك عقدة التعرّي، وكأنّ لقاءك بي كان بمثابة استراحة لك من كلّ الأعباء التي فُرضت عليك كرجل دين، وكأني كنت أنا الركن الآمن الذي تخلع فيه كلّ شيء، وليس ملابسك فحسب، مؤسف أن كلّ الأشياء تذكّرني بك، وكأنّها تواطأت معك عليّ.

أذهب لبائع الحليب فأكتشف، ولأوّل مرة، أنّ أبا أحمد اسمه علي!

أقبل دعوة جارتي التي لم أحب سذاجتها يوماً فتحدّثني عن العُري الذي كنتَ مولعاً به!

كل محاولاتي للهرب منك باءت بالفشل، وأعادتني إليك من دون أن أتعمّد أنا ذلك؛ هل حقاً أريد نسيانَك؟ أم أني أتحجّج بذلك كي أبدو امرأة مثاليّة أمام القرّاء؟ كيف أتحرّر من تلك العقدة التي تلازمني، وأتخلص من شعوري بالنقص أمام حضورك؟ كيف أخترع لقلبي أسباباً شبه منطقية لأواجهه بها، وألزمه بنسيانك، وكأنّه لم يتحدّث معك بعد أكثر من خمسة وعشرين عاماً، وأكثر من ثلاثمئة وستين يوماً من العشق المتواصل؟ كيف أقنعه بأنّ مجرّد التفكير بك هو فضيحة أخلاقية! ها أنا أبتسم لك، وبكل وقاحة ما إن أتذكّر كلماتك، وأنت تجيبني على سؤالي السخيف يومذاك:

- هل ستنساني يوماً؟

- نعم، سأنساكِ عندما تتحرّر فلسطين.

أضحكني جوابك يومها، استغربت هذا الربط بين حبّنا وتحرير فلسطين، لكنّه منحني جرعة كبيرة من الاطمئنان، فلقد كان لديّ شعور داخلي مبهم، بأنّ فلسطين لن تتحرّر يوماً!

كم من الأشياء راهنّا على بقائها حتى تحرير فلسطين، وكم من الأرواح أهدرنا بحجة استرجاعها! لا بد وأنّ أحدهم أقنع مهديّاً بأنّ القدس لن تتحرّر إن لم يذهب للقتال في سورية، ويفتح لها الممّرات من هناك، وربّما تكون أنت من قمت بإقناعه بذلك. مازلت أذكر براءته هو وعباس، أذكرهما ملاكين وسط كلّ ذلك الخراب المتراكم الذي خلّفته الحرب والأحزاب.

أذكرهما وهما يمارسان هواية الهروب من المدرسة، ليذهبا ويجمعا فوارغ الرصاص والقذائف والصواريخ التي تجرّبها علينا إسرائيل!

أذكر حبّهما هما الاثنان لنبيه بري رئيس حركة أمل ودفاعهما المتواصل عنه، وكأنّه أبوهما الروحي، وكيف عندما قام عباس برسم صورة له عند مدخل بيتنا في الجنوب، نصحه مهدي بأن يقوم بتغيير بوّابة الحديد المتهالكة من كثرة الصدأ

قال له إنّ شكلها أصبح مزعجاً للنظر بعدما رسم فوقها تلك الصورة "للإستيذ" كما كنّا نلقّبه، فشارطه عباس يومها قائلاً:

- اركل الكرة بكل قوّتك على البوّابة، فإذا وقعت فسأقوم بتغييرها، وإن بقيت على حالها فستعزمني على أكلة لحم بعجين.

ركل مهدي الكرة، لكنّ البوّابة كانت عصيّة على السقوط عكسنا نحن، نحن الذين كان سقوطنا أسهل من أي شيء آخر حين كنّا نصدّق كلّ ما يُقال لنا، ونفعل كلّ ما نُؤمر به من دون أي اعتراض يُذكر! كنّا أشبه بالببغاوات، نردّد ما يمليه علينا أصحاب العمائم السوداء والبيضاء من مشجعي الأحزاب في ذلك الوقت المتخم بضعفنا وعجزنا، أقنعني الشيخ علي بتعلُّم مهنة مستحدثة في الجنوب، كانت من ضمن المهن التي صدّرتها لنا إيران في تلك الأيام كالمتعة وغيرها، وهي مهنة (التفاؤل بالقرآن).

طلب مني أن أخضع لدورة لتفسير القرآن كي أتمكّن من ممارسة تلك المهنة. هي مهنة أقرب للتنجيم، لكنّهم تفادياً للإحراج أمام النخبة المثقّفة في الطائفة أطلقوا عليها هذه التسمية: "التفاؤل بالقرآن".

تعتمد هذه المهنة على إتقان تفسير الآيات القرآنية بشكل صحيح، وكل من يتعرّض لمشكلة ما، أو يُقرر الإقبال على مشروع ما كالزواج وغيره، ما عليه سوى أن يطرق بابي، ويخبرني أنّه يريد أن يستخير بالقرآن، فأفتح المصحف عشوائياً، وأفسّر له الآيات في الصفحة التي بين يدي، فإذا توافق تفسيرها مع ما يريده أقدَمَ على ما جاء من أجله، وإذا تعارض يُعرض عن ذلك الأمر الذي يشغله، ثمّ يناولني مبلغاً صغيراً من المال، ويغادر بسلام.

أشهر قليلة كانت كافية كي أتقن تفسير أغلب الآيات، في البداية لم أكن أعير الأمر أيّ اهتمام يُذكر، لكن عندما بدأتْ الناس تتهافت عليّ بهذا الكم الملفت، بدأت أشعر بأنّ ما أقوم به هو أمر بغاية الجديّة والخطورة في آنٍ واحد، لم أكن أعلم الهدف من الإصرار عليَّ كي أتعلم هذه المهنة، قيل لي إنّها ستدّر عليّ الكثير من المال، وإنّها منتشرة جداً في إيران والعراق، وقلّة من يمارسونها في لبنان، كان ذلك مقنعاً ومربحا بالنسبة لي، وكان أهل القرية يترددون عليّ للاستخارة على أتفه الأسباب، حتى صرت أعرف الكثير من أسرارهم!

كثيرة هي المواقف التي وقفتُ أمامها عاجزة حتى عن التفسير، عاجزة عن تحمّل هذا العبء الكبير على فتاة في مثل عمري. مرّة جاءت امرأة لتسألني إن كان هناك أمل في إجراء عملية لابنها في رأسه، بعد أن أخبرها الأطباء بأنّ نسبة نجاح العملية خمسون بالمئة. تلك المرأة الملهوفة تركتهم جميعاً، وجاءت إليّ أنا لتطلب مني أن أفتح القرآن لتقرّر ما إذا كانت ستجري له تلك العملية أم لا!

جلستُ أمامها وقد تجمّد بي كلّ شيء وأنا أنظر لابنها الذي في حضنها، تلعثمت الكلمات، وأضربت عن الخروج من حلقي، وحين فتحتُ المصحف دعوت الله أن يكون هناك آية للشفاء في قلب الصفحة، كي أنقل تفسيرها لقلب تلك المرأة. رحت أقرأ بصمت، ومن دون وعي ولا تركيز، سألتني:

- هل ثمّة ما يُقلق؟ لماذا كلّ هذا الصمت؟

- لا، لا شيء، لا أعرف!

أنا صغيرة على هذه الأشياء يا الله، صغيرة جدّاً، كيف أوقعتني يا شيخ علي بهذا الفخ؟ كيف لمن في مثل عمري أن تقرّر مصير حياة طفل يصغرها بعشرة أعوام فقط؟! وأنا أمارس تلك المهنة، اكتشفتُ أنّ فقرنا الذي نعاني منه كعائلة يكاد يكون أصغر المصائب في القرية، وأنّ ثمّة حرمان لا يمكن تعويضه بالمال الذي كان هو مشكلتنا الوحيدة والأساسية في ذلك الوقت.

كنت أفرح كثيراً لقصص الحب التي كان أصحابها يترددون عليّ للاطمئنان على قلوبهم، اكتشفت أن قصص الحب كثيرة في القرية، وأنّ كثيرين ممّن كنت أظنهم بعيدين عن الحب، كانوا أقرب الناس إليه، اكتشفت أيضاً أنّ الحب هو أحد الأسرار التي نستحي بها أمام الجميع. كانت قصة فاطمة وبحر من أجمل القصص التي عشت تفاصيلها في تلك المرحلة، كان هو مسيحيّاً وهي شيعية، هي تزورني في النهار، وهو يزورني في الليل كي لا يراه أحد، هو يسألني:

هل سأتزوج بها؟ أم أنّها ستكون لرجل آخر غيري؟

بينما تسألني هي:

هل سيكون لي، أم أنّه سيكون لامرأة أخرى؟

هو: هل هناك طريقة ما كي نتزوج أنا وهي؟

هي: كيف سأقنع أهلي بأنّه يحبني أكثر من كلّ الشيعة في هذا العالم!

هو: أنا أحب الإسلام والمسلمين، أقسم لكِ، والدليل أني جئت إليكِ لأسألك عنّا نحن الاثنين.

هي: أنا لا أعرف شيئاً عن المسيحيين، هذا لا يهمني، أنا أحبّه هو، وهو مسيحي، لذا أنا أحبّهم جميعا من أجله هو.

أنا: اذهبا وتزوجا.

هي: ستندلع حرب أخرى في الجنوب، وربّما نكون نحن السبب المباشر في اندلاعها.

هو: نحن متعبان جداً من هذا الحب المعقّد، هلاّ تفضلتِ بمساعدتنا؟

وكأنّهما يطلبان مني شيئاً سهلاً! وكأنّها ليست بأشياء معقّدة، معقّدة جداً، وهي أكبر من أن تساعد طفلة بعمري على حلّها.

زج بي الشيخ علي في قضية أكبر مني بكثير، لم أكن أتوقّع أن تكون لها كلّ هذه الأبعاد الإنسانية والعاطفية والسياسية والعسكرية.

كثيرة هي القصص التي استهلكت مني راحة بالي، وأنا أمارس تلك المهنة الثقيلة عليّ.

هي قصص عادية جدّاً تسمع عنها كلّ يوم تقريباً، لكن ما إن تعايشها عن قرب، وتصبح أنت بيت سرّها الآمن، حتى تتراجع عن خطأك، وتكتشف كم هي معقّدة تلك التي كنت تظنها قصصاً عادية.

رجل أحدب من قرية مجاورة جاء ذات يوم ليطلب مني أن أفتح له القرآن، يريد أن يطمئن إن كان هناك ثمّة أمل في أن تحبه امرأة بعد أن تجاوز الستين من عمره، يقول إنّ تلك الحدبة التي في ظهره لا تؤثّر نهائيّاً على رجولته.

تذكرتُ صديقة أمّي عفاف التي لا أمنية لها في هذه الحياة سوى أن تتزوج وعندما فتحت القرآن لذلك الرجل الأحدب، لم أقرأ منه ولا آية واحدة، فتحته لأنّه لن يصدقني إن قلت له إنّ هناك امرأة يمكن أن تحبّك حتى من دون أن أفتح لك القرآن:

- نعم، هناك امرأة ستحبّك

أجابني، وكأنّه لا يصدق ما أقول:

- حقّاً، متى؟ هل ظهر لكِ الوقت؟ أقصد هل هذا سيحدث قريبا أم ماذا؟

قلوب تُفتح لي على مصراعيها ما إن أفتح لها القرآن، تُخرج لي كلّ ما فيها، وتطلب مني أن أفعل شيئاً!

أرسلت أخي الصغير إلى بيت عفاف، ليطلب منها الحضور على وجه السرعة، بعد أن همست في أذنه:

- قل لها إنّ رجلاً يبحث عن عروس له.

عندما حضرت عفاف كنت أسمع صوت ضربات قلبها تملأ الغرفة، لا أعلم كيف يخفق قلب امرأة لرجل لا تعرفه؟

قلت لها ما إن جلست:

- هذا الرجل يبحث عن زوجة له، فإذا كان لديكِ الرغبة في الزواج ها هو أمامك تفاهمي معه؛ كانت تلك المرة الأولى التي نجحت فيها في حل مشكلة من دون أن استعين بفتح القرآن!

آخر من كنت أتوقعها أن تطرق بابي هي والدة عماد، تلك المرأة المغرورة والتي لم أطقها يوماً.

عندما حضرت توقّعت أن يكون عماد هو سبب مجيئها، ذلك الشاب الذي أحبني بجنون ليزداد جنوناً فوق جنونه، وأنّها جاءت لتسألني إن كان هناك أمل في أن يعود لعقله كما في السابق، لكنَّها فاجأتني بأمر لم أكن أتوقّعه؛ قالت إنّها تشكّ في

أنّ زوجها على علاقة بفتاة في مقتبل العمر، وإنّها جاءت لتستفسر مني، عن مدى صحة شكوكها.

- توقعت أنك ستسألين عن عماد!

- عماد يئسنا من وضعه، لقد حاولنا كثيراً معالجته في أهم مشافي لبنان وعند أمهر الأطباء، وجميعهم أجمعوا على أنّ الأمر يحتاج لمعجزة كي يشفى.

"مسكين عماد، لا أمل في شفائه، ولا أمل في أن أبادله ذلك الحب الذي يفرضه عليّ، كما لا أمل لي أنا بالنجاة من كلّ هذه الأشياء الكبيرة التي تكدّست فوق رأسي، لتسرّع في نموي، وتجعلني أكبر على عجل؛ "هذا ما كان يدور في رأسي بينما أفتح القرآن لأم عماد التي كانت تراقبني بشغف!"

حكايات بعض الناس تحتاج لمعجزات إلهيّة كي تجيب عليها! كنت كالعاجز الذي يحدِّث الناسَ عن الطيران طوال الوقت، كلّ ما بحوزتي لا يكفي لأن أجيب على أسئلتهم المستعصية.

في بداية الأمر، صدّقتك عندما قلت لي إنّك طلبت مني تعلّم تلك المهنة من أجل الحصول على المال، لكن مع مرور الوقت بدأتُ أكتشف أنّك لم تطلب مني يوماً القيام بأي عمل من دون أن تعود المنفعة عليك أولاً؛

طلبت مني القيام بإقناع أيِّ شاب في حركة أمل يطرق بابي بالتخلّي عن الحركة، والانضمام لحزب الله، وهذا ما فعلته!

فكلّما طرق بابي شابٌّ من حركة أمل ليسألني عن حبيبته، أقنعته بالتخلي عن حركة أمل، والانضمام لحزب الله.

كانت تلك واحدة من الطرق المثالية لاستمالة بعض شباب الحركة للتفرغ في صفوف الحزب بعيداً عن الفتنة، ومن بين الذين قمت بإقناعهم: مهدي صديق أخي عباس، ذلك الشاب الخلوق المولع بكرة القدم والذي شاهدت صورته بالأمس!

حاول عباس إقناع مهدي بالبقاء في صفوف حركة أمل، قال له إن الحزب يحمل فكراً متطرّفاً إلى حد ما، لكنّ مهديّاً أصرّ على تغيير نهجه بناء على نصيحتي، كان عباس عنيداً في ولائه لحركة أمل، فعلى الرغم من كلّ العروض المغرية التي قدّمت له ليتخلّى عنها، إلّا أنّه بقي وفيّاً لبندقيتها العربية.

من المؤسف أني لم أجرؤ يوماً على فتح القرآن لأتنبّأ بقصتي معك، أو لكي أجري استخارة قبل أية خطوة أخطوها إليك، أو لأتنبّأ كيف ستكون نهاية هذا الحب، لا أريد لهذا الحب أن ينتهي أصلاً، ربّما لهذا لم أفتح القرآن لي ولك.

كان حبي لك مبالغاً فيه، حبّاً أحكمَ قبضتَه على قلبي من دون أن أعدّ له العدّة، من دون أن آخذ الحيطة والحذر منه، حبّاً أكثر من المتوقع، وأعظم من كونه حدثاً عاطفياً عابراً!

التوقعات الكبيرة والعظيمة ليست سوى كذبة مدفوعة التكاليف مسبقاً للإيقاع بأناس عاديين مثلنا، اعتادوا الاحتفاء بالأكاذيب الجميلة.

أمعاء أخوتي الخاوية التي كانت تتغذى على بقايا خمس الشيخ علي وزكاته فرضت عليَّ واقعاً متناقضاً، أصبح ذلك الحب حاجة ضرورية وملحّة بالنسبة لي، لم أعد صاحبة ذلك الوجه الملائكي كما كانت تقول لي جدتي.

قبل أن أتعرّف عليك، ومنذ قالت لي جدتي: "إن هناك ملاكين على كتفيك يقومان بتدوين كلّ ما تفعلينه"، وأنا أعدّ للعشرين قبل أن أقوم بأيّة حماقة. جاء حبُّك ليحدّثني عن ملائكة لم تحدّثني عنهم جدتي يوماً!

ملائكة ليس لهم مهمّة سوى أن يبنوا لي القصور في الجنّة كلّما تمتعتَ أنت بجسدي! أليس من المضحك أن تعدني بألف نخلة في الجنّة بينما أنا وأخوتي الصغار كنا نشتهي تذوّق حبة رطب واحدة فوق هذه الأرض قبل مجيئك!؟

ألا يدعو للسخرية أن تطوّب لي كلّ تلك القصور في الجنة، بينما أتزاحم أنا وأمّي وأخوتي داخل هذه الغرفة المزدحمة بكل أشيائنا، برائحة عرقنا وأنفاسنا، بخبزنا وبقايا طبخنا الذي كانت أمّي تصرّ على وضعه في الغرفة خوفاً من أن تأكل منه قطة جائعة مثلنا في الخارج!

أليس معيباً أن تتسابق أنت وأمثالك للمسح على رؤوس أخوتي الأيتام طمعاً بملايين الحسنات، بينما كانت أكبر أمنية لأختي الصغرى أن تشتري حذاءً جديداً غير ذلك الذي أتلفه الفقر!

كنت أحلم بحب بسيط يشبهني، بعيداً عن إيقاعات الحرب والسلاح، بعيداً عن زحمة التنجيم والادّعاءات الحسينية والأقنعة الدينية.

حبّك جاء من خارج ذلك الحلم! جاء ليشاركني وقائع المعارك اليومية، وليصنعني على عجلة مني. كنت أجبن من أن أقف في وجهك موقفاً بطوليّاً، موقفاً يضمن لي الحفاظ على توازني أمام جاذبية حبك، أمام مبادئي الحسينية على الأقل!

منذ أحببتك وعاشوراء لم تعد تمثّل لي مناسبة للحزن كما ورثتها عن أجدادي الجنوبيين، أصبحت عاشوراء ذكرى لأوّل حالة تمرّد مارستُه في حياتي، أصبحت هي التوقيت الفعلي لبدء أوّل انقلاب عاطفي نسف كلّ المبادئ الحسينية التي رافقتني منذ خروجي من بطن أمي.

"لا تكبري، أريدكِ أن تبقي صغيرة كي ألعب بك اقصد ألعب معك"، جملة لطالما كرّرتَها على مسامعي!

لم أكبر، مازلت طفلة صغيرة، لكن ثمّة أشياء كبيرة، كبيرة جدّاً، حشرت أنفها بداخلي على الرغم مني، تسرّبت إلى جوفي لتلّوث نقائي، كنت أنت من فتح الباب لكل تلك الأشياء. عمامتك البيضاء كانت أشبه برسالة سماوية، أفتت لي بارتكاب الكثير من المعاصي الجميلة، وأغدقت عليّ الكثير من الحسنات المشبوهة.

ما أجمل تلك المعاصي التي ارتكبتها معك بعد أن أنرت لي كلّ أضوائك الخضراء دفعة واحدة! أنت البارع في إجراء العمليات التجميلية لكل أشكال الرذيلة، بمشرطك الديني ومخدّرك المستورد من بلاد الزعفران والسجّاد العجمي.

وما أقبح أن تزجّ بكل ذلك الحب الذي أحببتك إياه في بازارات الشهوة والدين، وتستثمره في حروبك التنكرية!

جاء حبّك على شكل صفقات رابحة أبرمتها مع جسدي الطري، بينما جاء حب عماد لي طاهراً كجبين أمي، مثيراً للشفقة كعينها التي فقأتْها الحرب، عيبُ عمادٍ أنّه كان مُختلًّا عقليّاً، ولم يكن بحوزته سوى ابتسامته ليحبّني بها.

وعيبك أنّك كنت مُختلاً دينياً، حتى أفقدتَ الدينَ هيبتَه، أمّا عيبي فكان أنّي لم أكن أملك سوى قلبٍ لا يتسّعُ إلا لمُختَلٍّ واحدٍ!

أورثتْني أمّي جهازَ مناعة لا يقوى على الدفاع عن نفسه، بينما أورثتَني أنتَ جهازاً تناسليّاً مربحاً جداً، جعلني من أصحاب القصور والعقارات الوهمية!

عندما أخبرتَني أنّه مقابل كلّ ساعة متعة أقضيها معك، سيُبنى لي قصرٌ جديدٌ في الجنّة، قلت لك بسذاجة:

"وماذا سأفعل بكل تلك القصور أنا وحدي؟ أريدهم أن يبنوا لأخوتي وأمّي قصوراً بدلاً عني"

أريدهم مثلاً أن يبنوا لأمّي وصديقاتها قصراً عاديّاً، فهن لا يهتممنَ للمباني الفخّمة، حتى إنّهن يخفنَ منها، وأن يزرعوا حول ذلك القصر العشراتِ من شجر النخيل، فأمّي وصديقاتها يحببن الرُطَبَ كثيراً، ولا يتذوقنه إلّا في شهر رمضان، فالرطب غالٍ جداً في الجنوب، حبّذا لو كان هناك نهران إلى جانبي القصر، واحد للبن، وأخر للبرتقال، فأمّي تحبّ شرب هذين الصنفين كثيراً، وهما مفيدان لصحّتها؛ كما سمعت الطبيب يقول.

أريد لكل واحد من أخوتي الصغار قصراً يشبهه، بسيطاً مثله، وبعيداً عن الترف، تحيط به مزرعة كستناء، فإخوتي يحبونها كثيراً، ومصنعاً للشوكولا كتلك التي يوزعها عليهم عماد في كلّ مرّة، ويمضغونها لأطوّل وقت ممكن كي يظل طعمها عالقاً على ألسنتهم، أريد معملاً للأحذية الأصليّة، وكثيراً من المراجيح.

ومرسماً كبيراً يزاول فيه عباس هواية الرسم، أريده كبيراً جداً، كي تزاول العصافير هي الأخرى مهنة الطيران بداخله، وهو يرسمها على الجدران، أريد حظراً للطيران فوق الجنوب، هل هذا ممكن؟ أريد أيضاً تحرير فلسطين إن أمكن.

أخبر الملائكة الذين حدّثتني عنهم أن يقوموا بإنشاء فرن آليٍّ لفقراء القرية يكون فيه الخبز خالياً من السوس!"

- أتمنى أيضاً أن تستبدل الملائكة بأمنية صغيرة قصراً من قصوري، وهي أن يعود عماد إلى عقله.

- إذا عاد لعقله فلن يحبك.

هكذا اجبتني يومها.

- ربّما أنا من سأحبه حينها.

لا أعلم لماذا كنت أهتم لأمر عماد، وأحشره داخل أمنياتي المستعصية ما دمت لا أحبّه؟

"ما الذي يجبرني على زج نفسي بعلاقة معقّدة كهذه، لا تمّت للمنطق بصلة مادام الشيخ عليٌّ يملك قلبي وما حوله؟" حين فاجأتني والدة عماد بزيارة لمنزلنا لتطرح عليّ ذلك السؤال المضحك

- ماذا فعلتِ لابني؟

شعرت بمدى تورّط عماد بحبي وتعلّقه بي، أجبتها وأنا أحاول الاستخفاف بسؤالها ذلك:

- لم أفهم قصدكِ سيدتي، أنا لم أتحدّث مع ابنك يوماً، حتى إني لا أعرف نبرة صوته.

- ابني تغيّر كثيراً بسببكِ، سنتين ونحن نقوم بعلاجه لتأتي أنتِ وتزيدي حالته سوءاً!

- أرجوكِ، لا ذنب لي بما يشعره ابنكِ نحوي.

- أمس عماد طلب مني أن أطلب يدكِ للزواج.

- لم أفهم!

- نعم، أمس كنت أقود السيارة، وكان عماد جالساً إلى جانبي، وعندما لمحكِ مع أخوكِ في الشارع، أشار بيده إليكِ، ثم

أشار لخاتم الزواج الذي بيدي، فهمت أنّه يوّد الزواج بكِ، لم أصدّق نفسي؛ كيف لابني أن يُغرم بكِ وهو في هذه الحالة؟ منذ الصباح وأنا أحاول إقناعه بالذهاب معي إلى بيروت، ولكنّه لم يقتنع، عليكِ أنتِ إقناعه بذلك.

استشفيّت من حديث أم عماد أنّ ما يسبّب لها كلّ هذا القلق، ليس نيّة عماد الزواج، بل انشغاله بي وحبّه لي أنا تحديداً، فهي مصابة بعقدة الفقر والفقراء بعد زواجها من أحد أثرياء القرية.

ما إن أنهت زيارتها لنا وغادرت، حتى انفجرتُ أنا وأمّي بالضحك! أي جنون هذا الذي يجرّنا إلى جنون أخر؟

كيف لفتاة شبه عاقلة مثلي أن تقنع شاباً شبه مجنون مثله بأن يكفّ عن حبّه لها؟ وهل الحب عادة كي أقنعه بأنّ يقلع عنها بهذه البساطة؟ كيف أحزر ماذا سيحدث في ذلك اللقاء الذي وعدتْ أمُّ عماد بأن تحضّره لي مع ابنها كي أقنعه بالكّف عن ملاحقتي والعودة إلى بيروت؟ كيف سأقنعه أصلاً وأنا أفتقر لكيفية التخاطب معه، حتى إني نسيت أن أسأل أمّه: كيف بوسعي أن أتحدّث مع ابنها؟ ماذا لو نجحت بإقناع عماد بشيء أنا نفسي لست مقتنعة به؟ وكأنّ تلك الحياة الساقطة تصرّ في كلّ مرة على اختباري بأساليب تفوق كلَّ توقعاتي.

هل أخبره بأنِّي أبرمت عقد متعة مع الشيخ علي منذ ثمانية أشهر ولا يمكن أن أتزوّج به لهذا السبب؟

لكن كيف لي أن أتحدّث معه عن زواج رجعي كهذا، وهو الذي أفقده عشقه للعلم المساحة الأوسع من عقله! كيف أحدّثه عن هكذا سخافات، وأدخله في أشياء تافهة كهذه!

في تلك الليلة شعرت بأنّي غداً على موعد للقاء أحد رجال السياسة المهمين، أو أحد نجوم السينما العالمية، أو أحد أشهر مصممي دور الأزياء، فعماد بالنسبة لي لم يكن مجنوناً فحسب، عماد كان كلّ هؤلاء الذين ذكرتهم، فلقد قيل إنّه حصل على عدة شهادات علميّة، وفي عدة مجالات لفرط ذكائه، ولو لم يصب بالجنون لربّما كان واحداً من أهم الشخصيّات العلمية. على الرغم من أن أمّه المتعجرفة حاولت جاهدة بأن تجعلني أشمئز من بعض العادات التي يمارسها عن غير قصد، وعلى الرغم من كلّ ما قالته لي عنه، إلا أنّ شعوراً داخلياً كان يجبرني على أن أترفّع عن كلّ تلك التصرّفات والعادات اللاإرادية التي كان يمارسها. قضيت ليلة غريبة الأطوار لا تشبه بقية الليالي، قضيتها كاملةً، وأنا أتحاور مع ذلك المجنون الذي لا أحب فيه سوى ابتسامته، تكهّنتُ بأكثر من سيناريو لذلك اللقاء الذي سيجمعني به، والذي يشبه أفلام الرعب! صرت أتخيل كيف سأبدأ الحديث معه:

"كيف حالك؟"

هل من المنطق أن أسأله عن حاله وأنا أكثر من يعرف حاله!

سيبتسم لي حتماً، أو لنقل ستتسّع ابتسامته لتملأ الغرفة بعد ذلك السؤال النمطي.

- لماذا تضع نظارات على عينيك، فهي جميلة جدا؟

سؤال تافه لا قيمة له، لكنَّني سأطرحه عليه تمهيداً لأسئلة أكثر تفاهة، لا بدَّ وأنّه سيشعر بإحراج كبير من هذا السؤال تحديداً، سيظن بأنِّي أتغزّل به وبعينيه.

عليّ أن أسأله عن سرِّ تلك الابتسامة العالقة على وجهه طوال الوقت، سأخبره بأنِّي أحبها جداً، وسأطلب منه إن كان بالإمكان أن يقوم بتعليمي كيف أبتسم ابتسامة تشبهها إلى حد ما. سيكون هذا السؤال محفّزا لأزيد من ثقته بنفسه.

يا إلهي! عليّ تجنّب مثل هذه الأسئلة التي ربّما تضطره لمغادرة الغرفة وربما تتسبّب له بالاحتلام، حتماً لن أسأله عن أسباب جنونه، أخاف أن يردَّ عليّ السؤال بصيغة أخرى:

"لو لم تكوني مجنونة مثلي لما كنت قبلتِ الجلوس معي على انفراد."

في تلك الليلة، طرحت عليه عشرات الأسئلة، ونسيت أن أطلب منه الكفَّ عن ملاحقتي، أسئلة راحت تدور في رأسي وتلسعه، لتحضر ابتسامتُه على شكل أجوبة مختصرةِ الجمال، وتزيد رأسي دوراناً!

كانت ليلة مُتعِبَة جدّاً، نمت فيها عند بزوغ الفجر، لأصحو على صوتك وأنت تطلب من أمّي أن توقظني.

أسعدني مجيؤك ذلك الصباح.

يحدث أن تنام وأنت تفكر بمن يحبّك لتستيقظ فيما بعد على صوت من تحبّه أنت. ينتابك شعور في تلك اللحظات وكأنّ الله كافأك على تعاستك طوال الليل، ومع هذا كان عماد هو من أتوق للقائه وليس أنت، كان هو الحدث الذي يشغلني عن أي تفاهات أخرى!

كمن يستعدّ لحدث عظيم كنت أتجهّز للقاء مجنوني ذلك!
كمن يذهب لمدينة الأشباح للمرّة الأولى، يتخيّل كلّ الأشياء المخيفة والمرعبة، ومع هذا يصرّ على المغامرة، كمهّرج يتحضّر لأوّل ظهور له في السيرك، تشغله فكرة إضحاك الجمهور، بينما الحضور جميعهم مجانين يضحكون من دون سبب!
قرّرت أن يكون حوارنا مختصراً جدّاً. قرّرت أن لا أقحم نفسي، وأقحم عماد في أشياء لا نفهمها، وأن أبتعد قدر الإمكان عن المفردات الدرامية، فنحن لسنا عاديين! هو يعشقني وأنا أعشق آخر! لذا عليّ أن أحذر الكلام عن الحب خلال لقائي به؛ إنّه لمن السخرية أن أذهب إلى من يحبّني لأطلب منه أن يقلع عن تلك الورطة الجميلة! إنّه لمن الظلم أن نوقف الحب عن ممارسة عاداته اليومية، ونفرض عليه خياراتنا بحجّة الخوف عليه من الجنون. طرقت باب شقته: "ثمّة ساحرة شريرة ستفتح لي بعد قليل" شعور انتابني وأنا أقف عند الباب.

أزال وجه الخادمة السريلانكية جزءاً كبيراً من خوفي وهي تدعوني إلى الدخول، كانت هي الأخرى تبتسم لي، وكأنّ عماداً نقل لها العدوى خلال عنايتها به. دعتني للدخول إلى الصالون، سرت خلفها وأنا أحاول أن أخفي ارتباكي الشديد وقلقي من أيّة مفاجأة قد تحدث لي.

صوت موسيقى هادئة ينبعث من الداخل، لا بد وأنّه عماد هو من يستمع لها.

هدوء مزعج وأثاث فاخر، مشهد لم أعتد عليه في غرفة أمّي المليئة بنا أنا وأخوتي.

ضممتُ ركبتَيَّ على بعضهما، ورحت أحدّق في التحف الأثرية الموزّعة هنا وهناك!

لماذا يحتفظ الأغنياء بتلك التفاهات؟ تذكّرت حين ورثتْ أمّي عن جدتي قطعةً أثريةً، وهي عبارة عن ماعون كبير من النحاس، واحتفظت به تحت الدرج من دون أن تهتمَّ له يوماً سوى أنّه ذكرى من جدتي. أحد أثرياء القرية زارنا ليتصدّق علينا بمبلغ صغير من المال أول أيام العيد، وعندما لمح ذلك الماعون أحرج أمّي بالتنازل عنه له بعد أن أعطاها تلك الصدقة! يستكثر الأغنياء على الفقراء أبسط حقوقهم، حتى ذكرياتهم التي يحتفظون بها يسلبونها منهم من دون أن يكلّفوا أنفسهم عناء الشفقة عليهم. أكثر من عشرين قطعة أثرية في الصالون، ربما

يفوق ثمنها ثمن غرفة أمّي وكرم الزيتون الصغير الذي كانت تملكه جدتي.

وأنا أنتظر حضوره، ثمّة زوابع بداخلي كادت تقتلع صبري من مكانه. هي لحظات لا أكثر، شعرت فيها بأنّ هذا المكان الواسع بدأ يضيق بي لولا دخول أم عماد؛

- أهلين حبيبتي، بعتذر اتأخرت عليكي كنت عم جهّز عماد، الله يسامحو، بول بتيابو تلت مرات من لما فاق

- الله يقويكي

- عماد أنا بشرف على خدمتو بنفسي

- هيك لازم

كنت أجيبها باختصار وكأنّي أقول لها:

اخرسي، وكّفي عن الكلام، لا مزاج لي لسماعك أكثر،

راحت تناديه للدخول وكأنّها تعلن ساعة الصفر لبدأ تلك المعركة الغامضة. يطلّ عماد بنبله وأناقته وتسريحة شعره، بابتسامته شديدة الحضور. يبتسم لي ما إن يدخل الصالون، فأبادله الابتسامة للمرّة الثانية.

نبضات قلبي تتعثّر ببعضها البعض، تتحوّل إلى ما يشبه أرجل اللاعبين في ملعب لكرة القدم، تستأذن أمُّه بحجّة إعداد الشاي، لكنَّني ألمح ظلّها عند طرف الباب، وهي تتلصّص على أحاديثنا التي لم تبدأ بعد؛

- كيفك؟

"قلتها كمن يريد أن يزيح عن صدره حبّا ما"

لم يجب، لكنّه فاجأني بسؤالي عن اسمي

سألني بنبرة سريعة وكأنّه قضى الليل كلّه وهو يتدّرب على ذلك السؤال

- اسمي ليلى، ألا تعلم ذلك؟

تحولت ابتسامته لضحكة، وكأنّه يقول لي:

أعلم، لكنَّني سمعته من الجميع إلا منكِ، ولهذا سألتك.

- ألا تفكّر بالعودة إلى بيروت، يقولون إنها مدينة جميلة جداً، أتمنى لو كنا نملك بيتاً فيها كي نقيم هناك.

كطفل صغير رفع رأسه مشيراً إلى عدم رغبته بالذهاب إلى بيروت

- لكنّك قضيت فيها وقتاً طويلاً، ألا تحنّ لها؟

- أحب هنا!

قالها بصعوبة وكأنّه يقطع علي الطريق كي أكفّ عن استجوابه.

رحت أبحث عن سؤال آخر لأطرحه عليه بعيداً عن تلك الأسئلة النمطية الكريهة، سؤال مختلف مثله، فبشاشة وجهه تحتّم عليّ أن أحدّثه بطريقة تليق بنبله الطاغي على كلّ الأسئلة

- هلّا كففت عن حبي؟

باغَتُّه بتلك الكلمات بعد صمت لم أجد فيه ما أقوله، وكأني أطلق رصاصة الرحمة عليّ وعليه

- بحبّك!

قالها وكأنّها الأمل الوحيد المتبقي عنده.

استفزتني تلك الكلمة، أغاظتني من الداخل وكأنّي لا أتحدّث لرجل أعلم مسبقاً أنّه يحبني.

- "كيف يعني بتحبني؟ بعدني صغيرة عاهيك قصص، بدي أكمل دراستي، متل ما أكملت إنت دراستك، توّقف عن حبي لو سمحت."

أخرجت كلّ الكلمات التي تردّدت في قولها دفعة واحدة، لأزيح عن حنجرتي عشرات الغصّات التي كادت تخنقني منذ ليلة أمس.

قلت له ذلك وهممت بالخروج، لأتفاجأ به وهو يسرع نحو الباب ويغلقه ويقف أمامه محاولاً منعي من الخروج.

تسمّرت في مكاني وأنا أرتجف خوفاً منه، بينما راحت أمّه تطرق الباب من الخارج وهي تصرخ ليفتح لها من دون جدوى!

نوبة عصبيه انتابته فجأة، راح يهتزّ كلُّه، كنت مثله أهتزُّ من الخوف والقلق، تمنّيت لو أنّه يفقد توازنه، ويسقط أرضاً كي أهرب منه.

لأوّل مرّة يحقّق الله أمنيتي على وجه السرعة فيدخل عماد بنوبة صرع ترديه أرضاً، وما إن سقط أمامّي حتّى أسرعتُ لأفتح الباب، لكنّ جسده الممدّد على الأرض حال دون ذلك، رحت أصرخ على أمّه كي تدفع الباب للداخل، بينما هي تصرخ بي كي أسحبه من رجليه بعيداً عن الباب فأتمكّن من فتحه، كنت شبه منهارة! لكن الخروج من هذا المصح، وأنا بكامل قواي

العقلية التي جئت بها قبل نصف ساعة من الآن كان جلَّ ما أتمناه في تلك اللحظات التي لا تُصدّق، سحبت عماد من رجليه المتخشبتين بينما الزبد يخرج من فمه، كرهته فجأة، تمنيت لو أن الأرض تنشق وتبلعه بعيدا عني! وكمن يهرب من مشفى للأمراض العقلية، كنت أسير بسرعة، دقات قلبي تلهث أمامّي وأنا أتلّفت خلفي خوفَ أن يلحق بي. ما هذه المفاجآت التي تكبرني بسنين؟! ما كلّ هذه الاختبارات المبكّرة يا ألله؟!

سألتني أمي:

- كيف كان لقاؤك بعماد وأمِّه؟

- جيد، هم أناس طيبون جداً، لكن الظروف هي اللئيمة.

أضربتُ عن الخروج من المنزل لأسابيع، كانت من أطول الأيام عليّ وأكثرها وحدة! كم اشتقت حينها لأخي عباس، لضحّته التي تملأ عليّ وحدتي، لنهفاته التي يدّخرها من بيروت ليرويها لنا في الجنوب!

إجازته الأخيرة لنا كان قد مضى عليها أكثر من شهر، سرقته الحرب منّا، لم نعد نراه إلا كلّ عدة أشهر.

ما هذه البلاد التي تسرق أبناءها، وتستكثر عليهم إجازة أسبوعية لينفضوا بها آثار الحرب عن ملابسهم المموّهة وثيابهم الداخلية الصفراء ورائحة عرقهم، بلاد تبخّ سمومها داخل أحلامهم، فتستبدل أقلام التلوين ببارودة الكلاشينكوف!

يا عباس: هذه البلاد تستعرّ بنا، وكأنّها لم تنجبنا من ماء ظهرها، وكأنّها لم ترضعنا من ثديها الأيسر خبزاً وملحاً، ومن ثديها الأيمن حليباً كامل الألم.

يا قرة عيني: هذه البلاد تسعّر لنا الحروب لنكون نحن متاريسها ورصاصها وحناجرها وأوراق ضغطها وملفّات اعتمادها، فلماذا علينا أن ندفع فواتير حبّنا لها بينما هي تصفّنا طوابيرَ طوابيرَ على أبواب المقابر والمطارات، حتى صرنا نتداول الموت والهروب من هذا الوطن كما يتداول مستحدثو العملة اليورو والدولار!

هذه بلاد من السابق لأوانه أن نضحي من أجلها بعدما تشابهت علينا أبقارها وتجّارها، ولصوصها وعمائمها.

من أين نأتي لها بمزيد من البطولات التي لا تستحقها!

من السابق لأوانه يا نور عيني أن نرفع الأثقال عنها، نحن الهزيلون جدّاً، المكتظون بالشعارات الورقية، والحناجر الأصلية التي لا تهترئ من الصراخ لهم، متى نصرخ عليهم؟

هذه ليست أوطاناً يا عباس، هذه دكاكين لبيعنا، ونحن أرخص بضائعها التي تزجى بها في هذا الشرق الأبسط، حيث الدين والحروب هما من يتولّان أمر بقاءنا أو موتنا.

هذه البلاد مليئة بالفضائح يا ماء عيني، ونحن مازلنا صغار كي نستر عوراتها المكشوفة، نحن خلقنا لنشاركها الفضيحة، وإلا كيف سنصبح مثلها متهمين بالوطنية؟

الستارة المهترئة

"لولا وجود رجال الدين في الشرق الأوسط، لكان رجال السياسة لا يجدون ما يفعلونه سوى مساعدة نسائهم في طهي الطعام."

قالها لنا الشيخ علي عندما كان يلقي أحد دروسه الحزبية، كنت قد اشتقت له كثيراً هو الآخر، منذ أن غادر منزلنا غاضباً بسبب امتناعي عن مرافقته، وذهابي للقاء عماد لم يأت لزيارتنا، حتّى زكاة الخُمس التي استُحِقَّ دفعُها لنا منذ عشرة أيام لم يبعثها، هذه المرة الثانية التي يتمنّع فيها عن إرسال زكاة الخمس.

كانت المرّة الأولى عندما تشاجر مع عباس بسبب دفاعه عن حقّ حركة أمل بمحاربة حزب الله في المعارك الدائرة في بيروت الغربية.

أصبحت تلك هي عادته: يقطع عنا زكاة الخمس، كلّما غضب من أحدنا! على الرغم من ذلك لم يؤثّر هذا علينا بعدما امتهنت عمل "التفاؤل بالقرآن"، فقد كانت الأموال التي أجنيها من تلك المهنة شهريّاً، تعادل ما يدفعه لنا الشيخ علي!

ستكون هذه المرّة الأخيرة التي أقبل فيها بتجديد عقد المتعة معه.

هكذا كنت قد حسمت أمري، فبعد أيام من الآن تنتهي مدّة العقد الذي أبرمناه منذ شهرين، ولن أقبل بتجديده لمرة أخرى.

لكنّ الشيخ علي لم يكن من أولئك الذين يسمحون للفرص بأن تفوتهم لذا حضر قبل انقضاء مدّة عقد المتعة بيوم واحد، لم أكن في المنزل حينها، انتظرني لساعتين، وما إن عدت ولمحته حتى قفز قلبي من مكانه.

لم أكن أعلم أني اشتقت إليه إلى هذا الحد! لدرجة أني تمنيت لو كان بوسعي تقبيله أمام أمّي والجميع، نسيت خُمسه وزكاته ولؤمه علينا ما إن سمعت صوته!

كان "لاروشفوكو" على حق عندما قال: "نحن نغفر ما دمنا نحب."

هذه المرة تحجّج بأنّه عليه اصطحابي كي أفتح بالقرآن لزوجة صديقه المريضة في إحدى القرى المجاورة!

في وطن تحكمه الطوائف والإيديولوجيات يُصبح الدين هو (حلاّل المشاكل) لكل معضلة يمكن أن تواجهك، يُصبح هو المخرج الأسهل لك من أي مأزق كنت تظنه قبل قليل غايةً في التعقيد! أخذني إلى بيت متطرف في القرية المجاورة، بيت عادي جدّاً:

سألته:

لمن يعود هذا البيت؟

- هذا البيت خاص بالحزب

- ألا يوجد أحد يقيم فيه؟

- لا، الجميع يستخدمه، هيا انزلي من السيارة.

نزلت ومشيت خلفه كالعادة، لطالما كان هو السيد والقائد.

- ما اشتقتيلي يا بنت الكلب؟

شتيمة جميلة، كلّ الكلمات كان لها وقعٌ خاصٌّ عندما ينطق بها هو، حتى الشتائم تبدو جميلة!

"أنت الكلب، لكنَّني أحبك"

تمنيت أن أجيبه بهذه الكلمات وهو يمرّر فمه على عنقي، ويشمه كمتعاطِي المخدرات، لكنّني حبستها في داخلي مع بقيّة الكلمات التي لم أجرؤ على قولها له.

خلع عني ملابسي على عجل، ثم خلع عباءته، وفرشها لي ومدّدني فوقها، وجعل من عمامته وسادة تحت رأسي وراح يلتهمني.

طفلةٌ مدجّجةٌ بالحبِ أنا!، أعلّق على شيخي، وحبيبي كلّ أحلامي، أفرش له جسدي متى شاء.

كيف أشرح لهذا الدين الذي تدّعي أنّك واحدٌ من رجاله؛ بأنِّي أحبُّكَ، وبأنّك أحدُ شيوخه المثيرين للحب، للشهوة، وللكثير من إشارات التعجب؟! كيف أشرح له بأنَّ بعضَ العمائمِ لا تصلح إلّا لأن تكونَ وسائدَ مؤقتة؟

رجل التناقضات هو، مرّة يأخذني لڤيّلا فاحشة الثراء، ومرّة يأتي بي إلى هذا البيت الفارغ من كلّ شيء تقريباً. لم يكن يعنيني

المكان، كان كافياً أن يكون هو معي لأتأقلم مع الزمان والمكان، وأي شيء أخر.

وبينما كنا أنا وهو منشغلين بالترفيه عن جسدينا، تفاجأنا بأحدهم يطرق الباب علينا، ما إن سمعه الشيخ علي حتى قام مرتبكاً، وارتدى ملابسه في طرفة عين بعد أن طلب مني أن أفعل أنا ذلك أيضاً. اختبأتُ خلف الباب في الغرفة المجاورة، كانت غرفةً مليئةً بالسلاح! كانت المرّة الأخيرة التي أسمع فيها صوت "حسن" أجمل شباب القرية، وأكثرهم خُلقاً. عرفتُه من صوته ما إن سمعته، يستحيل أن أخطئ هذا الصوت، لأن صوت حسن عالق في أذهاننا جميعاً، فهو في كلّ عام يجسّد شخصية الإمام الحسين في واقعة كربلاء، وذلك حين نقوم بإحياء ذكرى تلك المعركة عبر تمثيل أحداثها في إحدى الأراضي القاحلة في القرية.

في كلّ سنة يُقطع رأس حسن وهو يمثّل تلك الشخصية، فنبكيه بحرقة، ونحبّه أكثر وأكثر بسبب تجسيده لدور الحسين عليه السلام.

- "كيفك سماحة الشيخ؟

"يقولها حسن للشيخ علي ما إن يدخل"

- أهلا بحبيب القلب.

- لازمنا كم جعبة.

- عراسي، إنتو بس إمروني"

ثمّ يدخل الغرفة التي أختبئ فيها، يتناول منها الجُعب العسكرية ويخرج من دون حتّى أن يلتفت إليّ!

بعدها سمعته يقول لحسن:

- "عزمتو الليلة تقوموا بالمهمة؟

- بإذن المولى عز وجل مولانا، إنت بس ادعيلنا

- إحدى الحسنيين إن شاء الله، النصر أو الشهادة

يرد عليه حسن ضاحكاً:

- إدعيلنا بالشهادة مولانا، النصر مهمتكم أنتم."

فهمت يومها أنّ حسن ورفاقه سيقومون بتنفيذ عملية عسكرية هذه الليلة ضد الاحتلال. في اللحظة التي كان الشيخ علي يتمتّع فيها بجسدي، وينفث دخان سيجارته داخل فمي، كان هؤلاء الشباب يتجهّزون لتنفيذ عملية للمقاومة على تخوم القرية باءت بالفشل كالعادة، وأدّت لأسر كلّ من شارك فيها!

كان حسن هو الشاب الوحيد الذي نجا من الأسر بعد أن اخترقت رأسه رصاصة إسرائيلية!

بعد عدّة أيام من الاحتفاظ بجثته أرسله الإسرائيليون عبر الصليب الأحمر للقرية، بعد أن قطعوا له عضوه الذكري، كانت رسالة قاسية لحزب الله، ولكلّ أهل القرية الذين بكوه، وكأنّه الحسين!

"سنخصي رجالكم واحداً تلو الأخر كي لا تنجبوا مقاومين جدداً"

في تأبينه وقف الشيخ على منبر الحسينية ليُلقي خطابا تصعيدياً ضد الاحتلال الإسرائيلي، عاهد الجميع يومها، وأقسم لهم بدم الحسين إن الحزب سينتقم لحسن: "سنحوّل كلّ كنيس يهودي لحسينية لآل البيت".

شحنة من الحماس والغضب أصابتنا جميعاً ما إن سمعناه يصدح بتلك الكلمات، فراحت حناجرنا تهتف بكل قوة، وما هي إلّا دقائق معدودة حتّى علم الإسرائيليون بهتافاتنا فأرسلوا لنا قذيفة على هيئة تهديد، استقرّت على بعد كيلو متر واحد من الحسينية، وحصدت أرواح ثلاثة من أبناء القرية، أحدهم أخرس، واثنين كانا يجيدان الصراخ مثلنا تماماً!

خرجنا من الحسينية يومها يتقدمنا الشيخ علي، لملمنا أشلاءهم من على زوايا الطريق، جمعناهم في بطانيات للأمم المتحدة، ثم حملناهم، وعدنا للهتاف من جديد، حتى تشقّقت حناجرنا، لكّن هذه المرّة بحزن مضاعف.

في تلك الليلة أطلق حزب الله صواريخ كاتيوشا رداً على القصف الإسرائيلي، فردّت إسرائيل هي الأخرى بدورها لنستيقظ على إحصائية لشهداء جدد، لم يتسنَّ لهم الصراخ مثلنا بعدها!

شهداء قُتلوا وهم نيام، يُقال إنّ أحدهم مات عارياً هو وزوجته، كانا يمارسان الحب على وقع أصوات الصواريخ من دون أن ينتبها إلى أنّها المرّة الأخيرة!

أي جنون هذا الذي أصابنا -نحن الجنوبيين- حتى نغفل عن دكتاتورية الموت، ونخلع له ملابسنا، ونصرّ على أن نشهق من اللذة قبل أن يسحب منّا أرواحنا!

جرّ خطاب الشيخ علي الناري في ذلك اليوم الكثير من المآسي، وأصبحت أصوات القذائف والصواريخ لا تبارح أطراف القرية، وعلى الرغم من كلّ هذا كان الجميع ينسى تلك المصائب والمآسي، ويدعو له بالنصر، وبأن يبعد الله الموت عنه.

لماذا استشهد حسن، وتم استئصال عضوه الذكري، بينما بقي الشيخ علي بكامل أعضائه حيّاً يُرزق؟!

سؤال لم يخطر لي في ذلك اليوم!

وحدهم الشهداء الذين ذهبوا إلى قبورهم سيراً على الأقدام، حاملين داخل جعبهم قضية أكبر من الموت، وبضع رصاصات لا تكفي لهزيمة العدو، وعادوا ليُدفنوا بدمهم وعرقهم من دون أن تجهّز لهم الأكفان، أو تستعدّ المقابر للاحتفاء بهم، وحدهم كانوا يستحقون فرصة ثانية ليعودوا لهذه الحياة!

تفاهة الخلاص

كل تلك الفجائع، والجثث، والحناجر المتشقّقة، والقنابل العنقودية، تفردها الذلكرة أمامي لتحرّضني على ألّا أردَّ على رسائلك المدسوسة داخل هاتفي.

في هذه اللحظات الكارثية الممتلئة بالغصّات المتلاحقة، يبعث لي الفيسبوك إشعاراً، يخبرني فيه أنّك تريد أن تُصبح صديقي!

هههههه ما هذه التكنولوجيا! لا تملك ذرّة من الحياء حين تُقدّم لنا عروضاً سخيفة في أحرج الأوقات. ما هذه السخافة! وهل يصحّ لعاشقين قديمين مثلنا أن يعرض عليهما الفايسبوك صداقة إلكترونية بعد كلّ تلك السنين؟

معذورة هذه التكنولوجيا فهي لا تعرف عن حبّنا القديم شيئاً، كان عليك إخبارها بذلك على الأقل تفادياً للسخرية. مازلت جنوبياً بامتياز، لم تغيّر عادتك في الاستيقاظ باكراً مثلي!

رسالة جديدة منك، لطالما أبكرت عليّ في رسائلك حتى عندما كنت طفلة:

- صباحك.

هل استيقظتِ؟ أرسلت لك طلب صداقة.

- هل تريد أن نصبح صديقين؟ حسناً سأفكّر في الأمر.

- ههههههه، وهل الأمر يحتاج للتفكير؟

- نعم، يحتاج كثيراً، أنت تطلب مني أن نكون صديقين، ولا أعلم سبب طلبك!

- بتِّ تُعقدين الأمور، والأمر لا يستحق كلّ هذا، اعتبريني صديقاً عادياً كبقيّة الأصدقاء عندك.

- ما زلت تبسّط الأشياء الكبيرة، ترّش الملح فوقها كي تجعلها أصغر حجماً، تلك موهبة نادرة لا يملكها إلا المحنّكون أمثالك.

- لقد كبرتِ كثيراً، كنت أظنّك ستبقين طفلة كما عاهدتني ذات يوم!

- نعم، لقد كبرتُ، وهذا ما يؤلمني.

ثمّة تغيّرات جذرية طرأت على طريقة تفكيري كتلك التي طرأت على جسدي وأنا في طريقي لسن اليأس. فمثلاً تلك الأشياء الصغيرة التي كانت تسبّب الألم لي بالأمس، أصبحت أكثر رأفة بي اليوم. آلام الطمث التي كنتُ أتلوّى منها لسبعة أيام، خفّفت لي تلك العقوبة، واختصرتها لثلاثة أيام فقط! آلام الشقيقة هي الأخرى لم تعد تنتابني كلّ يوم وأنا مدينة لها بهذا البخل من الوجع.

كبرت يا شيخي الجميل، لذا كان عليّ استبدال أشياء بأشياء أخرى لا تشبهها بتاتاً، أشياء أقل ضرراً وأكثر واقعية!

- المهم أنكِ ما زلت شيعية، بقيّة الأشياء لا تعنيني!

- لقد أخبرتك بأنّي كبرت قليلاً.

حدث ذلك عندما استبدلتُ المقامات الشيعية بالمقامات الموسيقية، لقد اكتشفت مؤخراً أنّ ثمّة فرقاً كبيراً بينهما؛ فالأولى تسلبك الفرح، أما الثانية فتمنحك إيّاه مجاناًا!

منذ أن تعلّمت العزف على آلة الكمان، أدركت أنّ ثمّة فرحاً يحوم حولنا طوال الوقت، لكنّنا نجهل كيفية التقاطه، وأنّ الحزن المتوفّر بكثرة، نحن من نساهم بتكاثره عندما نصرّ على ملازمته، ولو أتيحت لنا تعبئته بأكياس، وتخزينه لمواسم لا حزن فيها لفعلنا!

لم أكن أتخيّل يوماً أن أتعلّم الرقص بتحريض من رجل دين، والذي هو أنت، وأن أتعلّم الموسيقى بتحريض من سكّير مسيحي.

منذ أشهر، حملتُ آلة الكمان ونزلت بها إلى أحد شوارع اسطنبول، أصابني بعض الحماس، وجلست إلى جانب أحد عازفي الشوارع، كان ثملاً تفوح منه رائحة الخمر، وتفاجأت أنّي لم أشعر بالخوف منه، كان يعزف بطريقة احترافية، ويبتسم لي بين الحين والآخر كي يثبت لي بأنّه مسالمٌ، ومازال في وعيه

- ألم تخافي منه؟

- لا، مُحالٌ أن تشعر بالخوف وأنت برفقة رجل يعزف الموسيقى، حتّى ولو كان ثملاً.

أنت لا تعلم كم الفرقُ شاسع بين رجل الدين، وبين عازف الموسيقى!

- حتما هناك فرق شاسع.

- ما الذي يجعل رجلاً مثله يقف في الشارع طوال النهار ليعزف الموسيقى مقابل القليل من النقود الحجرية؟

- ربّما لأنّه لا يملك عملاً يسترزق منه غير تلك المهنة.

- كان باستطاعته أن يعمل رجلَ دينٍ مثلاً، هي مهنة مربحة جداً، أليس كذلك؟

- تصدمينني بطريقة أفكارك، أنت لا تشبهين ليلى التي أحببتها يوماً، كيف لكِ أن تساوي بين رجل دين ومجرد موسيقي سكّير؟

- ومن قال لك إني أساوي بينهما؟ أنتما مختلفان جداً.

كنت أتحدّث معك بطلاقة، وكأنّني لم أفترق عنك لأكثر من خمسة وعشرين عاماً، حدّثتك عن الموسيقى التي تحرّمون علينا سماعها أنت وأمثالك، وعن الفرق بينها، وبين اللطميّات الحسينية.

عندما سألني ذلك العازف الثمل الذي جلست إلى جانبه في الشارع سؤالاً باللغة التركية التي لا أفهمها، أجبته بابتسامة وكأنّي أقول له:

- اعزف كي أفهم عليك.

ثمّة لحظات تخذلك فيها اللغة، وذلك عندما تجمعك بآخر لا يجيد لغتك، فتأتي الموسيقى كمنقذ لكليكما. اللغة ورطة والموسيقى هي المنقذ الوحيد لها!

عزفت لذلك السكير معزوفة لفيروز ففهم أني من لبنان، ثم عزفت له معزوفة من الفلكلور اللبناني، فقام، وراح يرقص كالمجنون، بينما المارّة ينظرون إلينا باستغراب، ويرمون لنا النقود المعدنية!

نوبة من الفرح اجتاحتني وأنا معه، على الرغم من أني لا أعرف عنه شيئاً، سوى أنّه عازف وسكّير، شعور بالفخر لازمني وأنا أعزف معه على ذلك الرصيف، والناس يمرّون من أمامنا ويضحكون علينا، وربّما يرمون لنا بتلك النقود كنوع من الشفقة لا أكثر. فرحْتُ لأجله ولأجلي، نحن الاثنان كنا نعاند ألماً ما! كنا نطبّق مقولة (ديمي لوفاتو) بحذافيرها؛

"لا شيء أجمل من ابتسامة تكافح للظهور بين الدموع."

حين هممت بمغادرة الرصيف، أصرّ ذلك العازف على أن نتقاسم تلك النقود التي رماها لنا المارّةُ بالتساوي، لم أكن بحاجة لها، لكنّني أخذتها! كان ملمسها دافئاً جداً، وضعتها في حقيبتي، ومضيت في طريقي.

لو أني تعلّمت العزف وأنا طفلة صغيرة لكنت جنيت كثيراً من المال، وأنفقته على أخوتي الصغار، فرق شاسعٌ بين هذه النقود الدافئة، وبين تلك النقود الورقية التي كنت ترسلها لنا متى يحلو لك، وتقطعها عنّا متى شئتَ!

في تلك اللحظات كانت تنتابني رغبة شديدة في البكاء عندما تلامس نقودُك يدَ أمّي وهي تدعو لك، أما هذه النقود فقد

ضخّت بداخلي أطناناً من الفرح الخام! للفرح موادُّه الأوليّةُ، والموسيقى واحدة منها.

جاء تعلّمي للموسيقى عن طريق الصُدفة. كان ذلك عندما عملت كمتطوعة في إحدى المنظمات الإنسانية التي تُعنى بشؤون المهجّرين في حرب تموز. هناك في تلك المدرسة الرسمية والتي خُصِّصتْ لاستقبال مهجّري الجنوب في مدينة صيدا، تعرّفت على الحاج "أبو حسان"، كان عازفاً ماهراً لآلة الكمان.

لم يكن أبو حسان يملك المال ليقدّمَه لأطفال الجنوب، لذا كان يحمل كمنجته كلّ يوم، ويأتي ليعزف للأطفال المهجّرين ظنّاً منه أنّه بذلك يقدّم لهم خدمة إنسانية. كان له موعد محدد في المجيء للمدرسة، الساعة الرابعة عصراً يجمع الأطفال حوله في الباحة ويبدأ العزف.

أبو حسان ذلك العازف النبيل لم يكن يعلم أنّنا في الجنوب محرّم علينا سماع الأغاني والموسيقى، قال لنا إنّ الموسيقى هي إحدى الطرق التي يستخدمها الغرب كعلاج نفسي خاصة لأطفال الحروب! غاب عن باله حينذلك أنّ للجنوب مزاجَه الخاصَّ به.

عشرة أيام وأبو حسان يحمل كمنجته، ويأتي بها كلّ يوم إلى المدرسة ليعزف لنا الموسيقى اللبنانية حصراً، كان متطرّفاً للموسيقى الرحبانية، وهذا ما لم يعجب الكثير من المهجَّرين. إحداهن قالت له ذات مرة:

"اعزف لنا شيئاً نحبه، شيئاً نعرفه، ومعتادون عليه"

أجابها:

"مثل ماذا سيدتي؟ اطلبي ما تشائين من المقطوعات الموسيقية وسأعزفها لك."

- اعزف لنا الأناشيد الإسلامية الحماسية، ألا ترى أنّنا في حالة حرب؟

- أعتذر منك سيدتي، فأنا لا أجيد عزف الأناشيد لأنّني لا أعرف شيئاً عنها!

بدأ بعض الأهالي المتشدّدين بالاعتراض على مجيءِ أبي حسان للعزف في المدرسة، تحجّجوا بأن سماع الموسيقى محرّم شرعاً، ومن شأنه أن يفسد منظومة الأفكار الحسينية التي تبرمج عليها أطفالهم وهم في كنف حزب الله.

تذرّعوا أيضاً بأنّ الظروف تحتاج منّا الدعاء والصلاة، وليس سماع الموسيقى، ثم طلبوا منّا كمتطوعين أن نمنع الحاج أبا حسان من المجيء إلى المدرسة مجدداً.

كنت أنا أوّل من اعترض على منعه من العزف، لذا اقترحت أن نجري تصويتاً داخل المدرسة، على أن يشارك فيه الأطفال وأهاليهم.

كنت أراهن على حب الأطفال للحاج أبي حسان، وتعاطفهم معه؛ لكنّ نتيجة التصويت جاءت مخيّبة للآمال، إذ كانت النسبة الأعلى تؤيد منع الحاج أبي حسان من العزف، في اليوم

الثاني وقفتُ أنا وباقي المتطوعين عند باب المدرسة بانتظار مجيئه، وكل واحد منّا يرمي الحمل على الآخر، ويطلب منه إخباره بألّا يأتي إلى المدرسة مرة ثانية، وعندما حضر بكمنجته، اقترب منه أحد المتطوعين، وعرض عليه أن يبدأ بتعليمنا العزف على آلة الكمان -نحن المتطوّعين- بدل أن يعزف للأطفال في باحة المدرسة.

بدأ الحاج أبو حسان بتعليمنا العزف لمدة ساعتين يوميّاً بعد أن خصّصنا غرفة لحصته الموسيقية.

في البداية، كنا مجبرين على فعل ذلك تفادياً لإحراجه، لكن وبعد مرور أسبوع بدأنا نشعر بلذّة ما نحن فيه، وبأنّ الحظ يمكن أن يبتسم لنا حتى على وقع أصوات الحرب؛ دُهشنا عندما علمنا أنّ الحاج أبا حسان مسيحيٌّ وليس مسلماً مثلنا! فكلنا نناديه "الحاج" وهو يتقبل ذلك منا ولم يعترض يوماً!

توقفتْ حربُ تموز بعد أسبوعين تقريباً، وأجبرتنا أن نفترق عن الحاج أبي حسان، فتمنّى علينا أن نواصل تعلّمنا العزف على الكمان، وأثنى علينا قائلاً:

- جميعكم تحبون الموسيقى، وهذا سبب كافٍ لتتمسّكوا بها.

منذ ذلك اليوم وأنا أعمل بنصيحة أبي حسان، منذ ذلك اليوم وأنا أتعلّم الموسيقى، وأتمسّك بها. تعمل الحرب على تشويهنا من الداخل والخارج، لكنَّها في كلّ مرّة تترك لنا شيئاً جميلاً للذكرى، تترك لنا ممراً آمنا للعبور إلى أماكن فائقة الجمال!

للحرب مفاجآتها المدهشة، تعلمتُ الرقص على وقع أحد فصولها في قريتي الجنوبية، لتأتي حرب تموز، وتحرّضني على تعلّم الموسيقى. طالما انتظرت تلك الحرب التي ستمنحني جناحين مضادّين للرصاص، وتؤهّلني للطيران؛ وما زلت أذكر ذلك اليوم الذي سألتني فيه:

- هل تجيدين الرقص؟

نايٌ متنكِّرٌ بثوب امرأة

أدهشني سؤالك عن الرقص يومها؛ كان من المفترض أن أجيبك بسؤال تعجبي:

- وكيف لشيخ مثلك أن يسألني سؤالاً كهذا؟

لكنَّني آثرت السكوت كعادتي، لا لشيء، كنت منشغلة بطرح سؤال آخر على نفسي: "هل ما سمعته منك حقيقة، أم هُيّئ لي!"

كانت المرّة الثانية التي ألتقي فيها بك بعد أن عقدت عليّ عقد المتعة؛ أجلستني على ركبتيك وكأنّني طفلتك الوحيدة، وسألتني:

بماذا تشعرين وأنت معي؟

لأوّل مرة كنت أعترض على سؤالك وأجيبك بسرعة:

- لا تسألني.

ثمّة أسئلة لا تُطرح في لحظات باذخة الأحاسيس كهذه.

تجلسني على ركبتيك العاريتين، وأنت تتحسّس جسدي وتصعقني بسؤال تافه وكبير كهذا! وكأنّك تمتهن طرح الأسئلة في التوقيت الخاطئ.

ومن أين لي بتعلّم الرقص يا شيخي الجليل؟

أمّي امرأة بسيطة، لم ترتدِ يوماً حمّالة صدر، كانت ترفع صدرها بحمالة مصنوعة من القهر الأصلي، فكيف ستعلّمني الرقص؟!

جدتي هي الأخرى لا تجيد هكذا تصرّفات، كانت تجيد خياطة حذائها البلاستيكي كلّما مزّقته لها طرقات الحقل.

أصحاب العمائم أمثالك لم يعلّموني سوى اللطم على جدي الحسين عليه السلام!

من سيعلّمني الرقص وسط كلّ هذا الخراب؟

أتذكر إجابتك، وبتلك النبرة الهادئة والمستفزّة:

- تعلّميه بمفردك، الأشياء التي نتعلّمها وحدنا من دون معلّم تمنحنا حريّة مطلقة من دون أن يفرض أحدٌ علينا شروطه.

كنت تتحدّث معي وكأنّي أفهم ما تقول، وكأنّي لست طفلة تبلغ السادسة عشرة من عمرها! تتحدّث بطريقة مستفزة تتجاوز مستوى تفكيري البسيط. كان كلامك أكبر من أن يترجمه استيعابي، لذا لم أجادلك يوماً، وكنت أؤثر الصمت، ليس تعبيراً مني عن إعجابي بحديثك، وموافقتي عليه، بل تعبيراً عن عجزي وإفلاسي وقلّة حيلتي في إيجاد مفردات مناسبة أردّ بها عليك!

أنت الذي تجيد الرقص على الكلمات والمفردات، تحترف الرقص داخل عباءة هذا الدين، حيث كلّ شيء مباح وفق شريعتك الحصرية، بينما أنا المسكينة أفتقر لأبسط حقوقي في هز الخصر، في بلاد كلّ ما فيها مولع بالبكاء والنواح!

"وهل الرقص فريضة كي أتعلّمه؟"

نسيت أن أطرح عليك هذا السؤال يومها، مع أنّه سؤال في غاية الأهمية!

كنت أطرح عليك فحسب تلك الأسئلة الصغيرة والسخيفة التي تناسب حجم صدري الذي لم يعجبك!

انتبهت لأمر لم أنتبه له يوماً بعد أن قلت لي بأنّ صدري صغير؛ لماذا لم يكبر صدري على الرغم من أني ألطم عليه مذ عرفت أن جدي الحسين، لماذا ظل صغيراً، وكأنّ اللطم والحزن أوقفاه عن النمو؟

أفكارك الغريبة والمفاجئة أفقدتني شهيتي في البقاء معك في ذلك اليوم، لذا تسلّلت من حضنك على عجل.

تملكتني فكرة الرقص الشرقي، فجأة شعرت بالحماس كي أقلّد الراقصات الشرقيات اللواتي تظهرن على شاشة التلفاز وهنّ نصف عاريات.

أردت أن أذهب لأرقص، أنا التي لطالما استعجلت ولادة الأشياء قبل أوانها، كما استعجلتني أنت لأن أكبر قبل غيري.

كنت أحفظ كلّ كلمة تقولها لي، أخزّنها على قائمة جدول مهماتي البسيطة والعادية، لتصبح هي الأولوية من بين بقية الأشياء، ولأقوم بتنفيذها في المرّة المقبلة التي ألتقيك فيها، كتلميذة مطيعة تصرّ على أن تحصل على العلامة التامة في اختباراتك الصعبة والمعقّدة.

تعجلّت الوصول إلى البيت على غير عادتي في ذلك اليوم، كنت أتشوّق للرقص فوق كلّ شيء، فوق رؤوس الناس الذين كانوا يبتسمون لي في الطريق من دون أي سبب، فوق ركام الأبنية المهدّمة التي لم يتسنَّ لأصحابها بناؤها من جديد، فوق كلّ تلك الأسلحة التي يتباهى بحملها مراهقو القرية الذين لم تنبت شواربهم بعد، وفوق تلك التلّة اللعينة التي يتمركز عليها الإسرائيليون، ويستكثرون علينا نعمة العيش من دون أزيز رصاصهم المحفور داخل آذاننا.

"سأتعلّم الرقص إذاً؟ مهمّة جديدة لم تخطر ببالي يوماً، وماذا عن حجم صدري الصغير؟ كيف سيبدو وأنا أرقص به، كلّ الراقصات يملكن صدوراً كبيرة ومتحجّرة" شعرت بالغصّة من قولك لي إنّ صدري صغير.

"ما إن أصل البيت سأظل أقرصه حتى يكبر بسرعة مثلي هو الآخر."

وأنا أمشي إلى بيتنا ذلك، كانت الأرض من تحتي تركلني إلى الأعلى كلما خطوت فوقها، وكأنّها تريدني أن أحلّق بعيداً عنها، وكأنّها تعلّمني أوّل درس في الرقص الشرقي.

ما إن وصلت البيت حتى أسرعت إلى خزانتنا المنهكة حيث ملابسنا التي تعدّ على الأصابع، كجائع يبحث عن كسرة خبز رحت أبحث بين تلك الأصابع عن ثوب أرتديه.

أمّي أرملة منذ سنوات، ولا ملابس مثيرة داخل هذه الخزانة اللعينة. منديلان جميلان، أحدهما أسود اللون والآخر بني.

الأسود ترتديه أمّي في مناسبات الحزن والوفاة كعاشوراء وغيرها، والبني ترتديه للمناسبات الأقلّ حزناً!

ثلاث جلابيّات جرَدَ لونهن لكثرة ما تعرّضت للغسيل والنشر تحت الشمس، هذا كلّ ما وجدته، ولنفترض أني وجدت ما أرتديه، على ماذا سأتمايل؟

أعَلى أصوات القذائف والصواريخ التي يطلقها الاحتلال على أطراف القرية ليل نهار؟ أم على أنغام الأناشيد الحزبية واللطميات الحسينية؟

في غرفتنا المنكوبة، لا مكان للموسيقى والأغاني التي تحرّض على الرقص، كنّا نحن أوّل من التزم بفتوى تحريمها، الفقراء أمثالنا هم أوّل من يقولون: نعم!

نقولها بحرفيّة عالية، وكأنّها أصبحت جزءاً لا يتجزأ من حناجرنا المتورّمة، بدوت عاجزةً أمام استحقاق ميؤوس منه، وكأنّك سألتني سؤالاً تعجيزيّاً عندما قلت لي:

- هل تجيدين الرقص؟

وهل أتعلّم الرقص وأنا عارية؟

وماذا عن جدران غرفتنا التي تعجّ بصور الخميني ونبيه بري وموسى الصدر وغيرهم؟ يا إلهي! كيف سأتمايل أمامهم وأمام

عمائمهم. ماذا لو كانوا جميعهم نسخة طبق الأصل عن الشيخ علي؟

ماذا لو قفزوا جميعهم من تلك الصور، خلعوا عماماتهم، وراحوا يصفقون لي، وأنا أتمايل أمامهم بلحمي وصدري الذي لم يبلغ سن الرشد بعد!

يا لشقاء الأسئلة حين تفتقر لأجوبة على مقاس حيرتي. ويا لشقاء أثواب أمّي التي لا تصلح للرقص، ويا لوقاحتي، وأنا أتناول منديلها الأسود لأقصّه، وأصنع منه فستاناً أهز به خصري، بعدما استنفذت كلّ عمليات البحث عن شيء ألبسه!

ذلك المنديل الذي طالما مسحت أمّي به دموعها وهي تبكي الحسين في مجالس العزاء، والذي لم تغسله منذ ثلاث سنوات، كانت كلّما بلّلته بالدموع، خلعته ونشرته في الهواء الطلق قائلةً: إن تلك الدموع التي بداخله هي دموع حسينية مباركة، لا يحلّ غسلها بالماء والصابون، بل يجب تجفيفها بالهواء. أمّي من شدة حبها للحسين، أطلقت اسمه على أحد أخوتي، وكانت تناديهم جميعاً باسمه.

حصلت أمّي على ذلك المنديل الذي يشبه مناديل الأثرياء من امرأة ثريّة تقيم في بيروت، كانت قد زارت القرية منذ سنوات للمشاركة بتشييع أحد أقاربها، وما إن انتهى التشييع حتى خلعت تلك المرأة منديلها الأسود، وناولته لأمي.

كانت رائحة ذلك المنديل جميلة جدّاً، وكأنّه صُنع من العطر الخالص، ومنذ ذلك اليوم، وأمّي لم تغسله؛ جف عطر تلك المرأة البيروتية داخل ذلك المنديل، كما جفت دموع أمي، ومع كلّ هذا ظل محافظاً على سواده القاتم!

عندما فردت أمّي ذلك المنديل تفاجأت بطوله قائلة:

- كيف سألّف كلّ هذا حول رأسي؟ سآخذه إلى الخيّاطة لتقصّه إلى نصفين نسيتْ أمّي أن تقصّه في ذلك اليوم، وها أنا أقصّه بدلاً عنها.

كنت أقصّ منديلها، وكأني أقصّ رأس الحسين للمرة الثانية، وكأني أقصّ دموعها المتيّبسة بداخله! قصصته نصفين، لأخيط منه شبه فستان، وعندما ارتديته للمرّة الأولى بدا واسعاً بعض الشيء، لذا أعدت فتقه وخياطته من جديد، ليصبح أضيّق من قبل.

وقفتُ أمام المرآة، رحت أتأمل فتاة بدت وكأنّها لا تشبهني، فتاة مثيرة إلى حد ما.

لأوّل مرّة أرى ساقيَّ عاريتين، ذهلت لمنظر صدري الذي بدا أكثر جاذبية وهو يكاد يختنق تحت ذلك المنديل، أقصد تحت ذلك الفستان الملتصق بجسدي، والذي كان منديلاً قبل قليل، ومع ذلك رحت أقرصه كي يتورّم، ويصبح أكبر من عمره!

وضعت كحلاً عربيّاً، فبدوت أجمل، ثم فردت شعري بعد أن فركته بزيت الزيتون فبدا أكثر لمعانا! في تلك اللحظات كنت

أجرّب كيف يحترف الفقراء مهنة الخلط ما بين الفرح والحزن في مشهد تراجيدي واحد! بدأت ألّف حول نفسي، وكل شيء حولي يحرّضني على البكاء.

وحدي في تلك الغرفة المظلمة، أعمل جاهدة على اختراق كلّ هذا البؤس الذي يحيط بي، أعانده وأمد له لساني كغانية!

كنت أمارس لعبة شد الحبل مع هذه الحياة، كلّ منّا يمسك بطرف ليهزم الآخر. أقفلت باب الغرفة بالمفتاح، لأتفاجأ بقطة تجلس خلفه، أبقيتها معي كي تصفّق لي. كانت هي كلّ جمهوري، تمنيت لو أنها تبدأ بالنواء كي تشجعني أكثر وأكثر. لكنَّها اكتفت بالتفرّج عليّ، ومع ذلك كان وجودها يخفّف عني وحدتي، وأنا أرقص لتلك القطة، كنت كمن يبرم صفقة سلام مع الفرح، أشياء جميلة راحت تتسرّب إلى داخلي، تملؤني بالضوء فأشّع كسبيكة من الذهب الخام.

أتمايل داخل الغرفة، وقلبي يخفق على عجل كان ذلك بمثابة فرصة ذهبية لتجميل الحزن الذي يحملني بين ذراعيه منذ سنوات ويلف بي.

جاء دوري الآن كي ألفّ أنا به، وألتّف عليه. ساعة كاملة والعرق يتصبّب مني، وأنا أرفض الاستسلام؛ الرقص صعب جداً، كنت أظن أني سأتمكّن من تعلّمه في يومين فقط، لكنَّ الأمر استهلك أكثر من ذلك بكثير.

كنت كلّ يوم أجمع أخوتي الصغار في الصباح، وأروح أرقص لهم بملابسي العادية، لم أجرؤ على ارتداء منديل أمّي أمامهم، كانوا يملّون من رقصي سريعاً، لذا كنت أقفل عليهم الباب كي لا يغادروا الغرفة، ويظلوا يصفقون لي!

"لا تقف، تابع الرقص يا أيّها الحب حتى ولو كان موتاً"

تجرّأت وزنّرت خصري لأمي، وصرت أتمايل لها، بينما راحت هي تصفّق لي بحماس.

أستغرب كيف كانت أمّي لا تتفاجأ بشيء على الإطلاق، وكأنّها تتوّقع مني كلّ شيء. تردّدتُ وأنا أرقص لها، خجلت أن أبدّل ملابسي، وأرتدي منديلها، لكنني ارتديته، ومع ذلك لم تتفاجأ!

ظنّت أنّ إحدى نساء القرية الثريّات قد أهدتني إيّاه بعدما ملّت لبسه، مثلما أهدتها تلك البيروتية ذلك المنديل:

- أمي، إنّه منديلكِ هذا الذي أرقص به.

كانت الكلمات تخرج مني على شكل غصّات، ألم تسمعيني؟ لم تسمعني، كانت مشغولة بالتصفيق لي.

- أمي، إنّه منديلكِ، ألا تسمعينني؟ ذلك الذي كنت ترتدينه في عاشوراء.

- حقاً! ومن فعل به هكذا؟

- الشيخ علي، أقصد: أنا من قصصته، وقمت بخياطته ليصبح فستاناً، هل أحزنكِ ذلك؟

- لا، ولماذا أحزن، سأشتري غيره، لكن لماذا فعلتِ ذلك، أنتِ لا تحبين الفساتين!

- كان عليّ أن أقصّه كي أرقص به.

- لكن متى تعلمتِ الرقص؟

- تعلّمته وحدي، هنا في الغرفة، عندما كنتِ أنتِ تذهبين للعمل في شكِّ التبغ، كنت أنا أتدرّب على الرقص.

- يخبرني حدسي أنكِ ستكونين يوما ما امرأة ذات شأن يا ليلى، تملكين الكثير من الإرادة لتتعلمي أي شيء سريعاً.

من أين كانت تأتي أمّي بكل هذه الجرعات الإيجابية لتسهّل علينا الأشياء المعقّدة، وكأنّها لم تتربَّ هي والمصائب في زقاق واحد، وكأنّ الحزن والخيبات ليسوا من أفراد عائلتها! حتى إنّها لم تسألني لماذا تعلمتِ الرقص! ومن طلب منكِ ذلك؟

حتما لو سألتني كنت سأكذب عليها وأقول لها: إني أحب الرقص كثيرا ولهذا تعلّمته.

أنا التي كنت أسرع لتبديل القناة التلفزيونية عندما كان يظهر فيها مشهد فاضح لراقصة شبه عارية، خوفاً من أن يشاهده أخوتي الصغار فتُفسد أخلاقهم! أين ذهبت يا شيخ ببراءتي تلك؟

- عندما تحضر صديقاتي هذه الليلة أريدكِ أن ترقصي لهن، لقد مللنا تكرار الأحاديث نفسها كلّ يوم. تطلب أمّي العظيمة مني هذا.

على ضوء قنديل الكاز، ووقع صوت القذائف والصواريخ التي اعتدنا سماعها طوال الليل، رحت أرقص لأمّي وصديقاتها، بينما رُحنَ يصفقن لي بكثير من الدهشة والاستغراب!

من أين جئتِ بهذا الفستان! يبدو ثميناً جدّاً؟

تسألني إحداهن، فتجيبها أمّي بدلاً عني:

- تابعي التصفيق ودعكِ من طرح الأسئلة.

الحب معلّم سيئ السمعة يا أمي، علّمني الكذب باكراً، لم أعد أجيد قول الحقيقة كما هي، كان عليّ خلطها بألف كذبة وكذبة كي أقنع الآخرين بها.

الحب ساحر شرير يا أمي، يقتل فينا أشياء نحبها ليفرض علينا أشياء يحبّها هو، فتارة يمصّ براءتنا حتى نجفّ ونرتخي، وتارة أخرى ينفخنا لنصبح أكبر من أحجامنا. الحب مختل عقليّاً، يذهب بقوانا العقلية ليستبدلها بنوبات قلبية، وحفنة من الأحلام المستعّملة!

تفاجأت في تلك الليلة، بأنّ أمّي تحبّ الفرح كثيراً، وكذلك الرقص والتصفيق.

لم يكن أبي يحب الموسيقى يوماً، لكن أمّي كانت ناياً متنكّراً بثوب امرأة!

وربّما هذا هو سبب الخلاف الكبير بينهما، والذي أدى لوفاة والدي باكراً، وبقاء أمّي على قيد الحياة! "وكل حركة في الرقص هي قصيدة"

وها أنا أتلو عليك القصائد قصيدة تلو الأخرى. ومن ذلك الأحمق الذي قال: إنّ القصائد هي عبارة عن رسائل شفوية؟

الصمت قصيدة، والشهقة قصيدة، والرقص قصيدة نظرية تتمايل بحرفيّة من دون أن تنطق بحرف واحد، والبكاء قصيدة بليغة، والموسيقى هي القصيدة الأكثر عدلاً في هذا العالم؛ لأنّها توزّع مفرداتها على الفقراء والأثرياء بالتساوي، والكل يصعد سلالمها الموسيقية من دون أن يُصاب باللهّاث، أو يصاب بألم في الساقين. من أين أبدأ قصائدي لك يا شيخي الجليل؟ أأدخل عليك برجلي اليمنى أم اليسرى؟"

كل الأشياء المقدّسة علينا الدخول بها برجلنا اليمنى، والرقص الحلال شيء مقدس.

حسناً، لنبدأ الدوران أنا وأنت، أنا أرقص، وأنت تدوخ بدلاً عني!

ينفعل صدري الصغير أكثر من أي جزء في جسدي النحيل في تلك اللحظات، يشمخ فجأة، فيصبح أشبه بصدور الراقصات، مازال يذكر إهانتك له.

تأرجحني قدماي داخل هذه المساحة الصغيرة مثلي، مثلما تتأرّجح أنت داخل قلبي، يستنفر لحمي حنطي اللون كلّ إمكاناته، فيفتح مساماته المغلقة دفعة واحدة، ليتنفس الحزن قليلاً!

قلبي المسكين كأمي، تتدافع نبضاته خلف بعضها، كما يتدافع الفقراء على صناديق الإغاثة!

أنت لا تعلم ماذا يعني أن أحقّق إنجازاً كهذا أمامك، أن أتعلّم القليل من الرقص في غضون أسابيع كي أثبت لك أني فتاة جديرة بحبك!

كي أبرهن لك أنّ الفقيرات أيضاً يملكْنَ سيقاناً تلمع كالمرايا، وأن الزيت الخالص يخرج من أجسادهن من دون أية شوائب تذكر!

أنت لا تعلم ما قصة هذا المنديل الذي أتمايل لك به، بينما أنت تبحلق بي، وكأنّك كائن بدائي، يستغرب كلّ شيء يراه!

أنت لا تعلم كم دمعة لأمّي بداخله، وكم عاشوراء، فأنا نفسي لا أعلم ذلك، ولا أصدّق أني أقدمت على قصّه من أجلك أنت!

ومن أنت لأقصّ منديلاً لأمّي كي أرقص لك به، كي أثبت لك جدارتي في تنفيذ أوامرك المثيرة للحزن!

رقصت لك يومها من دون إيقاع، من دون أيّة جملة موسيقية، والمنديل الأسود كان يلتصق بلحمي أكثر فأكثر، فيخنق الفرح الذي كنت قد ادّخرته لك على مدى أسابيع، بينما تفتح أنت فمك كالأبله!

تصرّفت أمامك كمومس في مراحلها الأولى، كما أنت تحب!

رحت أترنّح أمامك، وأدوخ، وكأني ثملة أفقدها حبك السيطرة على كلّ مفاصلها.

يعزّ عليّ أن أرقص لك بمنديل أمي، وأن تختلط دموعها الحسينية التي بداخله برائحة عرقي النتنة، ثم تأتي أنت، وتلتهم كلّ شيء من دون أي مراعاة لقدسية هذا الخلط التراجيدي بكل تفاصيله!

في كلّ استعراضاتنا الجنسية، كان الدين حاضراً بيننا بشياطينه وملائكته، حاضراً ليتفرّج علينا ونحن نزني باسمه، ويسجّل لنا الخروقات، ليتنصّل مِنّا فيما بعد! لو أنّك كنت مسيحياً كأبي حسان، لربما كنت طلبت مني تعلّم الموسيقى بدل الرقص في ذلك الوقت. لو أنّك كنت شيعيّاً عاديّاً، لا عمامة بيضاء تعلو رأسك، ولا مسبحة سوداء تلازم يدك اليمنى! لو أنّك كنت أي أحد آخر غير الشيخ علي، لكان الأمر أهون بكثير.. ولَما كانت هذه الذلكرة اللعينة تصرّ على طرح كلّ أسئلتها البديهية بعد كلّ تلك السنين.

أشياء معلّقة

السابعة إلّا ربع صباحاً:

- هل أحكي لك نكتة؟

- وهل هناك نكتة تستحقّ الذكر أكثر من هذا الذي يحدث بيننا الآن؟

- ليلااااه، أنا لا أكّف عن التفكير بكِ.

- هل أخبرك سراً؟

- أخبريني أي شيء عنكِ، أي شيء.

- أكتب عني وعنك رواية، كنت قد بدأت بها منذ أشهر.

- تمزحين، لا أظنكِ تفعلين ذلك!

- حسنا، أنا أجرّب.

- وماذا ستكتبين؟ هل ستكتبين كلّ ما حدث بيننا؟

- نعم، عليك أن تختبر مدى جرأتي كي تحكم إن كنت سأكتبها أم لا.

- هل أصبحتِ جريئة إلى هذا الحد؟

- الكتابة عنك عملٌ بطوليٌّ، وأنا أحلم بأن أكون بطلة ولو لمرة واحدة في حياتي

- هل ستحبينني مرّة أخرى؟ أقصد في الرواية؟

- ربّما لا، ربّما أنت من سيحبني هذه المرّة، ولست أنا.

- يسعدني أن أحبّك من جديد، أقصد في الحقيقة، وليس في الرواية، فأنا أفضّل أن أحبّك في الواقع على أن أحبّك بين السطور.

- أنا من يقرّر هذا.

- ههههه، تتحدثين بثقة، أن أحبّك أنا شيء، وأن تقرّري أنت أن أحبّك شيء آخر، لم يحدث أن قرّر أحدهم يوماً عني.

- هل تخاف الفضيحة؟ أقصد في الرواية وليس في الحقيقة؟

- وهل تسمّين حبي لك فضيحة؟

"الحب أسهل ما نكتب عنه، وأصعب ما نقوم به"؛ هذه المفارقة توصّل لها (سيغموند فرويد)، وهي تمثلني وبقوّة.

- هل تحبين زوجك؟

- نتحدّث لاحقاً.

- لماذا تتهرّبين كلّما سألتكِ عنه؟ هذا يعني أنكِ لا تحبينه، إذا كنت لا تحبينه لماذا لا تحبينني أنا بدلاً عنه؟

- ههههه، هذه أشياء لا تُطلب، هي تحدث وحدها.

- لديّ حدس داخلي يقول إنّك ستغرمين بي مجدداً.

- وعلى ماذا تراهن بحدسك هذا؟

- لو لم تكن لديكِ رغبة في العودة، لما قبلتِ محادثتي، أليس كذلك؟

- حسنا، أستأذنك.

- هل نتحدّث لاحقا؟

- ربّما...

- تردّدين هذه الكلمة كثيراً، وكأنكِ تتعمّدين ترك الأشياء معلّقة، لقد أصبحت ذكية إلى هذا الحد!

- هذا يعني أني كنت غبية؟

- هل تتكرّمين، وتحدّثيني قليلاً عن روايتك، ألا يحّق لي أن أطلّع عليها بما أني بطلها.

- أنت لست بطلها، أنت أحدهم.

- هل أحببتِ رجلاً غيري؟

- أحببت أكثر من رجلٍ غيرك، لكنّه حب مختلف غير ذلك الذي تعرفه أنت.

- لنعد للرواية، حدثيني قليلاً عنها وعنك، لم أكن أعلم أنك مولعة بالأدب إلى هذا الحد!

- وأنا أمارس معك قلة الأدب، نسيت أن أخبرك أني مولعة بالأدب، الرواية هي حقيقتنا التي لا يعرفها أحد غيرنا.

كثيرة هي التفاصيل الواقعية التي تمنيت تعديلها في هذه الرواية، لكنني كنت أتراجع لأعود، وأكتب الحقائق كما هي؛ "الكتابة شكل من أشكال الصلاة"، هكذا تعلّمت من كافكا، ذلك الرجل الذي أحببته بعدك، والذي مات منذ عشرات السنين!

- هل لي أن أعرف بعض تلك الأشياء التي كنتِ تودين تغييرها؟

اممم، مثلاً: لقاؤنا الأوّل في حسينية البلدة مثير للجدل، لن يصدّق أحد من القرّاء أني أغرمت بك في تلك الليلة، وأنّك نجحت في الإيقاع بي وسط كلّ ذلك النواح والعويل! المكان غير مناسب أبداً لغراميات من هذا النوع، خاصة وأنّنا كنا نتبادل النظرات بحذر شديد، وكأنّ الحسين عليه السلام يراقبنا من على المنبر، لذا أفضّل استبدال المكان بمكان آخر يكون أكثر إقناعاً إلى حد ما، كأن نلتقي أنا وأنت بعد عدة غارات إسرائيلية على البلدة، ما أحدث حالة من الهلع بين الناس، وبينما الجميع منشغل بالبحث عن حافلة للهروب بها، أصطدمُ بك فجأة وأنا أجرّ أخوتي الصغار خلفي، فيثير شفقتك مظهر أخوتي وهم يرتجفون من الخوف، لذا تهتمّ لحجز أماكن لهم قبل غيرهم داخل تلك الحافلة التي ستنقل الهاربين من الموت إلى مكان أقلّ موتاً، أتفاجأ بأنّ أخي الصغير مرتضى ليس بينهم، تسير الحافلة خوفاً من غارات جديدة، فأظلُّ وحدي لأبحث عن أخي الصغير، لا أعلم كيف نسيناه في زحمة هذا الخوف، ربّما لأنّ كلّ أخوتي الصغار يشبهون بعضهم البعض، ولا يفصل بين الواحد والآخر سوى عام واحد.

وسط كلّ هذا الخوف والقلق والحزن والأنقاض، تتطوّع أنت لمساعدتي في البحث عن مرتضى، وبينما نحن منشغلان بالبحث عنه، يرتطم الحب بنا، وينضمّ إلينا للبحث عن مفقودين.

هذه البداية ستكون أكثر إنسانية، وأكثر واقعية من أن يولد حبنا بمناسبة تاريخية كواقعة كربلاء!

كنتُ مثلا سأستبدل مكان قبلتنا الأولى بمكان أقلّ خطراً.

- تذكرين تلك القبلة!؟ يااااه؛ طالما أنكِ تذكرينها فهذا يعني أنكِ لم تنسها.

- اتذكرها لضرورات كتابية لا أكثر.

- ليلى، لنعد مجدداً.

- تريد أن نعود ونجرّب حظّنا في الحب مرة أخرى، ونحن الذين تركناه قبل خمسة وعشرين عاماً، بعد أن ألحقنا به كثيراً من الهزائم الأخلاقية.

- مازلتِ جميلة، على الرغم من تجاوزك سنَّ الأربعين!

- ومازلت أنت صريحاً جدّاً وهذا أمر يسرّني.

- هل نمتِ ليلة أمس؟

- امممم، نمت قليلاً، لكن لماذا تسأل؟

- كنت أراك من بعيد وأنتِ تتقلّبين في فراشك، بينما هو بجانبك يغط بالنوم، وصوت شخيره يملأ الغرفة!

- اللّعنة عليك.

كلمات مستفزة أعادتني إلى نقطة الصفر، إلى تلك الأحاسيس التي غادرتني منذ زمن بعيد، أحاسيس ظننتها لن تعود مرّة أخرى، وإذا بها تطلّ برأسها كأفعى في هذا الوقت المتأخّر من العمر!

نحن نكبر عندما نفقد الأشياء التي نحبّها أكثر منّا، ثم نعود أطفالاً صغاراً ما إن نلمحها من بعيد، وهي في طريقها إلينا.

ما العيب أن نعود أطفالاً نرتكب الحماقات نفسها، لكن بطريقة أكثر موضوعية، نحن الذين مللنا تكرار كلّ شيء من أحداث وتصرّفات ومظاهر وأقنعة.

"الطيش نعمة كبرى يا ليلى"

أليست هذه كلماتك؟

كاد طيشي يومها أن يتسبّب بحرب أهلية وأخرى إسرائيلية، ليلتها لم أستطع تمالك نفسي، اشتقت لك بطريقة مفاجئة، ثلاثة أيام كانت قد مرت على عودتكَ من بيروت بعد حادثة الاغتيال الفاشلة التي تعرّضتَ لها هناك.

أليس غريباً أن تقرّر قضاء فترة نقاهتك عندنا في القرية حيث الاحتلال يحاصرنا من ثلاث جهات، ويتمركز في الجهة الرابعة؟! أكانت بيروت في ذلك الوقت أشدّ خطراً عليك من الجنوب؟ أم أن العدو الإسرائيلي هو من كان أقل غدراً من أبناء الوطن الذين خطّطوا لاغتيالك؟ في تلك الليلة تسلّلت من غرفتنا بعد منتصف الليل، لأذهب إليك على ضوء القمر، كلّ أعمدة الإنارة معطلّة، الطرقات خالية من الناس، حتى من الكلاب والقطط.

لم أفكر بأمّي التي ربّما تستيقظ فجأة وتجد فراشي خالياً، وربما ترتفع نسبة السكر حين تبحث عني ولا تجدني، لم أفكّر

بهذا الأمر بتاتاً، فشوقي إليك في تلك الليلة عطّل كلّ أجهزة التركيز عندي، كنت أفكر بك وحدك!

أفكّر كيف سألتقيك بعيداً عن زحمة الزوّار والمهنئين بسلامتك، لا أعلم لماذا كان لديّ يقين بأنّك ستشعر بوجودي ما إن أصل لمحاذاة منزلك، وأقف أراقبه من بعيد كاللصوص، كانت المرّة الأولى التي أتجرّأ فيها على زيارتك في منزلك، لم أكن أعلم أن لديك كلاب حراسة عند مدخل المنزل، ما إن اقتربت منه حتى بدأت بالنباح عليّ، أخافتني كلابك كثيراً، وضعتني في موقف محرج كاد يتسبّب لي بفضيحة، اختبأتُ منها خلف سيارتك الرانج الحديثة، ومع هذا لم تتوقّف عن النباح لحظات وخرج أحد مرافقيك ليطلق الرصاص في الهواء، ارتعبت أكثر فأكثر...

- من هناك؟

صاح حارسك الشخصي، وأكمل إفراغ مخزن الرصاص، بينما حبست أنا أنفاسي، والكلاب تكمل نباحها. خرجتَ أنت لتستفسر عن الأمر، فكدت أقع أرضاً ما إن سمعت صوتك، فأنت لا تعلم كم اشتقت إليك!

- شو القصة؟ شو في؟

تساءلتَ باستغراب من دون أن تشعر بوجودي، بينما أصوات الرصاص بدأت تُسمع من بعيد، وبدأ صوتها يقترب

شيئاً فشيئاً، فعاد حارسك، وأطلق الرصاص باتجاه مصدر الصوت، ثم قال لك بشيء من الارتباك:

"في شي مش طبيعي بالضيعة، خليك أنت هون مولانا، أنا رايح شوف شو القصة"، تنفسّتُ الصعداء ما إن غادر المكان، وما إن غاب حتى مددت رأسي من خلف السيارة، وناديتك بينما كنت تهمّ بالدخول:

- بست

لم تسمعني من المرّة الأولى بسبب أصوات الرصاص والنباح وتابعت الدخول، فناديتك مجدداً:

- شيخ علي، هيدي أنا ليلى.

ما إن سمعت صوتي حتى أسرعت إليّ، بدوتَ مرتبكاً جداً، وأنت تقول لي:

- شو جابك بنص هالليل لهون؟

أجبتك ببرودة أعصاب على الرغم من أنّها ليست عادتي:

- اشتقتلك.

جررتني من يدي وأدخلتني معك وأنت تقول لي:

- حدا بيعمل عملتك يا مجنونة، ولعت الضيعة بالرصاص بسببك، وبينما كانت القرية تشتعل بالرصاص، كنت أنا وأنت نعمل على إطفاء تلك الحمم التي بداخلنا. أنت أيضاً اشتقت لي. كان ذلك واضحاً وأنت تعصرني بيديك كعنقود عنب، وفمك

يُطبق على شفتي ككمّادة تبرد شوقي الذي ادّخرتُه لك على مدى عشرين يوماً.

رحت أقبّلّك بنهم، وأنا أقف على أطراف أصابعي لقصر قامتي أمام علوّك الشاهق، بينما تهمس لي بأنّك مجنون بي ما إن يلامس شحمة أذني فمك الحاضر على الدوام لإشعالي أكثر فأكثر!

نتصرّف وكأنّنا وحدنا في هذا الكون، نخلع ملابسنا كما في كلّ مرّة، ونمارس هواية الحب بدرجته القصوى، من دون أن نراعي وجود زوجتك في الغرفة المجاورة.

زوجتك التي لا تعرف شيئاً عن الحب، لو كانت تعرف لما كُنت أحببتني بدلاً عنها، ولما كنت تجرأت على تقبيلي بنهم على بعد أمتارٍ من سريرها البارد؟

أطفأنا تلك النيران على عجلة من أمرنا.

ثمّة صرخات لا يتسع الوقت لها، لذا علينا اختصارها بقُبلة مستعجلة، والقليل من الجنون الذي لا يقبل التأجيل.

أفرغنا بعض الذي بداخلنا، بعدها خرجتَ بي لتطلب مني أن أصعد بسيارتك القديمة. سلكت طريقاً فرعياً للقرية وسط إطلاق نار كثيف. الكل يُطلق النار، ولا أحد يعلم لماذا يطلقه.

مرّت تلك الليلة بسلام، لنستيقظ بعدها على كومة من الإشاعات؛

- حاولوا اغتيال الشيخ علي مجدداً ليلة أمس.

- إصبع الاتهام تشير لحركة أمل.

- ربّما تكون فصائل فلسطينية هي من حاولت اغتياله، بسبب معارضته لعملياتها العسكرية في الجنوب.

- إسرائيل تقصف أطراف القرية، وحزب الله يستنفر أمنياً وينصب صواريخ الكاتيوشا في إحدى الأراضي الزراعية تحسّباً لقصفٍ إسرائيلي ربّما يطال المدنيين بداخلها.

- توتّر ملحوظ بين عناصر حركة أمل وعناصر حزب الله والكل يضع يده على الزناد.

- أهالي القرية يترقّبون بقلق شديد الأحداث المتسارعة، وكل منهم يتنبّأ على مزاجه الخاص.

في تلك الليلة، كان شوقي لك يفوق كلّ تلك الأحداث التي تسبّبت بها زيارتي لمنزلك، يفوق نباح الكلاب والبنادق والمليشيات وقوات الاحتلال، يفوق الحرب بكل تفاصيلها ووقائعها اليومية، كيف يتسبب شوقنا لأحدهم بشبه حرب؟!

ليس الشوق إلّا إعلاناً مبطّناً يُنذر بحدوث حربٍ تلوح في الأفق، يأخذك الطيش أحياناً إلى أماكن لا يمكن لك أن تعود منها، يرتّب لك صُدَفاً غريبة ما كانت لتحدث لولا طيشك ذلك.

في تلك الليلة، أيقنت أنّ الأحداث الكبيرة، وربّما الحروب والتصفيات، لا تحتاج إلى الكثير من التخطيط والتعقيد، قليل من الطيش يكفي لحدوثها.

كنتَ تتحول لطفل صغير حين أتصرّف أمامك بولدنة، لطالما ضربتَ بهيبة عمامتك عرضَ الحائط لتتقاسم معي تلك اللحظات المليئة بالطيش، والتي لا تخلوا من التهوّر، ثم تنشغل بعدها بترقيع أخطائي الفادحة.

قالت لي أمّي يومها:

- لا بدّ أنّ الشيخ علي يزعج الكثيرين كي يحاولوا اغتياله للمرّة الثانية في غضون شهر واحد.

مسكينة أمي! كان ذلك اليوم نهاراً أمنياً بامتياز، نهاراً مليئاً بالتكهّنات والإشاعات التي لا يعلم حقيقتها غيري أنا وأنت!

وضعتك حينها في موقف محرج، وكان أمامك مهمّة غاية في الصعوبة، وهي كيف ستنزع فتيل التوتّر بين حركة أمل وحزب الله، خاصة وأنّك المعني المباشر بهذا التوتر؟ لذا استحدثتَ مكتباً للشكاوى مهمته فض الخلافات بين عناصر حركة أمل وعناصر حزب الله يديره بعض المسؤولين من الطرفين، منذ ذلك الوقت أصبحتَ الرجل التوافقي لجمهور حركة أمل وحزب الله.

ليس ذلك فحسب، كلّ قلوب أهل القرية صارت تلهج لك بالدعاء طوال الوقت، وكان استحداث ذلك المكتب المشترك هو بمثابة إغلاق الباب نهائياً بوجه أي خلاف عسكري بين آل البيت الواحد في القرية.

"يا إلهي! كيف لتصرّف عفوي قمت به عن طيش أن يرفع مكانة الشيخ علي في القرية إلى هذا الحد؟" طالما ردّدْتُ ذلك في سري، وأنا أراقب كم التغيرات التي حدثت.

الكل بات يستشيرك، والكل يخاف عليك ويدعو لك، والكل لا يعلم ماذا حدث حتى تحوّلتَ بين ليلة وضحاها إلى ما يشبه القدّيس، أو أحد الأئمة!

منذ ذلك اليوم وأنا أفتخر بعملي البطولي، وبموجة الشوق الحارّة تلك التي اجتاحتني رغماً عني! هي أحداث صغيرة جداً، تجعل منك بطلاً أمام نفسك، وتجعل من غيرك بطلاً أمام الجميع!

صرت أمرّ من أمام ذلك المكتب الذي استحدثته وأنا أشعر بكثير من الفخر، أنظر لعناصره الذين يشربون الشاي بجانبه ويفترشون أسلحتهم أرضاً بشيء من الفوقية. ألستُ أنا من وضع حدّاً لخلافاتهم التي لا تنتهي؟ أليس حبي لشيخهم هو السبب المباشر لافتعال تلك الأزمة التي كادت أن تشعل معركة جديدة بين آل البيت الواحد؟ ألستُ أنا من افتعلها، وحبيبي من قام بإخمادها إلى غير رجعة، ومن ثم حصد نتائجها المربحة!

تلك الأشياء التي نقوم بها فجأة من دون أي تحضير مسبق هي الأشياء التي يجب أن نعوّل عليها.

تلك الأشياء التي لا نقيّدها بالأسئلة النمطية هي بؤرة المفاجآت الجميلة. لو كنتُ فكّرتُ للحظة واحدة -قبل خروجي

من المنزل في منتصف الليل لزيارة رجل دين خارج للتوّ من محاولة اغتيال- بنتائج ما قد يحدث، لما كنت خطوت خارج باب غرفتنا خطوة واحدة.

لو كنت فكّرت بالعواقب التي كانت ستنهال فوق رأسي فيما لو اكتشفتْ زوجتُه أمري لما كنتُ تجرأتُ حتى على التفكير في الأمر!

قلت لك مازحة فيما بعد:

- أخبر كلابك بأنّي حبيبتك، وألّا يستقبلوني بالنباح في المرّة القادمة.

- أيتها المجنونة! وهل تفكرين بزيارتي مرة أخرى؟

- ولمَ لا؟ هل يزعجك ذلك؟

- لا، لكنّني أخاف عليكِ، دائما المرّة الأولى تكون استثنائية، أما المرّات التي تليها فربّما تكون بعكس ذلك تماماً.

- أمممم، حسناً، لا أحب التفكير في الأشياء مسبقاً.

ربّما أدركتَ بعد تلك الحادثة أنّك مغرم بطفلة صغيرة، لا تملك حنكة الكبار، لذا كان عليك نفخي أكثر، وكان عليّ أن أطيع سماحتك كعادتي في كلّ مرّة.

أن تمتلك الشجاعة لتجرّبَ الأشياء للمرّة الأولى يعني أن تمتلك موهبة المغامرة من دون الالتفات إلى ما حولك من المحظورات والممنوعات والخطوط الحمراء.

يعني أنّك قوي بما فيه الكفاية كي تدوس على هشاشتك بكل ما تملك من إمكانيات حسية، كنت تظنّها في لحظة ما بلا قيمة، وإذ بها سندك الوحيد وسط كلّ هذا الخوف والتردّد!

يا عبااااااس

لأوّل مرّة كانت أمّي تقطع منقوشة الزعتر لنصفين، هي التي اعتادت أن تتناولها بالكامل كلّ صباح كوجبة رئيسية، منذ أن بدأ الشيخ علي بدفع زكاة الخُمس لنا.

"أنتم والجنوب ومناقيش الزعتر أكثر ما أحب في هذه الحياة..." هكذا كانت تقول لنا، أشعلت سيجارتها الونستون ولاذت بالصمت كعادتها.

منذ أن وعيت على أمي، وهي تدخّن السجائر بصمت، وكأنّها تؤدي عبادة ما، لم يخطر ببالي يوماً أن أسألها لماذا تصمت فجأة ما إن تشعل سيجارتها، ثم تعود للحديث ما إن تطفئ (الزرزور) في المنفضة، لكنَّني حين أدمنتُ تناول السجائر وجدتُني أفعل مثلها.

ثمة لذَة للصمت لا يمكن أن تشعر بها إلا وأنت تمارس عادة من عاداتك السيئة، وكأنّك تعتذر لنفسك لإدمانك متعة تلك العادات. قبل أن تنهي أمّي سيجارتها تلك يطرق أحدهم الباب، لم نغلق باب منزلنا الحديدي يوماً، لطالما أبقيناه مواربأً، كنّا مجبرين على فعل ذلك عندما كنّا لا نملك ثمن إصلاحه، وهكذا اعتدنا عليه مع مرور الوقت.

ثلاثة رجال من حركة أمل، دخلوا ببدلاتهم العسكرية وأسلحتهم فوق أكتافهم، أطفأت أمّي سيجارتها كي تتمكّن من الترحيب بهم، طالبة مني أن أعُدّ لهم الشاي، تذكّرتُ أن أحدهم كان قد زار عباس من قبل، سألته وأنا أبتسم له:

- ألستَ صديق عباس؟

- نعم...أنا صديق عباس رحمه الله!

قسمتنا تلك الكلمات إلى شطرين أنا وأمي، رحنا نتأمّل بعضنا، وكأنّ كلّ واحدة منّا تقول للأخرى: "لا تصدقيه إنّه يكذب، فأمثال عباس لا يموتون."

- للأسف لقد تمّ اغتياله أمس في بيروت، والقادة في حركة أمل قرّروا دفنه في روضة الشهداء هناك.

قالها لنا ذلك المليشياوي كما لو أنّها جملة عادية! أشعلت أمّي سيجارة أخرى، وقبل أن تسحب منها غابت عن الوعي. مفجع موت الحبيب، مفجع جداً! وكأنّ أحدهم انتزع الضوء من إحدى عينيّ، فصرت أنا وأمّي نرى بعين واحدة.

رحت أصرخ، وأسب، وألعن كلّ شيء حتى شعرت بالتعب، بينما راح أخوتي الصغار يبكون حول أمّي التي أضربت عن الكلام. حضر الشيخ علي في تلك اللحظات، قال إنّه علِم باستشهاد عباس منذ ساعات.

راح يحدّثنا كواعظ عن منزلة الشهداء في الجنة وعن القصور التي جُهزت لاستقبالهم، وعن الحوريات اللواتي

سيتزاحمن للفوز بهم، وراح يعدّد لنا مزايا عباس، وكأنّنا لا نعرفها، وكأنّه لم يكن على خلاف دائم معه، هو الذي كان دائم التشكيك بنهج حركة أمل، ومصير قتلاها، وكأنّه هو المسؤول المباشر عن منح تأشيرات الدخول للجنّة!

طلب منّا مرافقته لبيروت لحضور مراسم التشييع.

مشينا خلفه أنا وأمي، ضيّقاً كان الطريق إليه، ضيقاً جدّاً، وكأنّه قبر معلق بين ضلعين. عندما تقتحمك المصائب فجأة، تفتح الذلكرة جرحها ليبدأ نزيفها الداخلي. جلست إلى جانب أمّي في المقعد الخلفي، أسند رأسي إلى صدرها المتعب من الصمت والتدخين، أستمع بداخله لصوت عباس، وهو يقول لها مازحاً:

"إحكي الصدق، مين بتحبي أكتر، أنا ولا سيجارة الونستون؟

- فشر الدخان؛ "تجيبه ضاحكة."

لا أذكر كم من السجائر ابتعلت أمي، ونحن في طريقنا لوداع جثة عباس، كنا كمن يحمل أطناناً من الحزن، كمن يجرّ خلفه ألف عربة محمّلة بالدموع شديدة الملوحة! إن أكبر فاجعة يمكن أن تمرّ بها في هذا العالم هي أن تذهب بملء إرادتك لرؤية من تحب للمرّة الأخيرة. ذلك اليتم الذي لم أشعر به يوماً اجتاحني فجأة، وأنا أفكر بوجه عباس الذي لن يضحك بعد اليوم! عندما كان يضحك، كنت أشعر بأنّ الساعات المقبلة التي ستلي ضحكته تلك ستحمل لنا الكثير من البشائر الجميلة، كانت ضحكته منشِّطاً فعّالاً وسحريّاً للأمل الذي

بداخلنا، وعندما أنزعج من أمر ما، كنت أطلب منه أن يضحك قليلاً كي أضحك أنا بعده:

"ربتا تؤبرني هالضحكة"

لا أصدق أني لن أقولها له بعد اليوم، لا أصدق أن قبره سيكون بعيداً عنّا إلى هذا الحد! حتى المقابر لها درجاتها ونزلاؤها. لا أعلم لماذا وافقنا أن يُدفن عباس في بيروت؟ ولماذا شعرنا بكل هذا الفخر عندما علمنا بأنّه سيدفن بروضة الشهداء؟

علمنا فيما بعد أن من قرّر دفنه هناك هو الحاج داوود الذي قيل إنّ اغتيال عباس كان بمثابة رسالة غير مباشرة له، وذلك لأنّه كان أحد المحسوبين عليه.

عندما وصلنا بيروت استقبلنا بعضُ عناصر الحركة، قال لنا أحدهم قبل أن يكشف عن وجه أخي:

- اطمئنوا، عباس بخير، ليس هناك أي تشوه في جثته، هي طلقة واحدة في الرأس ولا أثر غيرها! قال لنا تلك الكلمات بكل أريحية وكأنّه يحكي لنا نكتةً سخيفة! ثمّة دموع تهينها عندما تسمح لها بالسقوط، عليك أن تبقها مرفوعة الرأس في عينيك حفاظاً على كرامتها، ثمّة حزن لا يليق به أن تخرجه من مسقط رأسه لتعرضه للفرجة، عليك أن تبقيه مختبئاً هناك، في أكثر الأماكن ظلمة فيك، كي لا يراه أحد فتصبح أنت وحزنك مثيرَين للشفقة.

أي وطن فاجر ذلك الذي يتفرّج على أبنائه وهم يقتلون بعضهم البعض، وعندما يأوون إلى الموت تُلّف جثثهم بأعلام حزبية، لا أرزة فيها ولا لبنان؟

أي وطن ذلك الذي تُباع كاتمات الصوت على بسطاته كما لو أنّها جرزة من الفجل أو البقدونس؟ تفاجأتُ أنا وأمّي أثناء التشييع أننا لا نملك ولا صورة فوتوغرافية واحدة لعباس لنحملها له في جنازته، كيف نسي عباس أن يرسم نفسه، أو أن يترك لنا صورة للذكرى؟ أي حزن يليق بنا ونحن نبحث لعباس عن صورة لنرفعها له بوجه الموت، وبوجه كلّ هذا الحزن!

عندما بدأ موكب التشييع تفاجأنا بفتاة بيروتية مكلّلة بالسواد تحتضن صورة له، وقد تورّمت عيناها من كثرة البكاء.

كضرير وجد إحدى عينيه بالصدفة، اقتربتُ منها على عجل لأنتزع منها الصورة:

- هذه صورة أخي هل لكِ أن تعطيني إياها؟

- هذه صورة حبيبي، وأنا من قمت بتصويره، ولا أملك غيرها!

أذكر أنّه قال لي يوماً إنّه لن يغرم إلا بفتاة سمراء اللون، هذه حبيبته إذاً! لطالما كان وفيّاً لأمنياته، وها هي سمراؤه تسير إلى جانبي نحو قبره.

قليل من الفرح تسرّب إلى داخلي وأنا أجهش بالبكاء، فرحتُ لأنّ عباس كان يعيش قصة حبّ قبل اغتياله، وربّما اغتالوه وهو يحلم بحبيبته التي تحمل صورته الآن، ثمّة حزن يخفّف عنك

حزناً أخر، ثمّة مفاجآت جميلة تأتيك وأنت في ذروة الفجيعة، في تلك اللحظات لا أعلم من منّا كانت أكثر حزناً عليه، أنا أم هي؟ هي التي حالفها الحظ ليترك لها صورة؟ أم أنا التي ترك لي آلاف الصور في ذاكرتي ورحل؟ عندما بدأوا بدفنه راحت تلك السمراء تصرخ وتنوح بأعلى صوتها، بينما وقفت أنا وأمّي نصرخ بصمت وكأنّ أحدهم انتزع منّا حنجرتَينا كي لا نتمكّن من الصراخ بصوت عالٍ. انتبهت أنّ المكان مزدحم جدّاً.

من أين جاء كلّ هؤلاء؟ ومن منهم قتل عباس؟

الجميع متنّكر بالحزن، وجوه لا نعرف عنها شيئاً، الكل ملتحٍ، والكثيرون جاؤوا ببدلاتهم العسكرية.

تكدّستِ المليشياتُ في جنازة أخي، عمائم سوداء وبيضاء، رايات نلمحها للمرة الأولى، وحدها صورة عباس هي الحقيقة الوحيدة التي نعرفها وسط كلّ هؤلاء المجهولين. أحد قادة حركة أمل راح يتحدّث عنه بنبرة خطابية! وماذا يعرف عن مزاياه ليتحدّث عنه؟

هل يعلم ذلك الذي يلوك بحنكه الكثير من الكلمات الفضفاضة أنّ أخي لم يكن يجيد حمل السلاح منذ نعومة أظفاره كما يدّعي، وأنّ هوايته الوحيدة كانت رسم العصافير على جدران بيوت الفقراء، وليس الدفاع عن حركة أمل، وأنّه لم يكن يوماً بطلاً كما يقول، كان شابّاً صغير الحجم يبلغ من العمر تسعة عشر عاماً، وفي كثير من الأوقات كان يتحوّل لأراكوز ينثر

الضحك حولنا أنا وأمّي وأخوتي الصغار؟ هل يعلم شيئاً عن تلك النافذة التي رسمها قبل أن يسرقوه منا إلى غير رجعة؟

يكذبون علينا ونحن أحياء، وعندما نُقتل يؤلّفون عنّا الأكاذيب، ويلصقون بنا التّهم الوطنية! نحن البسطاء بجدارة إلى حدٍّ لا يُطاق، الذين نصدّق كلّ ما يقولونه لنا وعنّا، نحن الأرقام الاحتياطية نموت بدلاً عن الآخرين، نُستخدمُ كحجّةٍ لخلط الأوراق السياسية والنقدية والدينية!

نحن القوائم السوداء في المطارات، وعلى شاشات التلفزة المتحضّرة، والسلعة الرابحة للقضايا الخاسرة! نحن حشوات الرصاص الفارغة، ومتاريس الحرب التي تقلب الموازين، ثمَّ تنقلب علينا! لا أبطال حقيقيين في هذه البلاد، فالهزائم هي من تصنع الأبطال، وهؤلاء لا يعترفون بهزائمهم أمامنا، إنها لعبة الانتصارات الوهمية يا شقيق الفقر والهزائم.

هؤلاء الذين يمارسون البكاء حول قبر أخي بكروشهم المنتفخة، ولحاهم المتطاولة على الدين، وأحذيتهم المارينزية التي تدوس كلّ شيء من أجل البقاء.

هؤلاء! أين هم أبناؤهم الآن؟ في أي خمّارة من خمّارات بيروت يلهون مع عاهراتهم، بينما جثّة عباس تختنق تحت التراب! خنقَتْكَ بيروت أيها العصفور الجنوبي! قتلتْكَ لأنّك لم تحبّها يوماً؟ لطالما قلتَ لنا: "بيروت خنقة، الفوتة عالجنوب بتّرد الروح."

الجنوب مسقط رأسك، ومسقط كلّ العصافير التي كنت تدمن رسمها على جدران بيوت الجنوبيين، أنت الذي كنت تزقزق فيه وتقول: "كنت أتمنى لو خلقني الله عصفوراً بني اللون!"

تفتقدك الأشياء يا نور عيني، حتى الأشياء التي لم تحظَ بشرف التعرّف عليك، أحَبَّكَ الموتُ أكثر من الحياة بكثير، لذا اختارَ لك طريقة كلاسيكية حين قرّر إبعادك عنّا، تلك الطريقة التي يتعامل بها مع الجواسيس العالميين حين يقتلهم بصمت مطبق، بينما استكثرتْ عليك الحياةُ أبسطَ الحقوق؛ استكثرت أن تتحمّلَ عبء بقائك فيها!

عند قبرك ذلك، وقفتُ أستعّد لقبول فكرة الحياة من دونك، أمّي غابت عن وعيها حسرةً عليك، وكذلك حبيبتك، وحدي بقيت قربك أرفض الوقوع أرضاً لئلّا يشمتَ الموتُ بي! جلستُ إلى قبرك وحيدةً كرأس الحسين، مفجوعةً كأخته زينب، أبحث بين الجموع عن قاتلك، ولا أعلم عدوي من صديقي.

عباس: يا أجمل نوافذنا الخضراء، من سيرسم لنا النوافذ وقد أخذت معك كلّ الألوان الجميلة؟ يا زقزقة العصافير على جدران الفقراء، من سيطعم العصافير كلّ صباح كي لا تموت جوعاً؟ يا حسيني، وعليّ، وذو فقاري: قتلتْكَ شيعتُكَ يا كلّ شيعتي!

كيف تجرّؤوا على حشوك بالرصاص وأنت المكتظُّ بالضحكات والألوان؟ ضحكاتك التي كنتُ أتقاسمُها معكَ على أتفه الأسباب، ضحكتُك التي أورثتني الأمل، وحب العصافير ما زالت ترّن في قلبي! كنتَ وما زلتَ أحد عُقدي التي لا أريد التخلّص منها.

منذ أشهر أحضر لي زوجي بعض العصافير التي تمّ صيدها ثم طلب مني تنظيفها للشواء صرخت في وجهه:

- كيف تقتل عصفوراً، وتحضره إليّ كي أشويه؟

ضحكَ يومها:

- وبماذا يختلف لحم العصفور عن لحم الدجاج والخراف التي تأكلينهما؟

- العصافير خُلقت للطيران، وليس للقتل والشواء!

هذا ما تعلّمته منك، فعشقك للعصافير لم يكن تعاطفاً مع ذلك الكائن الصغير المسالم! عشقك لها كان أعمق من ذلك بكثير، كان لمساحة حريتها التي لم تكن تملك منها سوى بعض الألوان والجدران وتلك النافذة الخضراء التي لم يعبرها الهواء يوماً.

ألهذا كنت تصرّ على رسمها على بيوت الفقراء، أكنت تدرك أنّهم أكثر الناس شوقاً للطيران؟ كان لديك طريقة مدهشة في تفكيك الألم، وتحويله إلى ضحكات صغيرات الحجم، كانت

أحاديثك الساخرة بمثابة صدمة كهربائية تنعش الفرح بداخلنا، فيخرج على هيئة فقاعات بلورية اللون!

كيف أنسى شجاراتنا السخيفة التي كانت دائماً تنتهي بعاصفة من الضحك؟

- "الأغنياء لا يملكون نفس الميزات التي نملكها نحن، وبالتالي هم لا يقومون بالأشياء التي نقوم بها، فمثلاً: هم لا يدخلون الحمام، ويتبولون مثلنا، ولا يصدرون ريحاً كما نفعل نحن، لا بدّ أنّ الله خلق لهم طريقةً أخرى أكثر "إتيكيتاً"، حتى أنَّهم لا يصدرون شخيراً أثناء النوم كما نفعل نحن، ولا يمصّون عظام الدجاج، ويطهون بعض أمعائه كما تفعل أمّي وبقية الجيران، ولا ينتزعون بقايا الطعام الذي بين أسنانهم بأصابعهم ثم يأكلونها من جديد، هم مختلفون عنّا بالتأكيد، وإلّا لما كان الله خلقنا فقراء بينما خلقهم هم أغنياء"

أضحكتني براءتك يومها، أضحكتني جداً، ثمّ انتقلتْ عدوى الضحك إليك، فرحتَ تضحك كمهرّج، رنة ضحكتك وأنا أقف عند قبرك في روضة الشهداء تزيد من حرقة قلبي عليك.

اكتشفت للتوّ أنّ الموت ليس بهذه القسوة كما يُشاع عنه، وأنّ القسوة ليست إلّا الجزء المفضوح منه، وأنّ هناك جزءاً يفوق القسوة بكثير، ذلك الجزء الذي يستفز فينا الضحك بطريقة ساخرة كما لو أنّنا نضحك على نكتة سوقية!

وأنا منشغلة بموتك، اقترب مني الشيخ علي ليسألني:

- ما بكِ؟

أجهشت بالضحك أكثر لسخف سؤاله.

أمسكني من كتفي ليبعدني عنك، لكنَّني أصرّيت على البقاء. ذلك الأحمق يستكثر عليّ أن أشاركك السهرة هذه الليلة، يقول إن الليل على وشك الوصول، يحاول إبعادي عن قبرك، وكأنّك لست أخي الذي كنت أتشارك معه كلّ شيء، منقوشة الزعتر وكأس الماء والحذاء نفسه، وفرشاة الأسنان الوحيدة في الغرفة، وتلك المنشفة المهترئة...، ذلك الأحمق يستكثر علي أن أشاركك ليلتك الأولى مع الموت، أنا التي شاركتك كلّ الحياة. كنت سأطرح عليك بعض الأسئلة ليطمئن قلبي المفجوع فحسب، كنت سأسألك مثلاً:

هل القبر أكثر عتمة أم غرفة أمّي التي كنتَ تصفها بالقبر؟

هل لك أن ترسم نافذة لهذا القبر كما فعلت في غرفتنا؟

هل لك أن تتحوّل ولو لمرّة واحدة لعصفور بنّيٍّ كما كنت تحلم، وتخترق تلك النافذة، وتطير إلينا من جديد، ومن ثم تعتذر من الله على ما فعلت؟ هل لك بذلك يا نور عيني؟

غادرتُ قبرَك على أمل أن أعود في الصباح، سأصلي الفجر، وأعود إليك كي نكمل الضحك. أصرّت حبيبتك أن نرافقها أنا وأمّي إلى منزلها، لكنّ الشيخ عليّاً أصرّ أن يصطحبنا إلى شقته في بيروت.

أوصلنا إلى شقته، وذهب ليحضر لنا الطعام، وقبل أن يعود كانت أمّي تغط بنوم عميق بعد تناولها لحبة المهدّئ التي أعطتْها إياها حبيبةُ أخي.

أخبرني الشيخ علي فيما بعد أنّ هذه الشقة مخصصّة للاجتماعات الحزبية، وأنّها ليست ملكاً له، كان الحزب قد استولى عليها في الحرب بعد اتهام صاحبها بالعمالة لإسرائيل. كنتُ جائعةً جداً ومع هذا لم أتناول أي شيء من الطعام.

"تبدين جميلة أكثر من أي وقت مضى"؛ قالها، ثم قام فجأة وجرّني بيده إلى الحمام، أوقفني تحت رشاش الماء، وراح ينزع عني ملابسي ثم بدأ بتحميمي، وكأنّه أراد غسلي من درن الحزن، مثل لعبةٍ راح يفرك جسدي المالح من دون أي اعتبار لأمّي التي تغطُّ بالنوم في إحدى الغرف.

شعور داخلي لا يمكن ترجمته، إذ كيف للحزن والحب أن يجتمعا سويّةً في لحظة كهذه، ويُحدثا كلّ هذا الجنون تحت بذخ الماء؟

حملني عارية بين يديه، تفاجأت أن الحمّام يطل على غرفة نوم أخرى غير تلك التي تنام فيها أمّي "لون عينيك أفتح من قبل، تبدين أجمل من أي وقت"

كنت أستمع له بدهشة وهو يتغزّل بي، وقفت أمام المرآة عارية، بينما فتح هو باب الخزانة وتناول منها روب نوم شفاف

توتيّ اللون وألبسني إياه، بدوت مثيرة في ذلك الروب الذي أجهل كم من الفتيات ارتدينه قبلي، رحت أتأمّل نفسي في المرآة:

- يا إلهي! أين تلك الفتاة المفجوعة التي كانت تبكي أخاها قبل قليل؟

الفرح خدعة عابرة، كان عليّ أن أخدع نفسي بقليل من الفرح معه...

- أريدكِ أن ترقصي، ليس من أجلي، من أجلكِ أنتِ.

- وماذا عن أمي؟

- لن تستيقظ وسط كلّ هذا الضجيج، فكما ترين، بيروت في مثل هذا الوقت لا تهدأ.

كانت بيروت في هذا الوقت تعج بالحياة على الرغم من الحرب!

مولّدات الكهرباء، وزمامير السيّارات، وأصوات الرصاص الذي لا يهدأ، وغيرها وغيرها... أدار صوت المسجّل على إحدى الأغاني الراقصة، وخلع ملابسه، وتمدّد على السرير كإمبراطور، بينما رحت أنا أتمايل لي وله، والحزن يتمايل معي.

كنت ألمح الحزن بنظرات الشيخ علي على الرغم من تظاهره بعكس ذلك، وكأنّه كان ينتزع الفرح من داخله كي يداري به حزنه عليّ! كانت المرّة الأولى التي أشعر بها بأنّه ليس مهتمّاً بجسدي على الرغم من كلّ الإيحاءات التي تدّل على ذلك.

كان يشاركني حزني فقط، وكان جسدي خارج مزايداته الدينية؛ في تلك اللحظات، كنّا نمارس الحب بعيداً عن الجنس، ونمارس معه كلّ فنون الجنون، يومها شربت الخمر للمرّة الأولى والأخيرة في حياتي، ومع ذلك لم أنسَ عباس!

للموت هيبته، وللحزن أيضاً، تشعر وكأنّهما يفصِلانك عن بعضك البعض، لذا فأنت تستسلم بكامل ضعفك لمن يُحسن إعادة جمعك من جديد.

لم يترك الشيخ علي في تلك الليلة طريقة إلّا وجرّبها معي كي أنسى موت عباس، ومع ذلك كنت أتذكره أكثر فأكثر، حتى عندما ثملت رحت أحدّثه عنه.

قال لي إن الحزن سيقتلني إن لم أنتصر عليه، لذا أخرج من الخزانة قارورة صغيرة من الويسكي وطلب مني أن أتذوّقها.

لم أسأله ما هذه؟ شربت القليل منها، شعرت بشيء من الانتعاش لم أشعر به من قبل:

- اشربها كلّها.

شربتها!

أذكر أني ضحكت كثيراً، وهذا ما كان يريده، أن أضحك بقوة:

- أنا الله خلقني حتى إبسطِك

أذكر أنّه قال لي تلك الكلمات قبل أن أفقد الوعي، وعندما استعدته سألته بقلق:

- هل دخلتَ بي؟

- لا، لن أفعلها، لن أضيّع عليّ فرصة سماع صراخك وأنا أدخل بكِ! عندما أفعلها أريدكِ أن تكوني بكامل وعيك!

صدّقته، ليس ذلك فحسب، زاد احترامي له أكثر من قبل "يا إلهي! كان عليّ أن أكون الآن إلى جانب قبر عباس أقرأ له بعض الأدعية والآيات القرآنية لا أن أرقص وأثمل هنا!"

خطر لي أن أسأل الشيخ علي:

- هل تشرب الخمر؟

- لا، لقد اشتريته من أجلكِ أنتِ، هناك حالات استثنائية يجب علينا مراعاتها في الشرع.

- لم أفهم.

- الموضوع لا يحتاج للشرح، لو لم تفقدي وعيَكِ بسبب المشروب لكنتِ فقدتِ عقلكِ من شدة الحزن. نسيت أن أسأله: "متى أحضرت ذلك المشروب، وأنت لم تفارقني منذ مغادرتنا للقريّة؟"

عدتُ وأمّي إلى القرية لأتفاجأ بتلك العصافير التي كان عباس قد رسمها على الجدران مازالت على حالها، تلك العصافير اللئيمة التي لم تحرّك ساكناً لموته، كأنّه ليس هو من رسمها، وفرد لها أجنحتها على أمل أن تطير يوماً.

غصّةٌ بالغةٌ أصابتني في العمق من ردّة فعلها المخزية، تمنّيت لو أنّها تنتفض كلها دفعة واحدة، وتطير إلى بيروت لتثأر لعباس! لتثبتَ له أنّها تبادله الحبَّ.

ما أصعب أن تخذلك الأشياء التي راهنت على أنّها الوحيدة التي ستشاركك المصيبة!

وما أفجع أن يقبض ملك الموت روح أخي، ويترك لنا كلّ هذه العصافير كعقوبة إضافية!

مرَّ وقت طويل حتّى استطعتُ التصالحَ مع وجودها على الكثير من جدران القرية. كان عليَّ إقناعُ نفسي أنّها ربّما تكون مغلوبةً على أمرها هي الأخرى، وأنّ ثمّة سبباً يمنعها من التعبير عن حزنها، ومع هذا ما زلت أحقد عليها، وكأنّها أحد المشاركين في اغتيال عباس.

أحد شباب القرية بعد أن تخلّت عنه حبيبته لفّ كلّ شوارعها، وعلى كلّ جدار كتب: (ك.. أخت الحب)

كتبها كاملة، ولم يحذف حرف السين كما فعلت أنا هنا، يسرني أني ما زلت أملك بعض الحياء.

لم يعترض أحدٌ يومها على تلك الشتيمة، الجميع كان يبتسم لها ويكمل طريقه.

في بلاد لا تجرؤ فيها على شتم الطوائف والمليشيات والأحزاب، يأتي الحب ليكون هو كبش الفداء لكل تلك الأشياء التي وقف لسانُك عاجزاً عن شتمها.

كانت تلك الشتيمة مصدر ابتسامة لنا جميعاً، وخاصة لي أنا، فقد كنت أشعر بالشماتة من تلك العصافير التي تستحق أن تُكتب إلى جانبها عبارة كهذه، بعد هذا الاستهتار منها بموت عباس!

على المقام ذاته أعلو

الحروبُ لا تموت، تقتلنا جميعنا من دون استثناء لتبقى هي على قيد الحياة، تمارس هوايتها في القضاء علينا أحياء وأموات، تقتلنا برؤوسها النووية والمنوية، بخزائن رصاصها وبنوكها السرية، بغرفها المظلمة وساحاتها المفتوحة على كلّ ألوان الموت وأشكاله، تقتلنا بسياسييها، جواسيسها، مخبريها، سجونها، سجانيها، عاهراتها، وبأطرافها المبتورة!

من يقتل الحرب؟ من ينتقم لنا منها؟

لو أنّ الحرب كانت عقيمة مثل جارتنا صفية، لا تنجب لنا حروباً صغيرة؟ ولا تتكاثر كالجراد! لو أنّ الله خلقها بروح واحدة مثلنا نحن البشر، لكان سهّل علينا قتلها بطلقة واحدة. أشعر برغبة شديدة بخنقها بعدما قتلت لي أخي عبّاساً.

أتمنى قتلها والتمثيل بجثتها النتنة، بفصل كلّ رؤوسها النووية عن بعضها البعض، وتحويلها لأعمدة إنارة، وتوزيع تلك الأعمدة بالتساوي على أزقّة الفقراء، لو كانت الحرب امرأة مثلي، لكنت استأصلت لها رحمها المكتظّ بالرصاص والبواريد والعبيد وأذبته بالأسيد، لقطعت لها لسانها الطويل، ومدّدته على طول جراحاتنا، وجعلت منه ممراً آمنا، يعبره كلُّ المحاصرين والملاحقين والهاربين من عدالة قُضاة السوء في الشرق الأوسط،

لفككتُ لها رقبتها، وعمودها الفقري، وصنعتُ منهما أراجيحَ للفقراء، أطفالِهم وعجائزِهم، لبترت لها ساقها. ودستُ بهما على كلّ طغاتنا وقادتنا وميليشياتنا، لنتفت لها شعرها، وصنعت من جدائلها مشانق تلتفُّ حول أعناق المخبرين الذين باعوا الوطن بكل من فيه من أجل كرسيٍّ مائل، لكنتُ أكلتُ كبدَها بدم بارد، كما أكلتْ هندُ كبدَ الحمزة، ولثأرتُ منها لعين أمي، وفقأت لها عينيها الاثنتين بدل الواحدة.

من ينتزع كلّ هذا الحقد من قلوبنا؟

من يستأصل لنا تلك الغرغرينا التي تتفشّى بداخلنا قبل أن نتحوّل لأشرار يصعب تنقيتنا من جديد؟

جوع ونوستولجيا

هذا اليوم لا مزاج لي بالكتابة عنك، ولا لأردّ على رسائلك الصبيانية، أنا مدينة لكَ بكل هذا النضج، بكل هذا الجنون الذي لا يهدأ، بكل هذا الحزن الذي لا يكفّ عن إزعاجي، وبكل هذه الوحدة التي لا تفارقني.

وحيدة هذا الصباح، طيف عباس يلاحقني، ضحكة عماد التي لا تشبه أيّةَ ضحكة أخرى، ورسائلك التي تعيد تأهيل مشاعري من جديد.

وحيدة لدرجة أني لا أشعر بكل هذا الضجيج الذي يحدثه زوجي وأولادي، وهم يشاركونني مائدة الفطور، أوزّع عليهم الابتسامات واحداً تلو الأخر، أناول أحدهم رغيف الخبز، وألّف السندويشة لآخر، وأقشّر البيض المسلوق لزوجي، من دون أي شعور يُذكر، وكأنّني لم أقضِ معهم أكثر من عشرين عاماً! أي شرخٍ هذا الذي تُحْدِثُه الوحدةُ بينك وبين أقرب الناس إليك!؟

كلُّ الأشياء التي أحِبُّها أراها عكس ذلك فقط لأنّها تقف عائقاً بيني وبين تلك الأفكار التي تراودني عن نفسي، أعددْتُ وجبة الغداء التي أحبّها، ولم أتذوّق منها شيئاً، بل على العكس، فجأة شعرت بالعداوة لها، وبأنّي مللتُ تناولها كلّ تلك السنين!

مسلسلي التلفزيوني المفضّل الذي أتشوّق عادةً لمتابعة أحداثه لم أعره أي اهتمام هذا المساء، فجأةً، ومن دون أي سبب مقنع نقمتُ على كلّ الممثّلين فيه، أولئك الذين يتبادلون القبلات من دون أي اعتبار لتلك المعارك التي تدور بداخلي!

ابني الصغير المُدلّل طلب مني قبل ساعة من الآن مساعدته في حل وظيفته المدرسية، فصرخت في وجهه لأوّل مرة!

أيّة فوضى تلك التي تضعضع كلّ أنحائك كما لو أنها حرب داخلية! تحوّلك بين ليلة وضحاها ناكراً للجميل، فتتنكّر لكل الأشياء التي أحببتها وأحبّتك؟

كان الأجدر بك أن تحترم أمومتي على الأقل، أن تُبقي وساوسك بعيدة عني، لا أن تزجَّ بي داخل هذه الوحدة التي لم أعتدها يوماً!

أنا -ومن فرط وحدتي يا شيخي الجليل- أشعر وكأنّي على استعداد لأن أتخلّى عن كلّ هذا الضجيج الذي حولي، فقط من أجل أن أحظى بقبلة منك كتلك التي قبّلتني إياها قبل خمسة وعشرين عاماً!

هذا الفراغ الذي أتدحرج بداخله على مدار الساعة، على الرغم من انشغالي طوال الوقت لأملأه بأيّ شيء مهما كان فارغاً، يُفسد عليّ وظائفي الإنسانية، يجعلها أخفّ تأثيراً من قبل، أنا الآن أمام خيارات عدة، والخيارات يعني أن أتنازل عن شيء أحبه لأحافظ على شيء لا أستطيع التخلّي عنه؛

الخيار الأول: أن أعتذر لقلبي للمرّة الثانية لأني بدأت أحبك من جديد على ما يبدو، سأطلب من هذا القلب المغفّل أن يكّف عن إزعاجي بالتفكير بك طوال الوقت، سأذكّره كم مرة خذلته! سأحدّثه عن عماد الذي كان يحلم بأن ينبض له نبضة واحدة، وعن أخوتي الصغار الذين كانوا يأكلون من عرق جسدي! سأحدّثه عن آل البيت الذين أنجبوا أحفاداً عاقّين مثلنا، يزنون باسمهم، ويقتلون باسمهم، ويخترعون الحروب بحجة الدفاع عن أقفاصهم الذهبية، سأخبره عن منديل أمّي الذي غيّرت له ملامحه، وصنعت منه فستاناً عديم الشرف.

سأحدّث قلبي عن كلّ هذا، وإذا أصرّ على موقفه سألجأ إلى خيار آخر!

خيار لن أفصح عنه الآن، من السابق لأوانه أن ينعتني القرّاء بالزوجة الخائنة، أو الأم التي لا تصلح لحمل لقب عظيم: "الأمومة"

تراودني أفكار شيطانية، أفكار دخيلة عليّ، تؤنّبني نفسي الأمّارة بالسوء كي أتجاهل رسائلك التي تمدّني بالحبّ، وبأشياء أخرى أحبّها!

تتعارك هي وقلبي منذ الصباح، بينما أقف أنا في منتصف المعركة، مرّة أساندها هي، ثم ما ألبث أن أعيد حساباتي، فأساند قلبي ضدها.

كلّما هممتُ بالردّ على رسالة من رسائلك، تقرصني تلك النفس اللعينة من يدي؛

- أيتها الساقطة، خمسة وعشرون عاماً وأنا أهذّبك لحظة بلحظة، ليأتي ذلك الأحمق ويعيد قلبكِ إلى بيت طاعته بهذه السهولة!

يكشّر القلب عن أنيابه ليدافع عن خيانته العظمى:

- دعها وشأنها، خمسة وعشرون عاماً وأنتِ تقدّمين لها المواعظ كراعي أبرشية، أولَم تملّي بعدُ؟

من المؤلم أني أمتلك كلّ أدوات الهرب منك، بينما يصرّ قلبي على الاحتفاظ بك كما لو أنّك واحد من أهم مقتنياته!

بحوزتي ألف سبب لأكرهك، ولم أكرهك يوماً، حتّى عندما افترقتُ عنك، كنت في أوج حبّي لك! تلك الأيّام التي مرّت عليَّ وأنا بعيدةٌ عنك كانت أكثر من مجرّد أيام، كلُّ يومٍ فيها كان أشبه بلصٍّ محترف يسرق مني ما يريده، ويحلف لي بأنّها المرّة الأخيرة، وفي اليوم التالي ينكث وعدَه، ويسرق ما تبقى مني! تلك الأيّام أكلتْني وتقيأتْني، وكأني منتهية الصلاحية! أنا امرأة من مخلّفات الحرب، ومن مخلّفاتك أنت، جافّة كقطعة خردة، رأسي الثقيل ممتلئ بالجثث والحروب والمجازر، وبأطفال حُفاة يهربون من تحت القصف إلى جهة مجهولة وهم يحملون بأيديهم ربطات الخبز خوفاً من الموت جوعاً!

قلبي عاطلٌ عن العمل منذ أن أحلتَه أنت على التقاعد، وذاكرتي مزدحمة بأدّق تفاصيل حبّك، وجسدي يحبو نحو سنِّ اليأس، ترعبه فكرة أنّه تجاوز الأربعين من عمره، ولم يحظَ بطبق من الحلوى الفاخرة "فالجوع طباخ سيِّئ"

ذلك الرجل الذي تزوجت به، نمت إلى جانبه في سرير واحد لأكثر من عشرين عاماً، ولم أحبّه! مرّة كنت أنام فوقه، ومرّة تحته، ومرّات إلى جانبه، أنجبت منه ثلاثة ذكور بعد أن قذف بداخلي ملايين النطف ولم أحبّه، ابتلعتُ لعابه لسنوات كما لو أني أبتلع أقراص الفيتامين التي أكره طعمها، ولم أحبّه، ذلك الرجل الذي تقاسمت معه الحياة على أمل أن أحبَّ الحياةَ، واحتفظت بكل الأشياء التي يحبّها على أمل أن أحبّها، والذي أدمنتُ الكذب عليه حتّى تحوّلت حياتي معه إلى كذبةٍ أعيشها، ذلك الرّجل الذي فعلت كلّ ما في وسعي كي ينبض له قلبي نبضة واحدة، قلبي الذي كان أعند من أن ينفِّذَ لي رغبتي تلك.

كلُّ الأحداث والمعارك والحروب اليومية التي نخوضها بوسعنا التحكم بها، ووضع حدٍّ لجنونها، باستثناء تلك العضلة الصغيرة التي تقبع داخلنا، في ذلك الجزء الأيسر من الصدر!

مَن يدّعونَ فهم الحياة عجزوا عن إخبارنا ما الذي علينا فعله كي نتخلّص من دكتاتورية تلك العضلة؟ كما عجزوا عن اختراع سلاحٍ فعّالٍ نرفعه بوجهها كلّما اقتضتِ الحاجةُ.

ما الذي جاء بك بعد كلّ تلك السنين؟ بعد كلّ هذا الفراق القسري؟

أسئلة عقيمة تتشابك مع بعضها البعض داخل رأسي لتزيد من صداعي! منذ ألقيتَ بقلبي بعيداً عنك والصداع يلازم رأسي.

لم أكن أعلم سبب هذا الصداع الذي تزامن توقيته مع فراقي عنك، إلى أن قرأت بحثاً رائعاً لـ"هيلين فيشر" قالت فيه: إنّ الحب يخفّف من نوبات الصداع، وذلك لأنّ الدماغ أثناء وقوعه في الحب يُفرز مادة الأوكسيتوسين المسؤولة عن هرمون السعادة والتي بدورها تمنحنا الكثير من الهدوء والسلام وتبعدنا عن التوتر الذي يتسبّب لنا بذلك الصداع."

أترى كم كبرت؟ صرت أفهم أشياء كان عصيّاً عليّ فهمها من قبل! أمس قرأت عن: "النوستالجيا" هل تعلم ماذا يعني هذا المصطلح؟

- لا، لكنَّني سمعت عنه.

- هو ما نشعر به الآن أنا وأنت، هو الحنين لماضٍ ذهب، وتركنا هنا وحدنا ننتظر عودته من جهة أخرى غير تلك التي ذهب منها!

- لماذا تصرّين على فلسفة الأشياء؟

- ربما هي عقدة مزمنة، أصابتني منذ زمن بعيد، عندما اكتشفت بأنِّي أعاني نقصاً في الفهم. زوجي ينعتني بالمرأة المعقّدة،

هو لا يعلم أنّك السبب المباشر لكثيرٍ من العُقد التي يصعب فكّها بسهولة.

- تحاولين أن تثبتي لي بأنّكِ نضجتِ فكرياً، لقد وصلني هذا، وأنا أعترف لكِ بأنكِ تتفوقين عليّ بثقافتك، أليس هذا ما تودين الوصول إليه؟

- لا، ليس هذا ما أريده، أنا فقط أحاول أن أوضح لك بأنّي أتفوّق عليك بأشياء كثيرة، وليس بثقافتي فقط، هذا كلّ ما في الأمر.

- ههههه، حسناً، عِديني أن نلتقي، وأعدكِ بأن أعترف لك بأنك تتفوقين علي بكل شيء، ما رأيكِ بهذا العرض؟

"ما نتركه بالمنطق، لا يُفترض أن نعود إليه بالعاطفة"، هذا الكلام ليس لي، إنّه فرويد، لكنّه يتناغم مع طريقة تفكيري.

- تبدين متأثَرة جدّاً بكل ما يقولونه في الغرب!

- نعم، هذا صحيح، تأثّري بالأفكار الغربية يشبه تماماً تأثّركَ بالأفكار الفارسية مع فارق بسيط، الأفكار التي أتبناها لا تحرّضني على قتل أحد كما تفعل أفكارُك، وإلّا لما كنتَ ذهبتَ لتقاتل في سورية! يؤلمني أنّك أحدُ مهندسي المعارك الحربية هناك، كيف تحوّلت من مقاوم إلى مُحتَلٍّ؟

- ليلى، دعينا من هذه الأحاديث، اشتقت لكِ، أمس شعرت بالغيرة عندما قام أحد متابعيك بالثناء عليكِ، حتّى إني كنت سأكتب لكِ تعليقاً على منشورك عن صدام حسين، كيف

تدافعين عن ما تسمينها ثورات الربيع العربي، وبالوقت نفسه تمدحين طاغية كصدام حسين قتل الآلاف من شيعة العراق؟

- لم أمتدحه هو، امتدحت ابتسامته لحظة إعدامه، كانت ابتسامته أشبه بعلامة نصر، لهذا أحببتها، ألم تشاهد تلك الابتسامة؟ كانت جميلة جداً!

- لو رأيتِني كيف كنتُ أبتسم، وأنا أتابع لحظات إعدامه، لكانت أعجبتكِ ابتسامتي أكثر من ابتسامته، يؤلمني أن تغريكِ ابتسامة رجل آخر غيري، حتى لو كانت لرجل ميّت.

- الابتسامات أنانية جداً، تميت أصحابها، وتبقى هي حيّة ترزق، مثلها مثل بقية الأشياء، كصورة مارلين مونرو بفستانها الذي طار منذ عشرات السنين، ومازالت القلوب تطير معه حتى الآن، كصوت باڤاروتي الذي أستمع له الآن وأنا أكتب لك، أنصحك بالاستماع إليه، فصوته أجمل بكثير من صوت الرادود باسم الكربلائي.

- أنتِ لم تكبري فحسب، أنتِ تغيّرتِ كثيراً، لهذا أحبكِ الآن أكثر!

- حسنا، نتكلّم لاحقاً.

- لماذا تهربين إن كنتِ ستعودين؟

- أهرب على أمل أن لا أعود.

- منذ أشهر، وأنتِ تهربين، ثمَّ تعودين، لماذا لا تعترفين بحبكِ لي، هل نسيتِ أني أكثر من يعرفك، مهما كبرتِ، ستظلّين تلك الطفلة التي كانت تحبو فوق أصابعي الخشنة.

- لم تكن يوماً أصابعُك خشنةً، كانت نعومتها تفوق نعومة أصابع النساء!

- ألهذا كنتِ تصابين بالدوار كلّما مرّرتها فوق شفتيكِ، لماذا كنتِ تُغمضين عينيكِ عندما كنت أفعل ذلك؟

- عليك اللعنة!

"وعليّ كلّ اللّعنات، فما زلت أصاب بالدوّار من حديثه، وترتفع درجة حرارتي حدَّ الغليان!"

ما إن أغلقتُ هاتفي بوجه كلماته النارية، حتّى ركضت مسرعة إلى الحمّام، وقفتُ تحت رشاش الماء كما كان قد نصحني منذ زمن بعيد، وعندما تبلّلتُ من الداخل، ارتديتُ طقماً داخلياً من الدانتيل الأسود شبهاً بذلك الذي كان قد أهداني إيّاه وأنا طفلة أتعلّم الحب وأشياء أخرى على يديه!

"إياكِ أن تخوني اللون الأسود يوماً"، كانت تلك وصيته المحببّة إليَّ. وقفت أمام المرآة أتحسّس شفتيّ، تضيء شاشة الهاتف، فأركض إليها كفقير مُعدَمٍ يركض خلف حلمه:

"ما زالت شفتاكِ على حالهما، وكذلك أصابعي، هل تأذنين لي بقبلة؟

رميت الهاتف بعيداً عني وكأنّ ما بداخله جنيٌّ، تناولت روب "الديشمبر"، وسترت به نفسي، شعرت وكأنّ الشيخ عليّاً يختبئ في مكان ما داخل الغرفة، ويتلصّص عليَّ.

أغلقت كلّ شيء، الستائر والباب وعلبة السجائر، قلبت صورة زفافي المعلّقة على الجدار، كي لا يشمّ رائحة حزني بداخلها، وأنا أُزَفُّ لرجلٍ لا أحبّه، أخفيت أقلام الحمرة المكدّسة فوق الطاولة، وأخفيت معها كلّ أدوات التجميل كي لا يشمتَ بي، هو الذي وبّخني يوماً عندما قمتُ بنتف حواجبي قائلاً:

"أريدكِ كما أنت، جميلة من دون مساحيق، من دون عطور اصطناعية، أريدكِ جنوبية على طبيعتك".

كيف أكون طبيعية وأنا على وشك الجنون، أتصرّف وكأنّكَ تشاركني غرفة النوم، أنتبه لأتفه الأشياء التي يمكن لها أن تتواطأ معك، وتؤهّلك للفوز عليَّ؟

أسمع جارتي وهي تنعتُ زوجها بـ"العرصا"، فأغلق النافذة بإحكام كي لا تسخر من جيراني، وتصفهم بالسوقيين.

أُخرج روايةً لكافكا من داخل صندوقٍ تحتَ السرير، أنشغل بها كي أثبتَ لكَ أنّي أصبحت قارئةً عالمية، وأنَّ كُتب الحيض وأحكام النجاسة لم تعد تستهويني!

بالمناسبة، هل تعرف كافكا؟ إنّه أديبٌ من أصول يهوديّة، لكنّه لم يشارك في احتلال فلسطين!

أقول لك هذا كي لا تتّهمني بالخيانة على حبّي لرجل يهودي، هل أذكر لك بعضاً مما كتبه؟ حسناً، دعني أطفئ النور أولاً:

"وحيد أنا بدونك، كالسيجارة الأخيرة في علبة التبغ، لا يخلّصني من وحدتي سوى المحرقة"

"لقد فشلتُ دائماً في أن أكمل غيري، كنتُ فرداً ناقصاً مليئاً بالثقوب، فرداً لا يجيد شيئاً سوى الحبِّ من مسافات بعيدة."

"اعتدْتُ على حلّ المشاكل التي تعترضُني من خلال السماح لها بأن تفترسَني، لم أتخيّل أنّ هذا العدد الهائل من الأيام سيخلق حياةً ضئيلةً كهذه، أشعر بأنّ حياتي مثلُ شارعٍ في فصلِ الخريف، كلّما تمّ تنظيفه عادَ مرةً أخرى ممتلئاً بالأوراق الجافّة الذابلة."

"إنني مرهق، متى سيرى أحدنا الأخر؟"

- ليلى: كفّي عن هذا الحزن، هلاّ أشعلتِ النورَ كي أتعرّف إلى حبيبك كافكا؟

- لقد مات منذ زمن بعيد، مات جوعاً!

- إياكِ أن تفعلي مثله، وتموتي جوعاً يا حبيبتي.

مازال الشيخ علي يعلم مكامن ضعفي، يعلم أنّ تلك الطفلة التي أحبّته ذات عُمر، لا يمكن لقلبها الذي فُطم على حبّه أن يستسيغ طعماً آخر غير ذلك الذي تذوّقَتْه على شكل وجبات كاملة الدسم!

ينهشني الجوع، بينما أكتفي أنا بنتش أظفاري وبصقها من جديد، لماذا نأكل أظفارنا إن كنا سنبصقها، ولماذا أحبّك من جديد ما دمت ستزيدني يتماً فوق يتمي!

"البطن الجائع حمل ثقيل!"

وماذا عن القلوب التي تتضوّر جوعاً، وإذا حضر الحبُّ أغلقتْ فمَها لئلا تعتاد الشبع؟

رتوش

"الحب الحقيقي سينتصر في النهاية، قد تكون هذه كذبة أو قد لا تكون، أما وإن كانت حقاً كذبةً فهي أجمل ما لدينا من أكاذيب" جون غرين

رسالتك ما قبل الأخيرة، كانت استفزازية جداً:

- سأذهب إلى سورية غداً، هل تريدين أن أقتل لك أحداً ما هناك؟ ههههه

- وهل أصبح القتل سهلاً عندك إلى هذا الحد؟

- أنا أمزح لا أكثر، أنتِ من أصبحتِ جديّة أكثر من اللازم.

- يؤسفني أن تكون في صفوف القتلة، بينما أنا أكثر المدافعين عن ثورات الربيع العربي، يؤسفني أن تجمعنا الحرب اللبنانية يوماً، لتأتي الحرب السورية، وتفرض علينا واقعاً لم نكن نتوقعه يوماً! يصعب عليّ إقناعُك بأنّك في سورية لست إلا قاتلاً مأجوراً، تدافع عن قضيةٍ ليست بقضيتك، لم تكن يوماً عربيّاً، فكيف سأقنعك بهذا؟

أسئلة كثيرة تراودني، لكن هناك سؤال يلّح عليّ، وأودُّ طرحَه عليكَ:

- لماذا لم تمتْ حتّى الأن؟

- كنت منشغلاً بتشجيع الآخرين على الموت.

- أنت رائعٌ جداً عندما تقول الحقيقة!

- سؤالكِ لا يحتمل إجابةً أخرى، ثمّ إنّي دائماً أقول الحقيقة.

- لكنّها المرّة الأولى التي أصدّقكَ فيها.

- هذه مشكلتكِ أنتِ، وليست مشكلتي.

- امممم، نعم، يبدو أنّه أصبح لديّ مشاكل كثيرة هذه الأيام، وأنت أعقدها!

- تتحدّثين وكأنّ الحبَّ هو المأزق الوحيد في هذا العالم.

- الحب مأزق كبير، أنت صادق جدّاً هذا اليوم، حتى إني لا أكاد أصدق ذلك!

- أشعر وكأني أتكلّم مع امرأة لا أعرفها، هذا التطوّر الكبير في شخصيتك لا يترك لي فرصة للفرار منكِ، صدقيني أنا أحبّكِ الآن بطريقة مختلفة عن تلك التي أحببتكِ فيها من قبل.

- كم طريقة للحب عندك؟

- هي طريقة واحدة، تتفرّع عنها عدّةُ طرق، في كلّ مرّة عليّ أن أختار واحدة من تلك الطرق الفرعية كي أحبّكِ بها، وأكثر تلك الطرق وعورة هي الطريقة التي أحبّكِ بها الآن، هلّا تفضّلتِ وأحببتني أنتِ أيضاً؟

- عليّ أولاً أن أبحث عن طريقة ما لأحبّك بها.

- منذ متى وأنتِ كذلك؟

- منذ زمن بعيد، منذ أن مشيت أنا في المقدّمة، وطلبت من أحلامي أن تلحق هي بي، بعد أن مللت أنا اللحاق بها.

- ليلاااااه، دعينا نلتقِ، أنا على استعداد للمجيء إلى اسطنبول من أجلك. ربّما أجّلت الحرب موتي كي ألتقي بك مجدداً!

- أو ربّما لأنّك لا تستحق موتاً مشرّفاً، لهذا أرادت الحياة لك موتاً عادياً، بعيداً عن البطولات والنياشين ومفهوم الشهادة، موتاً أقل دموية وأقل كلفة، وكأنّ كلّ تلك الحروب اللعينة متواطئة معك، ابتلعتْهم جميعاً وأبقتْكَ أنت، تآمرتْ معك علينا جميعاً.

- هل يزعجكِ أني ما زلت حيّاً؟

- لا، يزعجني أنّهم ماتوا جميعاً، وبقينا نحن، مع أنّنا أكثر من يستحق الموت، أتَذكرُ عماداً؟

خزف بلا هوية

لن أتذوّق السمك مرّة أخرى، لم أكن أتصوّر أن تناوله معقّد إلى هذا الحد، وأنّه عليك فصل اللحم عن العظم!

قلّتها للشيخ علي قبل خمسة وعشرين عاماً، وأنا أنزع حسكة صغيرة علقت بفمي:

- أكل السمك يحتاج للقليل من الصبر،

عدا أنّه مفيد جداً، و...

قاطعتُه بشيء من الامْتِعاض يومها:

- حسناً، ومع ذلك لن أتناوله مرّة أخرى، أخبرني؛ ألا تخاف أن يراك أحدٌ من أبناء القرية وأنت تتناول الغداء برفقتي هنا على شاطئ البحر، فيخبر زوجتك؟ إننا نبدو كزوجين؟

- ألسنا كذلك؟

- بلى، لكنّ الناس لا يعلمون بذلك.

تأفّف قليلا وهو يبدأ بتناول السمكة الثالثة:

- لا علاقة للناس بنا، كم مرّة عليّ أن أخبركِ بهذا؟

كانت وما زالت تعجبني طريقته في تبسيط الأشياء المعقّدة، تشعرني بكثير من الأمان واللامبالاة.

- كيف هي علاقتك بعماد هذه الأيام؟ "يباغتني السؤال كرصاصة من الخلف"

أجيب وأنا أنزع حسكة أخرى:

- ههههه، تسميها علاقة! هل بدأت تغار منه؟

- وهل هناك ما يستحّق الغيرة؟ "أجابني ساخراً".

- لماذا تسأل عنه إذاً؟

- هل تلتقين به؟

- أحياناً، ألتقي به بالصدفة.

- هل يُزعجكِ وجودُه في حياتك؟

- على العكس، عماد بالنسبة لي هو حالة نادرة جداً، يكفي أنّه يعيش على الفطرة كالأطفال، لقد اعتدتُ عليه، ولم أعد أنزعج منه كما في السابق.

- هل تحبينه؟ "يستفزني سؤاله الغبي".

- أتمزح؟! ما هذا السؤال؟ لم أحبَّ عماداً يوماً ولن أحبه، لكنَّني محظوظة بحبٍّ شابٍّ مثله لي.

- أفكّر باستخدامه بعملية استشهادية

- لا أصدق ما أسمعه!

تجمّدت مكاني من دون أي حراك، وكأني أجلس فوق لغم أرضي! أجهل كيفية الخلاص منه بأقل الخسائر

كان الشيخ علي هو ذلك اللغم...

أي قدر هذا الذي زج بي بين مجنونين، أحدهما يريد التخلّص من الآخر؟! كيف يمكن للشيخ علي أن يفكّر بجريمة بشعة كهذه؟

حين سألته ونحن في طريق العودة بعد صمت لازمني لأكثر من ساعة:

- هل تفكّر بالتخلّص من عماد لأنّه يحبني؟

- هههه، لا، لقد ذهبتِ بأفكاركِ لمكان بعيد جداً.

- إذاً؟!

- لا شيء، نبحث عن من يقوم بعملية استشهادية، وعماد هو الأصلح لذلك، لن يشكّ العدو بأمره، الكل يعلم بأنّه مجنون حتى الإسرائيليين!

ثم بماذا يختلف عماد عن بقيّة الشهداء، هل هو أفضل منهم؟ على العكس، جميعهم كانوا عقلاء، وتنازلوا عن ملذات الحياة لأمثاله، وهذا ليس عدلاً، أن يموتوا هم، ويبقى هو على قيد الحياة!

فجأة شعرت بالغثيان والقرف أكثر من تلك المرة التي قرفت فيها من عماد، عندما مازحه أحد المستهترين، وهو يشير بيده لأحد المارّة قائلاً:

- انظر إلى ذلك الرجل، سيتزوّج من ليلاك التي تحبّها.

ما كان من عماد يومها إلّا أن هجم على ذلك الشاب المسكين، وأوسعه ضرباً. حبست نفسي في المنزل بعد تلك الحادثة، بعد أن شعرت بالقرف للدرجة القصوى؛ كيف لمجنون أن يتسبّب لي بفضيحة كهذه على مستوى أهل القرية! ليجعل مني مدعاةً للسخرية على ألسنتهم لأيام!

وبماذا أختلف أنا عن عماد؟ أليس كلانا محلَّ استغلال من قبل الآخرين! يستغلّون فقري، ويستغلّون جنونه؟ ألم يكن لفقري الذي قام باستغلاله الشيخُ عليٌّ الفضلُ الأوّلُ في برمجتي من جديد، والانخراط في تجارب للمرّة الأولى؟

أرقص للمرّة الأولى، أحتلم للمرّة الأولى، أتعرى للمرّة الأولى وأتسلّق أحلاماً شاهقة من دون ساقين للمرّة الأولى! كلّ تلك التجارب وغيرها، كانت متاريس دفاعية بالنسبة لي، أتمترس خلفها لتردَّ عني خيبات جديدة، ربّما تكون في طريقها إليّ للمرّة الأولى.

كان طريق العودة إلى القرية طويلاً جدّاً هذه المرّة، جسدي كان جالساً إلى جانب الشيخ علي، أما أنا فكنت في مكان آخر! يشغلني التفكير بذلك المجنون الذي ابتلاه الله بحبي. اشتقت له، له كله، وليس لابتسامته فقط كما جرت العادة، عندما وصلنا القرية، طلبت من الشيخ علي أن يوقف سيارته بالقرب من منزل عماد، طلبت ذلك بكل ما أوتيت من وقاحة، تمنيت أن ألمحه ولو من بعيد واقفاً كعادته المملّة عند زاوية مدخل منزله، يوزّع الابتسامات المجانية على كلّ المارّة الذين أجزم أنّهم لم ينتبهوا لها يوماً، لم أجده، هذه المرّة الوحيدة التي تمنيت فيها رؤيته، والمرّة الوحيدة التي يخذلني فيها!

سلكت كلّ الطرق التي يتردّد عليها بين الحين والآخر باحثاً عني، ولكن من دون جدوى! لأتفاجأ به عند وصولي لحارتنا جالساً

برفقة أخوتي الصغار في آخر الزقاق، منشغلاً بنفخ البالونات الملوّنة لهم، بينما تجمعوا هم حوله، ليتسابقوا؛ من منهم سينزع البالون المنفوخ قبل الأخر!

كان منشغلاً بإسعاد مَن أحبُّهم فلم ينتبه لحضوري. دخلتُ المنزل، وصعدتُ السطحَ، قطفتُ عنقوداً من العنب، ورحت أرميه بحباته من دون أن يراني، كنت أريد إسعاده في تلك اللحظات، وكنتُ كلّما رميتُ عليه حبةَ عنب من الأعلى التفتَ حوله، وضحكَ هو وأخوتي.

عملية تبادلٍ للفرح ليس إلّا! أنا التي لم أبادله الحب يوماً، يحق له أن أبادله أشياء أخرى، كقليل من هذا الفرح!

راحت بالونات عماد التي نفخها لأخوتي تتطاير في الزقاق، بينما راح أخوتي الصغار يلاحقونها، ويمطّون أجسادهم لالتقاطها، وهم يضحكون تلك الضحكات التي أحبُّها أكثرَ من أي شيء آخر!

كيف لمجنون أن يصنع كلّ هذا الفرح داخل هذا الزقاق المثير للشفقة؟

تذكّرت عباساً كيف كان يقتنص الفُرص لنشر الفرح بين أخوتي الأيتام، وكيف كانت ضحكاتهم تمدّه بالقوّة، تدحرجت دموعي المالحة، وأنا أراقبه من الأعلى. لماذا لا أنزل إليه، وأخبره بأنِّي سعيدة جدّاً لرؤيته، وأني ممتنّة له على كلّ هذه السعادة؟

لماذا أستكثر عليه كلمة صغيرة تجعله يطير فرحاً كتلك البالونات؟

كنت أتصرّف معه بأنانيّة مفرطة، وكأنّه ليس الجزءَ الأطهر والأنقى في هذه المسرحية التراجيدية! ربّما كنت أمتنع عن ذلك ليتوقّف عن الغرق بي أكثر!

عندما غادر الزقاق، سألت أحد أخوتي:

- منذ متى وهو يلاعبكم؟

- منذ عدة ساعات، جاء ليجلس معنا، ومعه علبة من الشوكولاتة، قام بتوزيعها علينا، ثمّ طلبْنا منه أن يجلب لنا البالونات الملوّنة، فذهب وأحضرها.

كيف علم عماد أن أخوتي يحبون تلك الشوكولاتة التي يجلبها لهم على الدوام؟

لا أعلم لماذا سألت أخي ذلك السؤال الذي لم أهتم لطرحه يوما:

- هل سأل عني؟

- لم يسأل عنكِ، لكنّه كان سعيداً جداً.

كانت تعنيني سعادته كثيراً، أنا التي لم أتنازل عن غروري وأسعده يوماً! كان يؤسفني استخدامه الأسلوب نفسه الذي يستخدمه الشيخ علي في التقرّب مني؛ يقدّم لأخوتي الصغار ما يحتاجونه، وبهذا يحرجني أمام أي اعتراض مني على حبّه لي! لا أصدّق أنّ مجنوناً مثله يمكن أن يستغلّ فقري ويُتمي وحاجة

أخوتي هو الآخر! كانت براءته تفوق براءة أخوتي، كان يشبههم كثيراً حتى إنّه في أحد الأيّام عرض عليهم مرافقته في نزهة للجبل الذي يتمركز في أعلاه الجيش الإسرائيلي.

عندما علمتُ يومها بمرافقتهم له انتابني خوف شديد، وجن جنوني؛ بماذا يفكّر ذلك المجنون؟ كيف تأمن أمّي إرسالَ أخوتي الصغار معه إلى الجبل؟ وكيف استطاع السيطرة على أخوتي إلى هذه الدرجة؟

بقيت يومها لساعات وأنا أطوف في أزقة الحي بانتظار عودتهم سالمين من جنونه! حين سألت جارتنا:

- لماذا لم ترسلي أولادكِ مع أخوتي إلى الجبل؟

أجابتني ساخرة:

- وهل آمن على أولادي برفقة رجل مجنون!

بدا الزقاق فارغاً جداً من دون أخوتي، بارداً أكثر من أي وقت! هادئاً إلى حدٍّ لا يُطاق! جلست أنتظرهم، وأنا أحبس أنفاسي على أملِ أن لا يصابوا بمكروه.

- لا تخافي عليهم، عماد مش رح ياكلهم

تُبّرد كلمات أمّي بعضاً من تلك النار التي راحت تلتهمني على عجل، تزيح عني القليل من الخوف لبعض الوقت.

يبدو أنّ أمّي تثق بعماد أكثر مني، ولهذا أرسلت معه أخوتي من دون أن تحسب أي حساب لجنونه! أمّي تحب الجميع، وتثق بهم، وتلك كانت عادتها السيئة الوحيدة!

- عماد يحبهم ولن يؤذيهم، ها هم في طريقهم إلى هنا، أراهم جميعا وهم عائدون، لا تقلقي! تزفّ لي هذا الخبر من الأعلى، وهي تتابع نشر الغسيل على سطح الغرفة، ما إن سمعتُها تقول لي بأنّهم في طريقهم إلى البيت حتى قمت مسرعة إليهم، ورحت أعدّهم من بعيد، وهم يقطعون الطريق الترابي، ويحملون بأيديهم بعض الأكياس.

بعد موت أخي عباس أدمنت عادة غريبة، صرتُ أعِدُّ أخوتي الصغار طوال الوقت، خوفَ أن ينقصوا مرّة أخرى، رافقتني تلك العادة المتعبة إلى أن تزوجت.

لم يكن العدُّ هو ما يتعبني، لكنَّني كنت دائما أخطئ في عدّهم، ثم أعود، وأبدأ من جديد، وهذا ما كان يسبب لي الإرهاق، ألمح عباساً بينهم، فأعدّه معهم، ثم أتذكر بأنّه مات!

وها أنا أعدّهم من بعيد، وهم يقطعون الطريق الترابي برفقة ذلك المجنون!

ما إن وصلت إليهم حتى بدأت بتوبيخهم، وتوبيخ عماد.

لكنَّني تفاجأت فيما بعد أنَّهم هم من طلبوا منه مرافقتهم للجبل لحمايتهم في حال تعرّض لهم الإسرائيليون.

يا إلهي! كيف خفت على أخوتي من عماد، ونسيت أن أخاف عليهم من الاسرائيليين؟!

كثيرة هي المواقف التي ظلمت فيها عماداً فبينما أثق بحبه لي، كنت أشكّ دائماً بكل تصرّف يقوم به مع أخوتي، وأصنّفه على أنه تصرّف مشبوه!

حرصت في علاقتي معه على أن أبقيه على مسافة بعيدة عني قدر المستطاع، كنت أخاف الاقتراب منه. كلّ شيء فيه كان مثيراً للحب عدا عقله المثير للشفقة!

كثيراً ما وسوستْ لي نفسي الأمّارةُ بالسوء أن أقترب منه ولو لمرّة واحدة، أن أفكّ أزرار قميصه، وأفتح صدره على مصراعيه! ثمّة غموض بتفاصيله تلك، يحرضني للتعرّف إليه عن قرب، يستفزّ كلّ الأسئلة التي تدور في رأسي عنه.

قمصانه الضيّقة ذات الأكمام الطويلة تزيد من حشريتي وتطفلي. ما الذي يغريني بشاب مسالم إلى هذا الحد؟

كثيراً ما كنت أشعر بأنّي أفوقه جنوناً، وأنّه يستحق أن يُغرم بفتاة أعقل مني بكثير! ضحكته التي كانت تجاكرني من بعيد، لا تشبه ضحكات المجانين بتاتاً، بل ضحكات نجوم هوليود الذين لا أعرف سوى وجوه بعضهم.

لم أستطع نسيان كلمات الشيخ علي! كيف سأسمح له بأن تُغتالَ ضحكةٌ كهذه بحزام ناسف بحجّة إزعاج العدو؟

كانت ضحكته بالنسبة لي أهمَّ بكثير من مقتل ألف جندي إسرائيلي!

وبماذا يفيدني قتل الجنود الإسرائيليين إذا كنت سأحظى بخسارة فادحة كخسارتي لضحكة مجنون يحبني! الجنوب كله كان يضحك حين تبدأ عيناه بالضحك! أجزم أنّ الجنوب كان فخوراً بتلك الضحكة مثلي تماماً، أجزم أنّ ضحكته تلك كانت تعادل عشرين مقاوماً من حزب الله، ومثلهم من حركة أمل!

في تلك الليلة تلّبسني طيف عماد كجنّيٍّ، كلما أغمضت عينيّ تفتح ابتسامتُه لي فمَها، أتخيّله بحزامه الناسف وهو يقترب من حاجز الجنود الإسرائيلين، يتقدّم إليهم بابتسامته التي لا يملك غيرها! هو الذي يبتسم لكل شيء يصادفه، أتخيّله وهو يستعجل إليهم بخطواته، يستعجل نحو الموت الذي لا يعلم عنه شيئاً! أتخيّلهم وهم يفجرونه عن بعد كما لو أنّه إصبع ديناميت لا روح فيه، كما لو أنّه مبنىً قديمٌ آيلٌ للسقوط! أتخيّل ابتسامته وهي تتطاير في الهواء، من أين آتي بالقوّة لأجمع أشلاءها وأضعها في كيس أسود كما يفعل الممثّلون في الأفلام البوليسية؟ وماذا عن لحمه الذي لم أحظ بشرف لمسه يوماً، كيف سأتحمّل سخونته، وأنا ألملم ما تبقى منه، كيف سأزيل التراب العالق عليه وكأنّه وسام شرف! يا إلهي! ماذا لو اختاروني أنا من بين كلّ فتيات القرية كي ألقي كلمة تأبينية في تشييعه؟ من أين سأبدأ؟

السلام على الحسين، وعلى ابتسامتك التي تشبه طهر الحسين، وعلى براءتك التي عجزتْ عن منحك تأشيرة دخول

لقلبي، السلام على جنونك المبجّل الذي يحاصرني كما لو أني مدينة ذات أهمية استراتيجية في إحدى دول النفط العربي، وعلى خجلك الذي كنتُ أغار منه، وعلى أصابعك الطريّة والشهيّة، وعلى مائك الذي كان أسرع من الضوء! السلام على قلبك المتورّط بي، وعلى حزني الذي يشبه عاشوراء، وعلى صوتك الذي لا يجيد نقاش تفاهات الآخرين! السلام عليّ وعليكَ، واللعنة على كلّ الذين استباحوا دمك ولحمي.

الموت مخادعٌ كبير، يستكثر علينا الرحيل عن هذه الحياة بطريقة ديمقراطية، طريقة نختارها نحن، بدل أن يختاروها هم لنا.

نسلتُ السيجارة السادسة من علبة سجائر أمي، أشعلتها ورحت أسحب كلّ دخانها إلى صدري، أردت أن أعاقب نفسي بأي شيء على حبي للشيخ علي!

كيف تورطت بحبك لهذه الدرجة؟ كيف لفكرة القتل والحب أن تجتمعا في قلب واحد؟ كنت أتساءل من أين جاء سماحته بكل هذا الدهاء؟ وكأنّه أراد توجيه رسالة للعالم مفادها: "حتى المجانين في الجنوب هم مشاريع استشهاديين ضد إسرائيل"، ماذا لو غافلني، وأقنع عماداً بأنّ ذلك الحزام الذي سيلّفه حول صدره هو (حجاب ديني) سيجعلني أحبّه ما إن يرتديه؟ ما أكثر هذا الدين، وما أقل رجاله!

في لقائي الأخير به، وعندما سألني عن عماد طلبت منه أن ينسى تلك الفكرة المقززة.

- لم أسمع ما قلته! أعيديه ثانية.

- هل تصدّق لو أخبرتك بأنِّي مغرمة بابتسامته لي، وبأنّي سأدافع عنها كما لو أنّها جزء مني، أيعقل أنّك لم تنتبه لها يوماً؟

- ألهذه الدرجة أنتِ مصابة بالجفاف العاطفي كي تغرمي بابتسامة رجل مجنون! هل قصرت معك جنسياً؟

- هههههه، وما دخل الجنس بتلك الابتسامة، هما بعيدان جداً عن بعضهما البعض، كأنت وعماد!

- يبدو أني أفرطت في دلالك!

- لديك مئات المقاتلين تحت إمرتك، لماذا تصرّ أن يقوم عماد بهذه العملية؟

- لأنّ هذه العملية مختلفة عن غيرها، ثم أني لست مضطراً لأشرح لكِ.

- حتى لو كانت تلك العملية التي تتحدّث ستحرّر الجنوب بأكمله، لن أسمح لك باستغلاله، ابحث عن غيره.

- ومن أنت كي تسمحي أو لا!

لأوّل مرة ألحظ هذا اللؤم في نبرة الشيخ علي! حين هممت بالمغادرة أمسكني من يدي بعنف:

- إلى أين؟ أنا لم أفرغ مائي فيكِ بعد.

- لا تتحدّث معي وكأني عاهرتك.

- أنتِ كذلك.

كان يكلّمني كمن فقد عقله، يتعمّد استفزازي على أتفه الأسباب! فجأة رمى بي أرضاً، وراح يخلع عني ملابسي بعنف وهو يقول:

- لن تخرجي اليوم من هذه الغرفة عذراء.

لأوّل مرّة أخافه وأحاول مقاومته

- هل أنت مجنون، وماذا لو حبلت منك؟

كنت أتحدّث معه بالقليل المتبقي من عقلي في تلك اللحظات، فعلى الرغم من الخوف الذي انتابني منه، إلّا أني كنت سعيدة بهذه الطريقة الشرسة التي كان يتصرّف بها!

- احبلي، هذا شرف لكِ أن تحبلي مني، كثيرات يتمنين لو كنّ مكانكِ الآن، كثيرات يحلمن بأن يحظين بليلة واحدة معي، ومن أنتِ لترفضي أن تحبلي من الشيخ علي!

لم أرفض يوماً أن أحبل منه، لطالما تمنيت أن يدخل بي، أن أنجب منه طفلاً، لكن أمّي كانت تنقذني في كلّ مرة، وذلك حين أتذكّر تفاخرها بي، وكأني سبعة رجال مجتمعين.

أنت لا تعلم مدى صعوبة أن تقاوم بشراسة، فقط لكي لا يحدث ذلك الشيء الذي تتمنى حدوثه بينك وبين نفسك!

كنت مغرمة به إلى حد الجنون، لكنّ حبي لأمّي كان يفوق حبي له بكثير! لذا كنت أحرص على أن أخرج من بين فخذيه عذراء في كلّ مرّة.

كانت تلك المرّة الأخيرة التي التقيت فيها بالشيخ علي، والمرّة الأخيرة التي دفع لنا فيها زكاة الخُمس، والمرّة الأخيرة التي حسمت فيها أمري بالفراق عنه.

ثمّة ثقبٌ صغير جداً، سأحتفظ به مغلقاً كدليل على براءتي من أي تهمة قد تطالني من زوجي المستقبلي.

ليس أصعب من أن تضعك الحياة بين خيارين بهذا الحجم؛ خيار أن تحتفظ بجزء منك لرجل آخر، تعلم مسبقا أنّك لن تحبه، بينما تمتنع عن منحه للرجل الذي تحبه لأسباب تقليدية!

قرّرتُ أن ابتعد عن الشيخ علي، هكذا وبشكل مفاجئ، ومن دون إجراء أيّة عملية حسابية لحجم الخسائر التي قد تنتج عن قراري هذا.

هناك خسائر عليك أن تتجاهل مدى فداحتها، كتلك التي تنازلت من أجلها عن كلّ شيء كي تحظى بالقليل من الأشياء!

للخسارة معاييرها الخاصة، فأنت حين تقرّر خسارة شيء ما بملء إرادتك، فكأنّك تعبُرُ من ضفة العجز إلى ضفة مغايرة تماماً، ضفة تكشف لك جزءاً لم تنتبه له يوماً، جزءاً اسمه الشجاعة!

لطالما كانت شجاعتي مرهونة بوجود الشيخ علي في حياتي، وكأنّه كان يملك مفاتيحي كلها، فيغلقني متى شاء، ويفتحني على مصراعيّ متى أراد.

استيقظت ذلك الصباح شُجاعة على غير عادتي، فجأة اكتشفت أن حبه لي كان مهيناً جداً، وكأنّه كان يتفضّل عليّ به!

وكأني بقبول التمتّع معه كنت أقوم بمهمّة إنسانية بحتة، أسدُّ بها جوع أخوتي الصغار لأكثر من عام!

لم يكن جسدي بهذا الجمال لكنّه كان طازجاً يفي بالغرض لكي يسيل لعاب سماحته له، وليقايض به زكاة الخمس!

إن أكبر جريمة يمكن أن نرتكبها بحق هذا الدين هي أن نشرعن العهرَ باسمه، فنزني طمعاً بالحسنات، ونقتل طمعاً بحور العين، ونكذب طمعاً باستدراج الآخرين وانضمامهم إلى قافلة الجهل!

أعترف أني كنت عاهرة عن سبق الإصرار، عاهرة تلتحف الدين كي لا تُتهم بالزنى، بعد أن أفتوا لها بذلك. أعترف أيضاً أننا لم نكن يوماً من الأيام أهلاً لهذا الدين الذي يستعرّ بنا لكثرة ما أسأنا استخدامه، وأنّه بالنسبة لنا ما هو إلا باب رزق نسترزق منه ليس إلا. أقفلتُ باب الرزق بوجه أخوتي الصغار من دون أن أبرّر لهم ذلك، من دون أن أشرح لهم الأسباب، ومن دون أن أزعزع إيمانهم بتلك العمائم المشبوهة!

افترقتُ عن الشيخ علي منذ ذلك اليوم، كان فراقاً مشرّفاً لي، فيه الكثير من الكبرياء، ذلك الكبرياء التي كانت تحدّثني عنه جدتي، وكأنها تتحدّث عن كنز ثمين.

افترقت عنه من دون أن ألوّح له بيدي كما يفعل الآخرون، فراقاً يشبهه، هو الذي كان يكره كلّ ما هو تقليدي ومتعارف عليه. افترقت عنه حتى من دون أن أخبره بأنّ حبه شيء خرافي جداً، لا يمكن التخلص منه بهذه البساطة! وكان لفراقه ارتدادات قوية جداً علي استثمارها كلها في شيء واحد فقط: أن أعلّم قلبي كيف يتعافى منه، أن أعلّمه عزّة النفس من الآن فصاعداً.

بعد أشهر قليلة من انفصالي عنه تقدّم لخطبتي رجل لا أعرفه، يقول إنّه منذ أن التقاني عند أحد أقاربي لم أفارق قلبه! رجل لا يشبهني بشيء، يحب كلّ الأشياء التي لا أطيقها.

رجل بربطة عنق وبدلة رسمية وسلسلة في عنقه، وشهادة جامعية وجيوب منتفخة تقيني، وتقي أخوتي الجوع، وتوّفر علينا الصدقات وزكاة الخمس التي كانت مرهونة لمزاج رجال الدين.

هذا الصنف من الرجال تحديداً كنت أستبعد أن ألقي عليه التحيّة يوماً، حتى لو التقيت به صدفة في الشارع، صنف لا يعرف شيئاً عن حياة الفقراء، ويزعجه وجودهم في هذه الحياة.

عندما قبلت الزواج به، اقترحتْ جارتُنا على أمّي أن تطلب من الشيخ علي بأن يقوم هو بعقد قراني على ذلك الرجل، ضحكتُ عندما سمعتُها، وعندما سألتني عن سبب ضحكي لم

أجرؤ على إخبارها بالحقيقة. اكتفيت بالصمت، وتفلتت دموعي مني!

منذ أشهر قليلة فقط كان هو شيخي وحبيبي، كان هو كلّ الرجال الذين أحتاجهم! "تشغلني فكرة أن يحضنني رجلٌ غيره، رجل أتأبط ذراعه أمام الجميع، وأنا أعتذر لقلبي على فعلتي تلك!"

عندما تُرغمك الحياة على أن تستبدل بالحبِّ أشياءً أقل منه شأناً عليك أن تعتذر لقلبك حينها! فقط عندما تهزأ بك، وتمارس عليك كلّ سقاطتها، فتصيبك بسهامها المسمومة بحجّة صقلك، عليك أن تتأسّف كيف أنّك صدقت كلّ هذا!

عندما راح يسألني تلك الأسئلة التقليدية التي يقوم الرجال بطرحها عادة قبل الزواج عن الأشياء التي أحبّها والأشياء التي أكرهها، وجدتني أجيبه لا شعوريّاً:

- أحب اللون الأسود كثيراً، فهو اللون المفضّل للشيعة، لذا أشعر بالتطرّف له!

هذا ما قاله لي الشيخ علي يوماً:

"كان على دائرة الهجرة والجوازات أن تضيف على جوازات سفر الشيعة بيانات خاصة بلونهم المفضّل، وهو اللون الأسود، فهم أكثر الناس وفاء له، لذا عليكِ أن تحبيه أكثر من بقية الألوان التي لا هوية لها."

- أكره تناول المشروبات الغازية مع أنني لم أتذوقها يوماً، يكفي أن لا يحبها الشيخ علي كي أكنّ لها كلّ هذا الكره!

لا تجبرني على نتف حواجبي، ولا على صبغ شعري باللون الأشقر، ولا تطلب مني أن استبدل بمفرداتي السوقية مفرداتٍ أكثر لباقة منها، ولا أن أخفض صوت ضحكتي عندما يحالفني الحظ وأضحك!

لا تخبرني عن علاقاتك الغرامية فهذا أمر لا يعنيني بتاتاً، ولا تخيرُني بينك وبين الكحل العربي الذي ورثت التكحّل به عن جدتي، كنت أشرح له عن طباعي وكأنّي أقول له:

- أنا لن أحبك يوماً، فلماذا تصرّ على الزواج بي؟

بينما كان هو يردّ عليّ مبتسماً:

- أعدكِ ستكونين سعيدة جداً بهذا الزواج، ولن أدعكِ تندمين ولو للحظة واحدة.

أسعدتْني ثقتُه بنفسه، وأحزنني ذلك الشعور الذي انتابني بأنّ زواجي به ليس سوى هروب متعمّد من واقع أقل ما يقال عنه بأنّه واقع مجنون لا يمتّ للعقل بصلة!

لم يكن الجنون حكراً على عماد في ذلك الوقت، فكل حدث كنت أعيشه مع الشيخ علي كان يؤكد لي أنّه أكثر جنوناً منه!

عماد الذي كان عليّ زيارة منزله للمرّة الثانية. ذلك المنزل الذي هربت منه مذعورة من قبلُ لوجود مجنوني بداخله، أذهب إليه الآن، وأنا بكامل قواي العقلية، عليّ إخبار والدته بأنِّي

سأتزوج هذا الأسبوع، وبأنّ عليها اصطحاب عماد إلى بيروت تحت أي ذريعة!

فجأة أصبحت أهتم لأمره، لمشاعره، لابتسامته الفاخرة، حتماً سيكون خبر زواجي صدمة كبيرة له، وربّما يقوم بارتكاب حماقة تفسد عليّ الهرب منه ومن الشيخ علي!

سيطرَ عمادٌ على تفكيري كليّاً، حتى إني لم أهتم بمراسم الزواج الذي تحضّر له والدتي مع ذلك الرجل الغريب الذي تفوح رائحة عطره ما إن يدخل الزقاق.

ذهبت إلى عماد، ذهبت بكلي، وكأني بدأت أحبّه، طرقت باب بيته من دون خوف، وما إن فتح لي الباب حتى استقبلتني ابتسامته استقبالاً مشرّفاً.

ابتسامته هذه المرّة هي الأجمل من بين كلّ الابتسامات، قابلته أنا أيضاً بابتسامة تليق بحبه لي، ابتسامة خرجت من قلبي من دون أن أجبرها أنا على ذلك!

وقف لحظاتٍ مندهشاً لحضوري، وجهه يفور خجلاً، أدار لي ظهره، وأسرع إلى الداخل مرتبكاً من دون أن يدعوني للدخول، جلست أحدّث أمه على انفراد، وبصوت منخفض، بينما راحت هي تستمع لي بسرور بالغ، وتبارك لي زواجي بحماس، وكأني كنت عبئاً عليها كلّ هذا الوقت!

طلبتْ مني أن أقوم أنا بإقناع عماد بالنزول معها إلى بيروت، قالت: إنّه يثق بك أكثر مني، "لأوّل مرّة تعترف لي بذلك."

كذبت عليه للمرّة الأخيرة، وأخبرته بأنّي سأنتقل للعيش في بيروت أنا وأمّي وأخوتي، وأنّ هناك من دبّر لأمّي عملاً كمدبرةٍ في إحدى الأبنية في بيروت، ورحت أسترسل بالكذب عليه...

كنت أكذب عليه، وهو يبتسم لي، شيء بداخلي يجهش بالبكاء عليّ وعليه، شيء ينذرني بأنّه سيترك ندبة عميقة جداً في داخلي! فجأة تمنيت احتضانه بقوّة، تمنيت لو أصرخ به:

"كفّ عن الابتسام لي، فابتسامتك تسبّب لي كثيراً من الوجع في صدري!"

تمنيت لو أنّه يفاجئني بأي تصرّف أحمق يخفّفُ عني هذا الشعور الذي لا أجد له توصيفاً، كأن يطردني خارج منزله، أو يوبخني على تلك الكذبة التي اخترعتها له قبل لحظات، أو أن يقفل الباب عليّ كما فعل من قبل، ويحاول اغتصابي، أو التحرّش بي. تمنيت أن يفعل أي شيء كي أكنّ له القليل من الكره، لكنّه ظلّ يبتسم كعادته بجنون!

ودعته بكذبة أخرى، على أمل أن نلتقي في بيروت، لكنَّني قلت له قبل أن أغادر منزله:

- ابتسامتك جميلة جداً، أنا أحبّها كثيراً، هي تشبه ابتسامة أخوتي الصغار وهم نائمون.

كاد يطير فرحاً بعد أن قلت له ذلك، وكدت أختنق لشدّة فرحه بتلك الكلمات!

كان عليّ أن أخبره حقيقة واحدة على الأقل وسط كلّ تلك الأكاذيب التي اخترعتها له!

رافقتني ابتسامته تلك مراسم الزواج، جلستْ في المنتصف بيني وبين ذلك الغريب الذي سيدخل بي بعد ساعة أو ساعتين على أبعد تقدير، بعد أن صرت زوجته الرسمية أمام الملأ.

وحدها تملؤني بالحزن في يوم فرحي، تزورني محمّلة بجنونها المعتاد لتحرّض قلبي على البكاء وسط كلّ تلك الزغاريد. في أوّل ليلة لي مع زوجي شعرت بالجوع الشديد لكل شيء، لوجبة طازجة من الحب، لحبل سري يصل بيني وبين أقرب نقطة ضوء فأشعّ من جديد.

عندما أخبرته بأنِّي أتضوّر جوعاً، قام مسرعاً، وطلب لي وجبة سريعة من النقانق.

ضحكت ليلتها، ضحكت حتى سالت دموعي، نمت جائعة بينما راح هو يأكل جسدي...

في تلك الليلة، علمت أن هذا الرجل الذي أنا بين يديه لا يشبهني، وأن مفهوم الجوع عنده مختلف تماماً عني!

حضنت ابتسامة عماد، ونمت أنا وهي وحدنا، تفاجأت بأنّها لا تصدر شخيراً أثناء النوم على عكس زوجي الذي ملأ شخيره المكان بعد ليلة متعبة، قضاها وهو يحاول أن يثبت لجسدي أنّه الرجل الأكثر خصوبة في هذا العالم!

اكتشفت أيضاً أن ابتسامة عماد لا خصيتان لها، ولا لحية سوداء كثيفة، لذا نمت إلى جانبها عارية مطمئنة! فقط في تلك اللحظات، فهمت ماذا كان يقصد كافكا حين قال جملته الشهيرة: "إنني نمت بجانب نفسي."

قبلها بساعات سألني زوجي وهو يرفع الطرحة البيضاء عن وجهي:

- هل أنتِ سعيدة؟

كذبت عليه كذبتي الأولى:

- نعم سعيدة جداً!

ومنذ ذلك اليوم توالت الأكاذيب، أكاذيب لا حصر لها ولا يمكن الرجوع عنها، لأنّها ضرورة لا بد منها، مثلما كذبت على الشيخ علي يوماً وقلت له:

- سأموت قبل أن يلمسني رجل غيرك!

مثلما كذبت على عماد، ووعدته بأننا سنلتقي في بيروت، بينما اكتفيت باحتضان ابتسامته الملائكية من دون أن أشعر بالنعاس!

أدمنت الكثير من الأكاذيب، فكلّما سألني زوجي عن أمر ما أردّ عليه بكذبة جديدة، يجامعني رغماً عني فأرتعش كذباً، يأتيني بالعطر الذي لا أحبه، ويسألني عن رائحته، فأجيبه من دون أي تردّد:

- أعجبني جداً.

أبالغ معه حتى في طريقة كذبي كي أقنعه بأنِّي لا أكذب عليه، وبأنّ كلّ الأشياء التي يفعلها لي، والهدايا التي يقدّمها لي في المناسبات مازالت تدهشني، وكأنّه يفعلها لأوّل مرّة! يصبح الكذب عادتك الجميلة حين تتوالى عليك الخيبات، كأن يسألك أحدهم وأنت تتظاهر أمامه بالفرح:

- كأنّك سعيد؟

فتجيبه بكذبة احترافية:

- بل أنا سعيد جداً! ثم تبتسم له تلك الابتسامة المغشوشة وتمضي.

ملايين النطف التي قذفها زوجي بداخلي لم أشعر بها، آلاف الابتسامات التي تبادلتها معه كانت لإخفاء حزن لا يعلم عنه شيئاً، مئات المرّات التي قلت له فيها: أحبك، لم أكن أقصده هو، عشرات المرّات ندمت على الزواج به، ولم أخبره بذلك!

أحتاج لمرة واحدة، واحدة فقط، أكون فيها صادقة معه ومع نفسي، وأعترف له بأنّ كلّ ما حدث بيننا بالأمس بُنيَ على مجموعة من الأكاذيب الضرورية التي لا بدَّ منها!

ما أصعب أن تتقمّص دور الكاذب لسنوات طويلة، كم هو متعب أن تمثّل أنّك سعيدٌ جداً، بينما أنت فارغ، بائس، تبحث عن ذرّة فرح حقيقية تشحن بها رصيدك المليء بالأحداث الكوميدية السوداء، ذرّة فرح تسعف بها أحلامك التي تعاني نزيفاً داخلياً لا يتوقف!

بعد أشهر من زواجي علمت أنّ عماداً توفي بسبب تدهور حالته الصحية، قالت لي صديقتي إنّه أصبح يتناول وجبات كثيرة من الطعام، وإنّه لم يعد يخرج من غرفته، مما اضطر أهله لإدخاله مشفىً في بيروت حيث توفي هناك.

كان موته نقطة سوداء تضاف لسجلي الأسود كملامح عاشوراء. بكيته بحرقة، وعندما سألت صديقتي إن كان سأل عني بعد زواجي، أو ما إذا كان قد افتقدني امتنعت عن الإجابة، وكأنها تقول إن زواجي كان سبباً رئيساً في تدهور حالته الصحية.

من المفجع أن تحتفظ بابتسامة أحدهم كلّ هذا الوقت كرد اعتبار له، ورد احتقار لك! "الشجعان يموتون، والعباقرة يصابون بالجنون."

وعماد كان أكثرهم شجاعة وعبقرية، وأجملهم جنوناً، لذا كان من العدل أن يموت عشقاً، لا أن يموت بحزام ناسف.

نزيف الذاكرة

"الكتابة نوع من أنواع الترجمة ،والنصُّ الذي يجب ترجمته هو أنت"
أب وايت

عندما بدأتُ بكتابة هذه الرواية، كان من المفترض أن تنتهي الأحداث هُنا عند هذا الحد، وأن تكون ابتسامة عماد هي المسك الذي أختم به الصفحة الأخيرة!

نهاية منطقية من دون زيادة أو نقصان، كما انتهت منذ أكثر من خمسة وعشرين عاماً، لكنّ الأحداث رفضت أن تتوقف هنا، أصرّت على متابعة الجري، وأجبرتني على الجري أمامها كي أدلّها على الطريق بعد حضورك المفاجئ!

تمنحنا الصدفة بدايات جميلة، فتأتي النهايات لتصفعنا ببدايات أُخَر، تفوق بقبحها رائحة فم رجل سكير! "البدايات فخ محكم لنهايات حتمية."

لطالما خِفت النهايات التي تخرج عن السيطرة، تلك التي تتعلّق بالمشاعر، وتطيح بكل شيء، كعودتك التي لم تكن في الحسبان!

هذا الحب يشبهني كثيراً، يُعاني عقدة النقص مثلي، يمارس عليّ رجولته، كما كنت أنت تمارسها عليّ ذات طفولة!

كان عليَّ توخي الحذر منك كي لا أسقط مجدداً، كي أثبُت أمام رياحك العاتية التي خلعت عفّتي من جذورها، لكنّك كنت عاصفة هوجاء يصعب عليّ الصمود بوجهها من دون أن أقع أرضاً، وتقذف بي إلى هناك، حيث كلّ الأشياء تطير من تلقاء نفسها، بعدما أفقدتْها جاذبيةُ الحبِّ جاذبيتَها.

أعترفُ أنّي أتضوّر جوعاً لك، وأنّ دخولك في حياتي من جديد كان أشبه بعملية إنعاش لقلبي الذي كنت أظنُّه لن يعمل بعد الآن!

خمسة وعشرون عاماً وقلبي المهمل موضوع على الرّف، أمسح عنه الغبار كلما قمت بتعزيل المنزل، ثم أعيده إلى مكانه وكأنّه تحفة قديمة لا تصلح إلّا للفُرجة!

لا أنكر أني بحاجة ماسة لاستراحة طويلة من كلّ هذه المثالية التي اعتدتُ على ممارستها كلّ تلك السنين، وأني أتوق لخوض حرب عاطفية معك، حرب لا تبقي ولا تذر، وأنّه لا بد من التصعيد في هذه العلاقة المفتوحة على كلّ رياح التغيير الجذري، وربما الفشل الذريع!

الزواج زنزانة بخمس نجوم، تمارس فيها كامل حريتك تحت سقف الصلاحيات التي منحها لك الطرف الآخر، والذي هو نفسه السجّان، وماذا سيحدث لو خلعتُ باب تلك الزنزانة وهربت منها للقاء من كان سبباً في حبسي كلّ تلك السنين؟ماذا لو منحت هذا القلب فرصة أخيرة لمزاولة عمله من جديد؟

- اشتقتُ لعناقكِ لي، كانت لديكِ طريقة مضحكة في العناق، كنت ترفعين قدميكِ عن الأرض، وتتعلقين برقبتي، هل تذكرين ذلك؟ كانت رقبتي هي أرجوحتك، ألا تشتاقين أنتِ لعناقي أيضاً؟

- اشتقت لأشياء أخرى!

- قولي لي ما هي، وأنا على استعداد لأن أعيدها إليكِ!

- ههههه، هي أشياء لا تعود، هي أشياء ترحل فقط، أشياء ليس هناك متسّع من الوقت كي نستعّد لها، تأتي على شكل صاعقة مفاجئة، تضربنا من الداخل وترحل.

- ما زلتِ تملكين عنصر إدهاشي، وهذه صفة أعشقها بالنساء.

- هلّا عددت لي كم من النساء أصبح لديك؟

- هههههه، صدقاً لم أُغرم بامرأة كما أغرمت بكِ، تزوجتُ بإحداهنّ، وانفصلنا بعد سنتين تقريباً!

- كنتَ ضدَّ فكرة الزواج من أخرى!

- تزوجتها للضرورة، حبلت مني فتزوجت بها، لو كنتِ سمحتِ لي بأن أدخل بكِ في ذلك الوقت، لربّما كنتِ حبلتِ وتزوجت بك بدلاً عنها!

- يا لك من رجل نبيل جداً!

شعرتُ بالغصّة عندما أخبرني بأنّه تزوج من امرأة أخرى، أنا التي كنت أحلم بأن يتزوج بي، ولو ليوم واحد فقط!

تسعة أشهر ونحن نتحادث يومياً، نسترجع كلّ الذي حدث بيننا في تلك الحرب، في ذلك الزمن المزدحم بكل شيء وبنا. أما آن لهذا الحب أن يبدأ بالمخاض؟

"تعرف أنك عاشق عندما تبدأ بالتصرّف ضد مصلحتك الشخصية"

وأنا الآن أتصرّف بحماقة ربّما تقلب حياتي رأساً على عقب.

يبعث لي برسالة فأردّ عليه، وكأننا لم نفترق كلّ هذا الوقت! وكأنني لم أتزوج برجل غيره، وأنجب منه أطفالا يشبهونه!

مصيبتنا أننا عاجزون تماماً عن دوزنة مشاعرنا العاطفية لتتناغم مع كلّ هذا المنطق المفروض علينا بالقوّة.

كل الضوابط الأخلاقية التي قضيت عمرك وأنت تختبئ بداخلها، وتحتمي بها، لا يمكن أن تمنع مشاعرك من ممارسة حقها الطبيعي في الحب! فالحب غير معنيٍّ بعقدك وضوابطك ولا حتى بأخلاقياتك، والدليل أنّه ما إن يحضر، ويفرض وجوده بداخلك، حتى ينسفها جميعها بنبضة واحدة!

ندبة في الروح

- لن أذهب معك إلى أي مكان هذا اليوم، لا مزاج لي لذلك، فأقاربك أناس مغرورون جداً، كلّ أحاديثهم تدور حول فلك واحد: المال والسيارات وماركات الفساتين والأحذية، وأسماء الأماكن السياحية التي زاروها حول العالم، وبماذا تفيدني تلك الأحاديث التافهة كي أذهب معك، وأستمع لها بكثير من القرف! كم مرّة أخبرتك أني لا أطيق مثل تلك النماذج البشرية؟

- تبدين عصبية جداً هذه الأيّام، لم تكوني يوماً بهذه العصبية؛ يجيبني زوجي وهو يعقد ربطة عنقه التي لم أحبها يوماً ويهمّ بالخروج من المنزل.

نعم، لقد أصبحتُ عصبية جداً، كلّ شيء حولي يسير على ما يُرام ماعدا قلبي! كل تلك المواقف التي ظننت أنّها لن تعيدني إليك ها هي تخذلني، لتزيح الغبار عني، وتعيدني على الرغم من أنفي!

كيف للنسيان أن يخذلنا بهذه البساطة؟ كيف له أن يستدرج الأمس وكأنّه اليوم! النسيان محض كذبة مؤقتة، بنج موضعي يزول مفعوله تدريجيّاً ما إن تتم خياطة الجرح جيداً.

- حجزتُ إلى اسطنبول في الغد.

- هل لديك أقارب في اسطنبول!

- لديّ أنتِ، لا أقارب لي هناك سواكِ.

الرسالة التي أفقدتني صوابي منذ ليلة أمس، قبل قليل نظرتُ لنفسي في المرآة، بدوتُ أكبر مني بكثير، رحتُ أتحسّس وجهي اليابس وعينيّ الغائرتين.

ألهذا سألني زوجي ليلة أمس:

- لماذا تبدين متعبة، هل ثمّة ما يؤلمك؟

- لا شيء يؤلمني.

كذبت عليه كعادتي، أدار ظهره، وغط بالنوم، وبدأ بالشخير! تذكّرت ليلة زفافي حين قال لي بنبرة ملؤها الجوع، وهو يتأمّل جسدي:

- عِدِيني أن لا يلمس هذا الجسد رجل غيري.

- أعدك بذلك.

كيف يهتم الرجال لجسد المرأة ويستثنون قلبها؛ ماذا كان سيخسر لو أنّه وضع يده على موضع قلبي وقال لي: "عديني أن لا يُغرم هذا القلب برجل آخر غيري"

لو كان فعل هذا لوفّر عليّ الكثير! خمسة وعشرون عاماً وجسدي ممدّد إلى جانبه، ولم يسألني يوماً عن حال قلبي!

قلبي البور الذي تحوّل إلى ما يشبه المقام الشيعي، الكل يتكئ برأسه عليه، ويبكي إلّا أنا!

وعن شفتيَّ اللتين نسيتا حاسة الحب منذ سنوات طويلة!

أتحسّس ثدييَّ اللذين يقفان أسفل صدري كصنمين بعدما كانا أشبه بمنظمتي غذاء عالمية لأولادي.

أشعر وكأني امرأة من خراب، كيف سأجر كلّ هذا الخراب خلفي وأذهب به للشيخ علي بعدما كنت سندريلته الفقيرة والمدللة!

اقترحتْ عليّ أخصائيةُ التجميل أن أقص شعري قصة فرنسية قصيرة، بعد أن استشرتها عن الخطوات التي عليّ اتخاذها كي أبدو أصغر عمراً، نصحتني أيضاً بأن أرتدي فستاناً أسود اللون كي أبدو أنحف ممّا أنا عليه الآن!

منذ زمن لم أهتم لمثل هذه المسائل الأنثوية، منذ زمن لم أتذكر بأنّي أنثى!

فتحت باب خزانتي. تفاجأت بأنّها خالية من الفساتين تماماً، ومع هذا أصريت أن أرتدي لك فستاناً عند لقائي بك، ليس عملاً بنصيحة أخصائية التجميل فحسب، بل لأني اشتقت لتغيير عاداتي اليومية وإضافة بعض التعديلات عليها.

إنّه لمن السخرية أن أرتدي فستاناً بعد كلّ تلك السنين لرجل لا يحب أن يراني إلّا عارية!

كانت المرّة الأخيرة التي ارتديت فيها فستاناً وأنا بعمر الثانية عشر، أي قبل أن أحبك بأربع سنوات، لكنّ ذلك المليشياوي الفلسطيني المفرط بالجوع، لم يحتمل مشهد طفلة عائدة من مدرستها بفستانها الرمادي الجديد، فاقترب منها ورفع لها طرفه

من الخلف، فما كان منها إلّا أن شتمته وهربت منه، ومنذ ذلك اليوم حرمتها جدتها أن ترتدي فستاناً مرّة أخرى!

عندما التقيت ذلك المليشياوي في فرن القرية بعد سنوات سألته:

- لماذا رفعت لي طرف فستاني عندما كنت صغيرة؟ ما زلت أكرهك منذ ذلك اليوم!

أجابني باستحياء:

- لأني كنت جباناً.

- مع أنّك كنت تحمل السلاح في ذلك الوقت!

- وهل يحمل السلاح غير الجبناء؟

أنت أيضاً تحمل سلاحاً كذلك المليشياوي، وبعد ساعات سنلتقي، وسترفع لي طرف الفستان مثله، وربّما لن تكتفي برفعه فقط، ربّما ترفع معه كلّ شيء؛ لماذا أسامحك أنت، ولم أستطع مسامحته هو؟

هو حرمني من ارتداء مجرد فستان، بينما أنت حرمتني مني! حسناً، لن أقوم بجرد حسابات معك الآن، فهذا ليس الوقت المناسب لذلك.

ينتابني شعور جميلٌ جدّاً لأنني سأرتدي فستاناً بعد كلّ هذا العمر!

فصلّتُ في مخيّلتي فستاناً بسيطاً جدّاً، أكره الفساتين المرصّعة بالخرز والأحجار الكريمة، أحبها بسيطة مثلي

وفضفاضة مثل أحلامي، واسعة من الأسفل، وتضيق تدريجيا حتى أسفل الصدر؛ يروقني أن يبدو صدري بارزاً فيها كي تتفاجأ بحجمه، بالمناسبة! نسيت أن أخبرك أمراً:

لقد كبر صدري، حتى إن إحدى جاراتي قالت لي حرفياً:

"كم أحسدكِ لأنّ صدركِ كبيرٌ، فالرجال يحبون صدرَ المرأة كبيرَ الحجم، وكذلك مؤخرتها."

فرحت كثيراً يومها، حتى إني ما إن وصلت المنزل حتى دخلت غرفة نومي، خلعت ملابسي العلوية، ورحت أتفرّج على صدري. يا إلهي! لقد كبر حقاً، كيف لم أنتبه لهذا الأمر من قبل!

يروقني أيضاً أن أنتعل الحذاء الأحمر مع ذلك الفستان الأسود، سيبدوان متناسقين إلى حدٍّ ما، هذا الحذاء اشتريته منذ مدة، ولم أنتعله حتى الأن بعد أن اعترض زوجي على شرائه بحجّة أنّ لونه مبتذل، ولا يليق بامرأة محترمة مثلي!

مللت الاحترام، لذا سأرتديه لأوّل مرة من باب إعلان العصيان بوجه كلّ الأشياء الممنوعة.

اشتقت لأن أجرّب الأشياء لأوّل مرّة، تلك التي لم أجرّبها إلا معك، وأنت صاحب ذلك الحضور النادر والباذخ والكثير!

مررت ببائع العطر، فأنا لم أشتر العطر منذ أن افترقت عنك.

"لجلدكِ رائحة جميلة جداً، إياكِ أن ترشي العطر الاصطناعي فوقه فتفسدي تلك الرائحة." أعجبتني كثيرا تلك الكلمات، مع أني صدّقتها قليلاً!

مُنذ ذلك اليوم، وأنا أكتفي بمشاهدة زجاجات العطر خلف الواجهات ولا أشتريها. زوجي الذي لا يشبهك بشيء، في كلّ مرّة يأتي لي بعطر فرنسي لأتعطّر له به. لم ينتبه يوما لرائحة جلدي وأنا التي أتقاسم معه الفراش منذ سنين طويلة!

كيف أشرح له أنّ لجلدي رائحة جميلة، وأنّ عليه أن يجرّب التعّطر بها يوماً؟

ثمّة أشياء لا يمكن شرحها، على الآخرين اكتشافها من دون أن نلفت انتباههم إليها، أشياء لا تتكرّر، ولا يمكن إلّا لرجل واحد أن يبهرنا بوجودها، رجل مثلك أنت!

كنت رجلاً مختلفاً، كنت صرحاً من الرجال!

حبّك هو من أدخلني في زحمة الأحاسيس للمرّة الأولى، ذلك الحب متسارع الأحداث، البعيد عن النمطيّة والملل؟

الآن، أعيد تهيئة مشاعري من جديد، أجري لها عملية فلترة من كلّ المحظورات، أنقيها من كلّ الخطوط الحمراء والسوداء، لأتورّط معك بعلاقة أخرى تحوم حولها ألف شبهة وشبهة!

كيف أعدتني إليك بهذه السهولة؟ كيف أطحت بكل هذا العناد الذي أدّعيه أمام الآخرين؟ أنا التي لم أعتد الالتفات للوراء ولا التباهي بخيباتي!

كيف استطعتُ الإفلات والعبور إليك مخترقة كلّ تلك الثكنات والمعابر والمقابر والمخابر الشرقية؟ وأنا أتجوّل الآن في السوق، أبحث لك عن هدية تشبهك، هدية ثمينة بحجم ذلك الحب الذي أسأنا تقديره عندما راهنّا على أنّه الحب الأكثر صلابة، وإذا به الأكثر ضرورة!

تصوّر؛ أكثر من ساعتين وأنا أبحث لك عن هدية وسط كلّ هذه الهدايا التقليدية!

لم تكن رجل دين تقليدي فكيف أنتقي لك هدية تقليدية؟

هذا معيب بحق كلينا! استوقفني محل للأنتيك؛ دخلت إليه وكأنّي أدخل إليك.

تفحّصت معظم الأشياء القديمة في المحل، أعجبتني جميعها، ومع هذا لم أشتر ولا واحدة منها!

يصعب علينا اختيار الهدايا عندما تكون لمن يشبهوننا بالطباع، تلك الهدايا التي تكنّ للذاكرة الكثير من الاحترام والتقدير!

وأنا أتجوّل بين تلك القطع الأثرية التي سحبتني بذاكرتي إلى بيت جدتي، يسألني صاحب المحل:

- يبدو أن ذوقكِ صعب جدّاً في انتقاء الهدايا سيدتي؟

هل تسمحين لي بأن أختار أنا لكِ هدية؟

- لا طبعاً، كيف تختار أنت هدية لرجل أحبّه أنا!

هذا أمر غير منطقي!

- حسناً، سأسدي لك نصيحة إذاً، عليكِ انتقاء هدية يحبها هو لا أنت.

- معك حق.

تذكّرت أنّك مولع بالسبحات، وأن السبحة لا تفارق يدك.

كيف نسيت أمراً كهذا؟ لو لم ينبّهني صاحب المحل بأن أشتري لك هدية تحبها أنت لما فعلت! أعجبتني سبحة بنية اللون، تناولتها ووضعتها في حقيبتي قبل أن أدفع ثمنها الذي تفاجأت بأنّه: مائة دولار!

خجلت أن أخرجها من حقيبتي، وأعيدها للبائع بعد أن صُعقت بثمنها، دفعت له المئة دولار، وأنا أتظاهر بالارتياح!

إنّه لأمر محزن جدّاً أن أدفع كلّ هذا المبلغ من أجل سبحة بنّيّة لا قيمة لها سوى أنّك تحبّها!

تذكّرت موسم زيارة الأماكن المقدّسة عندما كنت صغيرة، حين كان بعض أهل القرية يذهبون لزيارة مقامات أهل البيت في إيران والعراق والشام، كانت هداياهم الرمزية لنا نحن الفقراء متشابهة، إذ كان كلّ زائر منهم يهدينا سبحة سوداء.

لا أعلم لماذا كانت أمّي تأخذ تلك السبحات على الرغم من أنّنا لم نستخدمها يوماً! كانت تقول: إنّها من رائحة أهل البيت.

امتلأت جواريرنا بالسبحات السوداء، فخطر لأخي عباس أن يضع قسماً كبيراً منها في كيس بلاستيكي، ويبيعها لبائع الخردة.

ما إن فتح البائع الكيس حتى تفاجأ بتلك السبحات، وقال لعباس ضاحكاً:

- لأوّل مرّة أرى أحداً يبيع سبحات، كيف تفكّر ببيعها وهي من رائحة أهل البيت؟

- عندنا منها الكثير، ولقد أبقيت القليل منها في البيت.

- لكن هذه الأشياء لا تُباع!

- وماذا نفعل بها إذاً؟

- وزّعها على الفقراء.

ردّ عليه عباس ضاحكاً:

- ليس هناك في القرية من هم أفقر منّا، ثم إنّ كلّ فقراء القرية بيوتهم مليئة بالسبحات، هي لا قيمة لها.

- كيف تقول هذا؟ هي قيّمة جداً؟

- اشترِها ما دامت قيّمة كما تقول!

شعر البائع بالحرج يومها فاشتراها بثمن بخس، وما إن غادر حتى راح عباس يعدّ تلك النقود ليرى إن كانت تكفي لشراء قطعة من المثلّجات لكل واحد منّا، فوجدها تنقص ثمن اثنتين، فأسرع إلى البيت وأحضر بقية السبحات، ولحق بذلك البائع، وعاد إلينا محمّلاً بقطع المثلّجات.

منذ ذلك اليوم صرنا نفرح كلّما أحضر لنا أحدهم سبحة من المقام لنجمعها، ونبيعها كما فعل عباس.

انتقلت تلك العدوى إلى بقية فقراء القرية الذين أجمعوا على أنّ المثلّجات أهمُّ بكثير من تلك السبحات السوداء!

أشعر بتأنيب ضميرٍ كبيرٍ، وأنا أحمل إليك هذه المسبحة الثمينة في حقيبتي، وكأني أحمل بداخلها مائة جائع، ومائة يتيم، ومائة لاجئ كانت ستكفيهم تلك المائةُ دولار شراءَ رغيف خبز لكل واحد منهم!

أخرجت تلك السبحة من حقيبتي، ورحت أستغفر الله على شرائها بهذا السعر، فمنذ طفولتي تلازمني عقدة الفقر، عندما يشتري لي زوجي هديّة ما، أسأله عن سعرها قبل أن أشكره على شرائها، لهذا ينعتني بأنّي "فقرية!"

أعشق تلك الكلمة، حين يقولها لي أشعر وكأنّها تضاهي عندي كلّ كلمات الغنج والدّلال.

"وصلتُ مطارَ اسطنبول"

أربكتني رسالتك جدّاً، كان من المفترض أن تصل طائرتك بعد أربع ساعات من الآن! كيف تسمح لنفسك بأن تغيّر موعد إقلاع الطائرة، وموعد هبوطها، وتلزمني بمواعيدك المستعجلة، وكأنني خلقت فقط لأنفّذ أوامرك، ورغباتك، ولأقدّم لك الولاء والطاعة متى أردتَ ذلك!

تستفزّني عنجهيتك التي تحشرني دائماً في خانة العبودية!

بعثت إليك برسالة توضيحية، لطالما اكتفيت بالتوضيح منك لا أكثر:

- لماذا استعجلت المجيء؟

- لأكسب مزيداً من الوقت معك.

- لكنّي سآتي حسب موعدنا السابق، كان عليك إخباري بأنّك ستقرّب موعد اللقاء.

- تعالي الآن، دعي كلّ الأشياء خلفك وتعالي!

- أنت عشوائي جداً، عليّ أن أقوم ببعض الأعمال قبل أن ألتقي بك.

- عن أي أعمال تتحدّثين؟ وأنا أسمع ضربات قلبكِ بأذني.

- الله يلعنك.

أقفلت هاتفي، وكأنّ أحدهم كان يتلصّص عليّ، وأنا أستحمّ بنوبة من الارتباك الشديد!

سألتني تلك المرأة التي كنت أنتقي من محلها قطعة قماش كي أذهب بها على وجه السرعة إلى بيت صديقتي سهام لتخيطها:

- كأنكِ ترتجفين! اجلسي وارتاحي قليلاً ريثما تهدئين.

بكلمة واحدة منك تجعلني أرتجف أينما كنت من دون أي مراعاة لإحراجي أمام الآخرين.

- هل هو الحب؟

تسألني تلك المرأة وهي تناولني كوب الماء.

- كبرنا على الحبّ؛ أجيبها وأنا أفتعلُ المزاح، هي مشكلة عائلية ليس إلّا!

- أعتذر، يبدو أني أخطأت في تشخيص حالتك.

خرجت من محلها مسرعةً، وكأني أهرب من فضيحة على وشك أن تنال مني، وفي حالة من اللاوعي التي سيطرت عليّ صعدت الدرج المؤدي لمنزل سهام، ما إن فتحت لي الباب حتى أسرعت إلى الحمّام، بينما وقفت هي تضحك عليّ، انشغلت سهام بأخذ مقاس جسدي، بينما انشغلت أنا بالتفكير بذلك اللقاء الذي سيجمعني بك بعد كلّ هذا الفراق، هنا في اسطنبول!

تدهشني هذه المدينة التي يهرب إليها كلّ من لا حول له ولا قوة، يدهشني جنونها الذي لا يهدأ طوال الوقت، وكأنّها في سباق مع كلّ شيء يسير للأمام.

هذه المدينة لا تعرف النعاس أو النوم، حتى إنّها لا تجيد السير على أقدامها في النهار، هي تقفز وكأنّها غزال! والكل يلحق بها على أمل الوصول إليها.

يُقال: إنّ اسطنبول لم تخذل أحداً يوماً، فكيف تخذل عشاقها السرّيين أمثالنا؟

هذه المدينة تنفرد بترتيب اللقاءات الاستثنائية للعشاق تحديداً.

كيف نسيتُ أن أحدّثك عنها، عن جنونها ومآذنها وجسورها، كيف نسيت أن أحدّثك عن أهم معالمها الخرافية، والذي هو جسر البوسفور؟

ذلك الجسر الذي أُطلق على فكرة بنائه "بالخيالية " والذي أُدرج على أنّه أحد المشاريع الأكثر جنوناً في العالم!

تلك الأشياء التي تشبهنا بالجنون نادرة جداً لذا علينا أن لا نفوّت فرصة التعرّف عليها عن قرب، كي نصبح أقل غروراً ممّا نحن عليه.

جسر معلّق أشرف على بنائه ستمئة مهندس، ولم يكلّف الدولة التركية فلساً واحداً حيث تكفّلت شركات خاصة ببنائه مقابل إدارته لعشر سنوات وشهرين، ومن ثم تسليمه لوزارة النقل التركية.

أيّة دولة هذه التي تملك كلّ هذا الكم الهائل من الخيال، في حين تغرق بيروت عاصمة الجمال بأكوام القمامة وتعاني، أزمة خانقة في الاقتصاد، ممّا تسبّب بإغلاق مئات الشركات الخاصة في لبنان!

- هههيييي، أين أنتِ؟

تسألني سهام وهي ترميني ببكرة الخيطان فأجيبها بسؤال آخر:

هل زرتِ لبنان يوماً؟

- هههههه، لم تكن زيارة، لقد اضطررت للجوء إليه في الحرب وليتني لم أفعل، "إنتو اللبنانية طول عمركن شايفين حالكن علينا نحن السوريين"

راحت سهام تحدّثني عن معاناتها في لبنان وهي تخيط لي ذلك الفستان، وكنت أسترجع كلام ذلك الشاب الفلسطيني الذي علّق على إحدى الصور التي نشرتها على حسابي على الفيسبوك، والتي يظهر فيها مخيّم عين الحلوة، وهو محاط بالأسلاك الشائكة التي لا تختلف بعنصريتها عن جدار الفصل العنصري الذي بنته إسرائيل.

علّق ذلك الشاب بكلمات أقسى بكثير من تلك الصورة التي نشرتها فكتب:

"أقسم لكِ إنني أشعر بالرعب كلّما قرّرت الخروج من المخيّم، أخاف عناصر ذلك الحاجز الذين يتمركزون عند مدخله، تماماً كما يخاف فلسطينيو الداخل الحواجز الإسرائيلية!"

أي مستنقع عنصري ذلك الذي غرقنا في وحوله؟

ذلك الفلسطيني الذي نستخفّ بعقله، ونعده بتحرير فلسطين، ونحن نسجنه في مخيم تفوح منه رائحة الذل، ذلك الفلسطيني الذي لم نوّفر وسيلة لأجهزة التنصّت إلا وجرّبناها عليه!

لم نوّفر تهمة للإرهاب إلّا وألصقناها به بعد أن حوّلنا مخيّمه الصغير إلى مربع أمني، لا يدخله من دون تفتيش دقيق، ولا يخرج منه من دون الخضوع لاستجواب كما لو أنّه فارٌّ من العدالة!

فلسطين كذبتنا الكبرى! قضيتنا المزعومة التي كنّا نعتاش منها على مدى عشرات السنين! معركتنا السطحية التي لم ندوّنها يوماً في سجّل معاركنا الحقيقة.

فلسطين ككربلاء، النواح عليها ولأجلها من أولويات مصالحنا كي نبقى في الواجهة، واجهة الحروب، واجهة الجهل، وواجهة الهزائم!

نحن الذين كنا نعاني في تحديد وجهة نظرنا لمفهوم قضية بهذا الحجم اسمها القضيّة الفلسطينية، فمرّة نتذرّع بأنّ فلسطين هي همّنا الأكبر، ومرّة نقلّم أظافر أي فلسطيني يتجرأ أن يجعل من الجنوب معبراً لعملياته العسكرية ضد المحتل الإسرائيلي!

أذكر عندما طلب منّا أستاذ اللغة العربية ذات مرة أن نكتب موضوعاً تعبيرياً عن الوطن، لجأتُ لجدتي الحاجّة آمنة، وطرحت عليها السؤال التالي:

- جدتي: عرّفي الوطن؟

- الوطن هو ذلك، وأشارت بعكازها إلى ما بين فخذي!

شعرت بالخجل يومها! واستغربت هذا التشبيه من جدتي، لكن سرعان ما كبرت لأخرج باستنتاج عميق جدّاً لتعريف الوطن؛ كان ذلك عندما سمعت حواراً بين أحد الشبّان السوريين الذين أصبح أقصى أحلامهم الهرب من الوطن، وأحد المهرّبين:

- أستطيع تهريبك خارج سورية، لكن الأمر مكلف جداً، قل لي كم في جيبك وأنا سأتدبّر الأمر؟

أجابه ذلك الشاب ببساطة شديدة:

- هذا كلّ ما أملك، هذا الحيلة والفتيلة، وأشار بيده لعضوه الذكري، بينما انفجر ذلك المهرّب بالضحك.

كانت جدتي أكثر جرأة من كلّ رجال السياسة والدين، ومن مدرّس اللغة العربية، عندما أبدعت بذلك التشبيه، وكان ذلك الشاب صادقاً جدّاً!

الوطن هو ذلك الشيء الذي يتسبّب لنا بالفضيحة، عندما نحصر كلّ إنجازاتنا به وحده!

قالت سهام إنّها تحلم بالحصول على الجنسية التركية، وإنّها تتمنى أن تتخلّص من عروبتها التي تسببّت لها بكل هذا الذل على مدى سنوات اللجوء.

قاطعتُها قائلة:

- هل لديكِ حبة دواء لوجع الرأس؟

لم يكن رأسي يؤلمني، لكنَّني كنت أريد منها أن تكّف عن الكلام ولم أجد طريقة غير أن أسألها هذا السؤال.

ما إن قامت من خلف ماكينة الخياطة، وهمّت بالخروج من الغرفة، حتى سمعنا صوتاً ينبعث من خلف الباب، وكأنّ أحدهم كان يسترّق النظر إلينا!

لحظات وعلا صوت سهام وهي تتشاجر مع زوجها، وتوبخه على عادته في التلصّص على زبائنها من خُرم الباب، ضحكتُ كثيراً حين سمعتها تشتمه، كنت بأمسّ الحاجة للضحك في تلك اللحظات!

عادت غاضبة من دون أن تحضر حبة الدواء، وراحت تشكي لي زوجها، وعاداته السيئة التي تحرجها طوال الوقت، والتي تسببت بخسارتها للكثير من الزبونات.

أي نساء هؤلاء اللواتي حالفني الحظ بالتعرّف إليهن؟

صديقات أمّي البائسات اللواتي علّقن كلّ أحلامهن على ذكورة رجل لن يأتي؟ أم جارتي المسكينة التي لم توّفر طريقة لإغواء زوجها وإشباعه من دون أيّة فائدة تذكر؟ أم سهام التي تقضي نصف نهارها خلف ماكينة الخياطة لتتقاسم كلّ ما تجنيه من مال مع زوجها السكّير الذي لا يقدّر إلّا ما في جيبها!

أي بؤس ذلك الذي يلازم هؤلاء النساء؟ أشعر أني المحظوظة الوحيدة بينهن، أنا الوحيدة التي لا تشبههن بشيء، والتي لا تطيق أن تعيش بدرجات البؤس نفسها التي يعيشنها هن!

حملت فستاني وسبحتك، وعدت بهما إلى البيت لأتفاجأ بزوجي وقد عاد باكراً من عمله على غير العادة، وبابني الصغير مرمياً في السرير، وقد ارتفعت حرارته.

- لماذا هاتفك مقفل؟ اتصلت بكِ إدارة المدرسة لتخبرك بأنّ طفلنا يعاني من ارتفاع في درجة الحرارة، لم يجدوك فاتصلوا بي أنا!

- أخذته إلى الطبيب؟

- بالطبع، وهذه أدويته.

- هل حدث كلّ هذا أثناء غيابي؟

- اهتمي بالطفل، سأعود إلى العمل، وإذا حدث له أي مكروه أخبريني.

أنت، أنت السبب في كلّ ما يحدث الآن، أنت السبب في ذهابي إلى السوق، وأنت السبب في إغلاقي لهاتفي، وأنت السبب في هذا الشعور الذي ينتابني الآن.

أشعر برغبة شديدة بالتقيؤ على نفسي، أشعر بأنِّي لم أعد مؤهّلة لأن أكون أمّاً عظيمة! أصابتني بالحسد إحدى قريبات زوجي حين قالت لي ذات يوم:

- أنت أمٌ أكثر من اللازم.

ها أنت اليوم تشغلني عن أمومتي كلياً، وها أنا أجلس إلى جانب ابني أضع له الكمّادات على جبينه على الرغم من أنّ حرارته عادت إلى وضعها الطبيعي، أفعل ذلك من باب التعويض عن التقصير، أحضنه وأفكر بك، لم أفتح هاتفي إلّا بعد أن غطَّ بالنوم، فعلت هذا كي أعاقبك وأعاقب نفسي.

أربعون مكالمة منك، وواحدة من زوجي، وثلاثة من إدارة المدرسة، دائما تتفوّق على الجميع، تتقدّمهم بالعدد، وتتفوق عليهم بالحضور.

أتمدّد إلى جانب ابني على السرير، تارة أنظر إليه وتارة أنظر إلى الهاتف. مشاعر متضاربة شطرتني إلى نصفين، أمٌّ ضالّةٌ، وعاشقة تخشى فوات الأوان والمواعيد المؤجلة.

تضيء شاشة الهاتف بين الحين والآخر، فأعلم أنّك من أشعلت النور بداخلها، أتظاهر بأنّي لا أعيرك أي اهتمام، بينما قلبي يهتز كمريض مصاب بنوبة عصبية.

في كلّ مرة تتصّل فيها، أقول لك في سري خوفاً من أن يسمعني أحد:

- انتظر قليلا، فليس من العدل أن أترك ابني مريضاً، وأذهب إليك.

في الأمس، منذ أكثر من خمسة وعشرين عاماً، تركت خلفي أشياء كثيرة كي أحظى بك وحدك، واليوم عليك أنت أن تفعل ذلك.

عليك أن تتنازل قليلاً عن غرورك الذي أحبه فيك، وعن تلك اللغة التي تحدّثني بها، وكأنّك ضابطٌ مخابراتيٌّ، وأنا العسكري الذي أقوم بخدمتك، وعن تلك المفاجآت التي لا أتوقعها منك، فتزيدني تعلّقا بك. عليك أن تتنازل عن ذلك العناد والابتزاز العاطفي اللذين يستفزانني جدّاً!

وماذا يعني أن تنتظرني في مطار اسطنبول لثلاث ساعات، أو أكثر؟

لماذا دائما أنت من عليه أن يتسيّد كلّ شيء، بينما عليّ أنا أن أكتفي بأن أكون واحدة من ضمن أشيائك الكثيرة؟

"لن أغادر اسطنبول قبل أن أراكِ، هل تفهمين ما أقول؟"

أسلوبك الاستبدادي المحبّب يلسعني، أنا التي أحارب كلّ مستبدي العالم، وأضعف أمام استبدادك لي!

لم أنم، هذه الليلة الألف التي لم أنم فيها بسببك، معدتي خاوية تماماً، كلّ من في المنزل يعتقد بأنّي لم أتناول الطعام بسبب مرض ابني المفاجئ، لكنَّني لم أتناوله لأني أحبك! لسوء حظي أن زوجي كان رومانسياً هذه الليلة أكثر من أي وقت مضى، وضعت له أحمر الشفاه، وكنت أقبلك أنت، قلت له مرّتين: "أحبك"، وفي المرّتين كان قلبي يلتفت إليك، وكأنّه يقول لك:

- لا تصدقها، فهي تحبّك أنت.

لأوّل مرّة يطلب مني أن أغني له، فوجدتني أنشد له أنشودتي المفضّلة:

"علي علي مولاي علي علي مولاي"

وكان سعيداً بها، هو لا يعلم أنّك أنت عليّ، وأنّك أنت نفسك مولاي!

هذه الليلة طويلة جداً، تشبه تلك الليلة التي أحببتك فيها للمرّة الأولى، لكنّها أكثر تعقيداً! كلّ شيء حولي يبدو طبيعياً،

وحدي أنا خارج كلّ الأشياء؛ خارج هذا السرير، وهذه الغرفة، وهذا البيت، حتى إني خارج نفسي!

رسائلك الوقحة التي لم تتوقّف عن الثرثرة حتى هذه الساعة المتأخّرة من الليل، وهذا الهاتف المجنون الذي يستفزّني بإشعاراته كلّ دقيقة، وأنت بداخله تتوسّلني كي أردّ على رسائلك

- أجيبي، لماذا تقرئين رسائلي ولا تجيبين عليها، على ماذا تعاقبينني؟ أجيبي.

أنا لا أعاقبك، أنا أعاقب نفسي، أنت لا تعلم الانفصام الذي أعيشه في هذه اللحظات، وهل تريدني أن أقول لك أحبك على وقع شخير زوجي الذي يغط بالنوم إلى جانبي؟

ابني المدلَل الذي أصرّ على النوم إلى جانبي، كيف أقنعه أن هذه الليلة كغيرها من الليالي؟ حين قال لي: "أحبك ماما"، قبل أن يدس رأسه في حضني، ويغط في النوم، احتقرت نفسي، كيف أحضنه، وأنا منشغلة في التفكير بك؟

تسلّلتُ من سريري كلصٍّ محترفٍ لأرتشف قهوتي السادة، وأرتشفك معها، أبتلع كلّ سجائري علّني أصاب بالتعب، وأخلد إلى النوم، جميعهم نيام إلا قلبي، حتى ذلك الكلب المحظوظ الذي يغفو عند أسفل المبنى المقابل. أنت لا تعلم كم تدلّل اسطنبول كلابَها.

كم تدلّل عشّاقها، وجسورها، ومساجدها، أنت لا تعلم كم تغويك هذه المدينة لأن تغرم بأحدهم، كم لديها من الإمكانيات

لاحتواء جنونك، أشعر بأنّها كانت أحدَ الأسباب التي حرّضتني لأحبك من جديد!

هذا الحبُّ المكتظُّ بالقلق والتردّد، والمتورّطُ بمزاجية الظروف، واللقاءات المؤجلة حتى إشعار آخر.

يتعبني التفكير بك، وسط كلّ هذه المحظورات التي تحاصرني، وسط كلّ هذه الألغام التي قد تنفجر في أي لحظة، أعصر كلّ ما بي من قوة لأستخرج سبباً مقنعاً كي أترك كلّ هذا وأذهب إليك وحدك.

لم يكن مجرّد زواج ذلك الذي عشته معه على مدى كلّ تلك السنوات، كان خليطاً من الأحداث والمشاعر والالتزامات المكررة.

لم تكن مجرّد وثيقة تربطني به، هي أشبه بمعاهدة إنسانية، أبرمناها يوماً من دون أيّة حسابات مادية. هي سنوات قضيتها برتابتها حتى أفرغتني من كلّ ذلك الجنون الذي كان يتلبّسني.

إنّه أمر بغاية الصعوبة، أن تفقد قدرتك على أخذ قرار معقّد بهذا الحجم فتقف كالأبله مكتوف اليدين، بينما كلّ الأشياء حولك تنتظر منك أن تسرع نحوها.

ها أنا أسرع نحوك أنت، بهالاتي السوداء التي تحيط بعيني الاثنتين، تركتهم جميعاً وجئت إليك. يتقدّمني هذا القلب اللعين وأنا أخطو نحوك، يضعني تحت الأمر الواقع، يفرض عليّ السير خلفه وكأنني سبيّة، وكأنّه دكتاتور عربي!

العبور إليك هذه المرة مختلف ومخيف، لم أقصّر في حبك يوماً، كنت دائماً أفرد لك كلّ ممتلكاتي الجسدية، وأهبك ما تريد من دون أي حساب أخلاقيٍّ، أما الآن فأنا أضعف من قبل بكثير! على الرغم من أني أحاول أن أُظهرَ لك العكسَ، أسير إليك منكسة الرأس، فلا أحد يعرف إهانة الحب مثلي، بساقين متعبتين، ويدين فارغتين، أدوس امومتي التي طالما تفاخرتُ بها، ناسيةً كلّ تلك التحضيرات التي تدرّبت عليها لهذا اللقاء، وكأني على موعد مع أحد مسؤولي البيت الأبيض، أو أحد أعضاء الكونغرس، نسيتها تماماً. اكتشفت للتوّ وأنا أجتاز مباني اسطنبول الشاهقة بأنّ المواعيد مسبقة التحضير مليئة بكثير من التكهنات والتشويق والاضطرابات النفسية والجسدية!

تصوّر مثلا: قبل لحظات تذكّرت أني نسيت أن أجلب معي تلك السبحة التي اشتريتها لك بمئة دولار، هذا يعني أن هناك مئة دولار أهدرتها من دون أيّة فائدة تُذكر، أنا التي كنت أحلم بلمسها ذات يوم، ليس هذا فحسب، نسيت أن أرتدي لك ذلك الفستان الأسود الذي فصّلتْه لي صديقتي سهامُ خصيصاً لهذا اللقاء الاستثنائي، والذي كلّفني ما يقارب المئة دولار هو الآخر! يا إلهي! اللقاء بك أصبح مكلفاً للغاية! مكلفاً لدرجة أني تركتهم جميعهم من أجلك أنت!

تصرّفت كعادتي هذا الصباح، أعددت القهوة لزوجي، حضّرت له البدلة الرسمية التي لم أحبها يوماً، وربطة العنق التي أكره أن يلبسها، ولأوّل مرة قلت له:

"تبدو جميلاً هذا الصباح أكثر من أي وقت آخر"

حقيقة، لا أعلم لماذا قلت له تلك الكلمات، ومن دون أيّة مناسبة، ربّما هو اعتذار مسبق مني عن تلك الخيانة التي أحضّر لها معك، أو ربّما هو تمهيد جميل لفراق مفاجئ لم يكن بالحسبان يوماً!

كان عليّ أن أحرق وثيقة زواجي قبل الخروج من البيت، أن لا أترك دليلاً على أني زوجة لرجل آخر غيرك!

كان عليّ أن أمسح بصماتي عن كلّ الأواني المنزلية، وزجاجات العطر، ومنشر الغسيل، وعن ألعاب أولادي ودباديبهم البيضاء، وعن مفتاح غرفة النوم، وفرشاة الشعر، وقلم الحمرة... كان عليّ أن أخفي كلّ تلك الأدلّة التي تدينني كزوجة وأمٍّ.

أفرطتُ في تدليل أولادي أكثر من اللازم قبل خروجي من البيت، حتّى إني أطعمتُ بعضهم بيدي، أردتُ أن أكون أمّاً مثاليةً للمرّة الأخيرة، وحين سألني ابني الصغير:

- ماما، إلى أين أنت ذاهبة؟

أجبته وبكل وقاحة:

- إلى الطبيب.

أنت طبيبي، وها أنا على بعد عشرين كيلو متراً منك، هكذا يخبرني الموقع الذي بعثته لي ليلة أمس، أخطو إليك بكامل نقصي، يجرني حبي إليك من جديد، لينسف سنواتٍ من الطهر والمثالية، قضيتها وأنا أنتظر لحظة كهذه أنحرف بها عن كلّ شيء مرّة واحدة.

أمشي في طرقات لا أعرفها، فاسطنبول مدينة واسعة الصدر، تعيش فيها عشرات السنين ثم تفاجئك بمزيد منها، من شوارعها ومبانيها وحدائقها وقططها وكلابها المدلّلة ومآذنها الفاخرة!

هذه المدينة تصيبك بالدهشة، فكل شيء فيها تم تصنيعه ليترك أثراً في ذاكرتك، ليعلق فيك وكأنّه عطرٌ أثريٌّ.

لم أفكر يوماً بالإقامة في اسطنبول، لطالما كانت الإقامة فيها خارج حساباتي وتوقعاتي، لكنَّها الصدفة هي من قادتني إلى هذه المدينة!

أخافتني هذه المدينة في بداية الأمر؛ كلّ شيء فيها يبدو أكبر من حجمه، وأجمل مما كنت أتوقع! هنا تتساوى كلّ الأشياء مع بعضها البعض، الجمال والجنون والزحمة وعالم الماركات، الكل أخذَ حقَّه في هذه المدينة.

في بداية إقامتي هنا أثار دهشتي حجمُ الدلال والعناية اللذين توليهما اسطنبول لكلابها التي تملأ الشوارع. قلت لزوجي يومها:

"كم من العرب يتمنّون أن يحظوا في بلادهم ولو بجزء صغير من هذا الدلال!"

إنّه لأمر مخزٍ جداً أن تحسد كلباً على تفاصيل يومه، أو أن تتمنى لو أنّك كنت مكانه!

أنا الآن، لا أحسد تلك الكلاب فقط، أنا أحسد كلّ شيء أعبر من أمامه، الأبنية العالية، المحال التجارية الراقية، الناس الذين يعبرون ووجوههم منكبّة على هواتفهم الحديثة، القطط المسالمة، إشارات المرور، جميعهم أحسدهم لأنّهم لم يتورّطوا بحبّك كما تورطت أنا!

منذ قليل مررت ببائع الورد، ولم أشتر لك واحدة، إنّه لأمر مهين بحقي أن أقلّد الآخرين، وأحمل لك الورد بعد أن حوّلني حبك لحديقة عامة، توزّع الأكسجين على كلّ من مرّ بها، وتمنح الضوء للعصافير ومراجيح الأطفال، ومقاعد المشبوهين من العشاق أمثالنا أنا وأنت!

يشغلني أمرٌ سخيفٌ جدّاً، كيف سأمدّ يدي، وأصافحك بعد كلّ تلك السنين!

هل تصدقني لو أخبرتك بأنّي لم أصافح رجلاً بعدك! حاولتُ أكثرَ من مرّة أن أكسر تلك القاعدة الشرعية، وأصافح أحدهم، لكنّني كنت أسحب يدي ما إن أتذكّر تلك الرعشة التي أصابتني عندما لمستَ أصابعي للمرّة الأولى، كنت سأحزن كثيراً لو ارتعشتْ أصابعي لرجل آخر غيرك!

لم أكن لأسمح بحدوث ذلك، ما زلت أجهل سرّ كلّ هذا الوفاء الذي يكنّه جسدي لك! الآن وأنا أجلس في حديقة EMIRJAN، أفتح هاتفي لأطمئن عليك، لأقرأ رسائلك الأربعين كقواعد العشق!

آخر رسالة بعثتها إلي كانت منذ ثلاث دقائق، لا أعلم سبب كلّ هذه الشتائم في رسالتك الأخيرة؟

"تعي يا بنت الكلب"

كيف تجرؤ على وصفي بعبارة كهذه، هل فقدت عقلك؟

تُرى أين تذهب كرامتنا عندما تلفح قلوبنا رياح الحب؟ تلك الرياح الهمجيّة التي تهبُّ علينا من كلّ حدب وصوب لتقتلع قلوبنا من مكانها بذريعة الحب؟

كيف نتنازل عن هذا الجزء المهم من كبريائنا؟

أقرأ شتائمك لي وكأنّها غزل محبّب، وكأنّها ليست إهانة موصوفة، أعيد قراءتها مرّة أخرى وأنا أبتسم لها. ما هذا الحب الذي يمسح الأرض بكرامتنا بينما نحن نبتسم له، ونتابع السير إليه دون أي اعتراض؟

الحبّ وحده هو من يتحمّل مسؤولية ما يحدث لنا الآن نحن الاثنان!

هذه الكلمات البذيئة والشتائم المستفزّة، ما كنت لتتفوّه بها لولا أنّك تتضوّر شوقاً لرؤيتي، وما ذنبي إن نسيتُ أن أخبرك أني في طريقي إليك، وأني أتضوّر شوقاً لك أكثر منك بكثير!

الحب، هو الشيء الوحيد الذي أتفوّق به عليك، أما بقية الأشياء فأعترف بأنّك تملك حصرية التفوّق بها عليّ.

حرب غرامية باردة تدور بيني وبينك الأن، أنت تشتمني، وأنا أرد عليك بالتجاهل، أنت تسألني:

- أخبريني أين أنتِ الأن؟

بينما أنا يجتاحني الغرور فجأة، وأمتنع عن إخبارك بأنّي على بعد مئات الأمتار منك، وبأني أشعر برغبة في التبوّل، ولا أجد مكاناً مناسباً لأذهب وأتبوّل فيه، حتى إني ما زلت ضعيفة في إتقان اللغة التركية، وهذا ما يُصعّب عليّ الأمر، ربما أضطر لدخول أحد المساجد كي أفرغ مثانتي من هذا العبء!

يحزنني جدّاً أني لم أصلِّ صلاة الفجر هذا اليوم، ولا صلاة العشاء أمس، ولا المغرب، ولا أي فريضة منذ أسابيع.

يتسبّب حبي لك بالتقصير في كلّ واجباتي الدينية والأخلاقية والزوجية، حتى إنّه يجردني من أمومتي في كثير من الأوقات، لم أعد أملك موهبة الأمومة كما من قبل، ألهذا الحد أحبك؟

حتى إني لا أصدّق أني سأراك بعد قليل!

تغمزني إشارة المرور كي أعبر إلى الشارع الآخر، تذكّرني بغمزتك التي كانت أشبه بجواز عبور مزوّر، عبرت به حدود طفولتي إلى مخاطر رجولتك المخضّبة بالشبّهات.

هذا الطريق اللعين المؤدي إليك طويل جداً، أطول من أنفاسي التي تلهث خلفك منذ أشهر، أشعر وكأنّه هو من يمشي فوقي ولست أنا!

أشعرُ أنّ الشوارع الفرعية تحاصرني كلّما اقتربتُ منك وتضيّق عليّ الخناق كأنّها تُنذرني بصعوبة هذا اللقاء.

أكثر ما يقلقني في هذا اللقاء أني أذهب إليك بملء إرادتي من دون أن أنظر إلى الخلف، تحضرني مقولة لنابليون بونابرت:

"لن يذهب بعيداً، من يعرف مسبقاً أين يذهب! "

أعرف أني ذاهبة إليك، لكن ما لا أعرفه أين ستذهب بي أنت؟

أنت الذي تتفشى بي بسرعة قياسية، وكأنّك مرض عضال يحتاج ألف جرعة كيماوية، وألف نوع من العقاقير المستوردة، ومئات المشعوذين ومبطلي السحر، وأنا على يقين بأنّي لو شفيت منك لعدت، واستعنت بأضعاف هؤلاء كي أنتكس بك مرّة أخرى تجعل شفائي منك ميؤوساً منه.

إنّ أكثر ما يواسيني في عودتي النكراء لك، هو أنّك تبادلني الحب هذه المرّة أكثر من أي وقت مضى، حتى إني أكاد أسمع صرخات قلبك وهي تستعجلني للوصول، تستعجلني لارتكاب مزيدٍ من الخطايا بعد كلّ هذا الطهر!

تستوقفني امرأةٌ عجوز تجرُّ كلبها، يبدو من كلامها أنّها تطرح علي سؤالاً ما.

:"Ben türkçe bilmiyorum"

أجيبها بأنِّي لا أجيد اللغة التركية، هذه هي الجملة الوحيدة التي أصرّيت على تعلّمها، كي أتفادى الإحراج من الأتراك هنا.

أحمد الله أني لا أجيدها وإلا لكنت صرخت في وجهها:

"اغربي عن وجهي أيتها العجوز الشمطاء!" كيف أشرح لك ما أنا فيه الأن؟

هذا الهاتف المجنون لا يكف عن إزعاجي، يكاد ينفجر في وجهي كلّما نظرت إليه كي لا أرد على رسائلك المجنونة هي الأخرى، والتي يبدو من خلالها أنّك تعاني من نوبة غضب حتى إنّه يخيّل إليّ أنّك ما إن تراني ستصفعني على وجهي بكل قوتك.

مرتبكة جداً، أأرد على اتصال، أم أتتبّع الموقع الذي يدلّني عليك، أم أضبط كلّ هذا الجنون الذي يجرفني إليك؟

كادت سيارة تدهسني وأنا أقطع الشارع الذي يفصلني عنك، ذلك السائق اللعين راح يشتمني هو الآخر، وكأنّك نقلت له عدوى السباب، أنا أيضاً بدأتُ بشتم نفسي، كم من اللعنات أستحق؟

في ذلك المقهى الخارجي، ألمحك بعد أكثر من خمسة وعشرين عاماً! فجأة! تُضرِب خطواتي عن المشي، تعصي أوامري للمرّة الأولى، أتجمّد في مكاني وأنا أتلفّت حولي خوفاً من أن يراني أحد ويعيدني إلى البيت، كيف أصف لك كلّ هذه المشاعر التي تتدافع نحوي بهذا الشكل المخيف حتى إني لم أعد أطيق قلبي، كيف أشرح لك عن هذه البرودة التي تجتاح جسدي، وتليها

سخونة، فقلق، فخوف، فالتفاتات هنا وهناك؟ كلّ أعراض الخيانة تسطو عليّ في هذه اللحظات شديدة الغرابة!

"عندما تصبح الخيانةُ أمنيةً جميلة، كيف ستنتزع الفضيلةُ مقاليدَ الحكم منها فيما بعد؟!" سؤال غدرني وأنا على عجلة من أمري إليك فدفعته بعيداً عن رأسي، بتّ أخاف الأسئلة الجدّيّة، وها أنا عاجزة عن التقدّم إليك خطوة إضافية، وكل ما بداخلي يتسابق عليك. أقف على مشارفك وأطلال قلبي، أتوخّى الحذر والاقتراب منك قدر الإمكان، وكأنّك حقل من الألغام! أحتاج إلى قوّةٍ تعادلُ قوّةَ إعصار جوي تدفعني إليك من الخلف رغماً عني!

مرّتْ ستٌّ وعشرون ساعةً لم أذق خلالها طعمَ النوم، وستٌّ وعشرون سنةً وأنا أجمع الأيام والليالي، وأدّخرها للقاء كهذا، وها أنا أقف كعاجزة فقدتْ قدرتها على الحركة، أتفرّج عليك وأنت تغلي، وتفور على نيّةِ حضوري.

يدهشني حضورك الباذخ! ما زلت سيداً كما عرفتك، وما زلت أنا ضلعك القاصر! سجائرك التي تبتلعها بشراهة تزيدك جاذبية، وهذا الشيب الذي يملأ رأسك وجزءاً من لحيتك يطيح بما تبقى من رزانتي.

أتأمّلكَ من على بعد خطوات منك، وكأنّك شيء لا يُصدَّقُ، إنّها الذروة يا شيخي الجليل؛ ذروة الحب الذي أجبرني على العودة، وأجبرك أنت على المجيء، ذروة الشوق الذي شغلني عنهم

جميعاً ليشغلني بك، ذروة الذاكرة التي تحسم مصير كلّ الملفّات العاطفية العالقة.

ها هي الذاكرة تمارس كلّ لؤمها علي، تستفرد بي حتى قبل أن أرمي عليك السلام! ذاكرة لئيمة، لئيمة كأجهزة المخابرات في عالمنا العربي، تصر على نبش ملفاتنا السريّة والعلنية، وفتح صناديقنا السوداء، لتواجهنا بها على الملأ في هذا الوقت الحسّاس بالذات، وكأنّها تعاقبنا على طريقتها الخاصة! ذاكرة تلزمنا بالرجوع إلى الخلف قليلاً، ثم الرجوع أكثر فأكثر، حتى يصبح الاستسلام هو الحل الوحيد، وذلك عندما تفتح لنا أرشيفنا المختوم بالشمع الأحمر، فالذاكرة لا تعاقب إلا أبناءها الطيبين يا حبيبي.

أقسم لك إني كنت أنوي الاقتراب منك أكثر، كنت على وشك أن أصرخ بأنّي أحبك، على وشك أن أمرّغ قلبي عند قدميك، لولا تلك الذاكرة اللئيمة التي حضرت من تلقاء نفسها لتفرض علينا شروطها التعجيزية.

يا إلهي! لقد أحضَرتهم جميعهم معها: أمّي وأخوتي الصغار، عباساً ومهديّاً، وعماداً ولالو!

جميعهم هنا، أراهم بأم عيني! كيف أتصرف حيال كلّ هذه المشاعر المتضاربة! تجاوزتُ الأربعين، وما زلت عاجزة عن الإمساك بزمام مشاعري، أو اتخاذ قرار جدّيٍ في مثل هكذا حدثٍ مفاجئ!

أعلم حجم انزعاجك لحضورهم في هذه اللحظات المشحونة بكل شيء.

حسناً، سأخبر أخوتي الصغار أنّك لم تأتِ لتدفع لهم الخُمس كما كنت تفعل!

لن يصدقوني، أعلم ذلك، لكنَّني سأخبرهم بذلك كي لا يصابوا بالخيبة فيما بعد!

أمّي أيضاً، سأخبرها أنّ وجودك هنا لا علاقة له بزكاة الخُمس، سأكذب عليها كعادتي، وأخترع لها سبباً منطقياً، أمّي لم تغيّر عادتها، مازالت تثق برجال الدين أمثالك ثقة عمياء! ها هي تفتح معي حديثاً مطوّلاً عن الله، تخبرني فيه كيف أنّ الله استبدل عينها التي فقأتها الحرب بعين أخرى، عين جديدة غير مستعملة، وأنّها أصرّت على الحضور شخصيّاً كي تنقل لي هذا الخبر السار، أكاد أطير فرحاً!

عباسٌ أيضاً جاء ليخبرني بأنّه يحضّر لإقامة معرض في الجنة للوحاته التي رسمها مؤخراً، وأنّه سيدعو لحضوره عدداً كبيراً من الملائكة، خطر لي أن أسأله عن تلك القصور التي وعدتني بها في الجنة، لا بد وأنّه يعلم شيئاً عنها! لكنّني خفتُ أن يسألني ذلك السؤال البديهي:

"من أين لكِ كلّ تلك القصور؟"

ما من داع لكل هذه القلق، لن أخبر أحداً عن ذلك، فأنا لست عديمة الوفاء إلى هذا الحد! لن أخبره أيضاً أنك أصرّيت

على التمتّع بي في الليلة نفسها التي دُفن فيها، سيغضب كثيراً، وربّما يحمل السلاح مجدداً ليقتلك به، وهذا ما لا أريده، لا أريد لأخي أن يحمل السلاح مجدداً، ويُقتل مرّة أخرى!

أمّي أيضاً، لن أخبرها أني شربت الخمر بناء على طلبك، ستقع مغمًى عليها، فشُرب الخمر من الكبائر عندها، لن تسامحك على فعل ذلك، وستشتكيك إلى الله، وحتماً سينزل اللهُ عقابَه بك على وجه السرعة. أيضاً لن أخبرها بأنّك من طلبت مني تعلّم الرقص، وأنّك السبب المباشر في قصّي لمنديلها الأسود في ذلك اليوم كي أفصّل منه فستاناً لأرقص لك به، ولن أخبرها عن كلّ تلك الأكاذيب التي كنت تخترعها لها كلّما اشتهيتَ التمتّع بي!

عماد هو الآخر، يبدو مختلفاً عما قبل، ها هو يشرح لي عن البحث العلمي الذي قام به منذ أشهر قليلة، والذي نال عليه جائزة سماوية، وهي أعلى الجوائز هناك، يقول لي إنّه سيهديني تلك الجائزة في حال أحببته، وأنا ما زلت أحبك أنت!

كم من الجوائز السماوية تخليت عنها من أجلك؟

أشعر برغبة شديدة في أن أحبه بدلاً عنك.

حسناً، لا تقلق، عماد أيضاً لن أخبره بأنّك كنت تخطّط لتفجيره بعبوة ناسفة، لا بد أنّ هذا الأمر سيزعجه جداً، وربما يصاب بالجنون مرة أخرى وهذا ما لن أسمح به. قلت لك سابقاً: عمادٌ خطٌّ أحمرُ بالنسبة لي.

أعلم أنّك تكنّ له الكثير من الكره، لكنّ هذا لا يعني أن تستكثر عليه هذا الحضور الملفت!

لالو هي أيضاً تدوس على قدمي بقوة كلما هممتُ بالاقتراب منك، تمنعني عنك وكأنها تغار عليك مني.

إنّه شيء جميل ومخيف ما يحدث لي الآن. أموات يشغلونني عنك، أهتمُّ لأمرهم كما لو أنّهم أحياء، بينما أنت بالقرب مني لا أجرؤ حتى على مصافحتك، أو تقبيلك، أنا التي كنت أشتاق إليك إلى الحدِّ الذي هيّأ لي أني حين أبدأ بتقبيلك لن أتوقّف إلّا بسكتة قلبية.

يا إلهي! أسمع صوت أذان، حتماً ستقوم أمي، وتتحضّر للصلاة، فهي لم تؤخّر موعد صلاتها ولو لمرّة واحدة، أخشى أن تصرّ على خلع سروالها الداخلي كالعادة! إنّه أمر محرج للغاية.

أخوتي أيضاً يتسبّبون لي بإحراج كبير، أعتذر لك عن كلّ هذا الضجيج الذي يحدثونه في هذا الحي الراقي جداً، كان عليك أن تختار مكاناً آخر، مكاناً يشبهنا نحن، لا يشبهك أنت! اعذرهم، فهم ما زالوا أطفالاً، عليك أن تلوم مهديّاً فهو من أصرّ على أن يقيم مباراة ودية فيما بينهم، وطلب من عباس أن يرسمهم وهم يمارسون لعبة كرة القدم. أنت تعرف عباساً، يهوى رسم الأشياء على طبيعتها.

ههههه... لأوّل مرّة أرى عماداً وهو يركض خلف الكرة، وأخوتي يلحقون به! يا ويلي! أنّهم يتعثّرون بضحكاته، وهي

تتساقط منه على الأرض، لا بدّ أنّها خطّةٌ ذكيّةٌ منه كي يفوزَ فريقُه على فريق مهدي، كم أصبح ذكياً ذلك المجنون!

عماد يشوط الكرة لأخي حسين، حسين يشوطها لمهدي، مهدي يشوطها لأخي قاسم، قاسم يضربها برأسه نحو المرمى، صاحب المقهى يطلُّ من الداخل، لا بد وأنّ الضجيج الذي يحدثه أخوتي في الشارع قد أزعجه!

هههههه، لقد أخطأتُ التقدير هذه المرّة، فها هو يقف لمتابعة المباراة، يبدو أنّه هو الآخر مولع بكرة القدم مثل مهدي، الزبائن جميعهم متحمّسون إلّا أنت!

كوووووووووول... "هدف التعادل".

يسرني أنّهما تعادلا، أنا سعيدة جدّاً بهذه النتيجة.

لماذا لا تضحك مثلنا؟

هي الذاكرة اللئيمة يا شيخي الجليل ولست أنا!

"الحب يحتاج إلى طرفٍ مُعذِّب، وآخر مُعذَّب ليكتمل." لكن الذكرة لها حساباتها الخاصة، حساباتها المصيرية؛ قبل أن تأتي إليّ بهم جميعاً كنتُ أنوي العودةَ إليك، كنت سأقول لك أشياء كثيرة، أشياء لا تُقالُ إلّا لك!

كنت سأحدّثك عن كافكا، وكيف مات جوعاً، سأحدّثك عن اسطنبول وجنونها الذي لا تعرفه، عن أولادي الذين أصرّوا جميعهم على الخروج من خاصرتي بعمليات جراحية، عن زوجي الذي لم أحبه يوماً، عن قلبي الذي دخل في غيبوبة طويلة الأمد

ليستعيد وهج ذاكرته على يديك، عن جارتي صباح التي تشتم زوجها طوال الوقت وتناديه بـ"العرصا"، وعن جارنا التركي محمود المهووس بـ"البصبصبة" على نساء البناية، ومن بينهم أنا، كنت أنوي أن أحدّثك عن أشياء وأشياء، عن تلك الأيام التي قلبَتْني رأساً على عقب، وبقيت هي على حالها، عن شجاراتي اليومية معها وكأني ضرتها، عن الحب حين يأتي متأخراً عن موعده يا حبيبي!

كنت سأخبرك كلّ ما لا تعرفه عنّي وعنهم جميعاً، لكنّ حضورهم غيّر مجرى الحديث، غيّر مجرى القلب والأحداث!

يفقد الحب حقّه بتقرير المصير عندما ننبش له ماضيه الأسود، ونضع كلّ ضحاياه على الطاولة من دون أن نكلّف أنفسنا عناء الاعتراف بأنّنا جزء من الجريمة. يفقد الحب عبقريته في التخفّي والهروب، يصبح عبئاً على القلب، على الذاكرة، وعلينا جميعاً عندما نستحي به.

أقسم إني أحبك، وإني أتمرّن منذ أيام على كيفية محادثتك وجها لوجه، كنت أريد أن أقول لك ما لم أقله لك في وقته المناسب، وإني جئت إليك بملء إرادتي، وبكامل قواي العاطفية، لكن لا وقت لديّ، أخاف أن تحضر الشرطة، وتقبض علينا جميعاً، تقبض على أمّي لأنّها خلعت سروالها الداخلي في مكان عام، وعلى أخوتي الصغار لأنهم يتسبّبون بكل هذه الضجة، فضجيج الغرباء مزعج في هذه البلاد!

أخاف أن تقبض على عباس ومهديٍّ وعماد لأنّهم عادوا من الموت من دون تصريح رسمي! وأخاف أن تقبض عليّ لأني أحببتك مرّة أخرى!

عليّ العودة بهم إلى المنزل على وجه السرعة، فهذا المكان لا يليق بنا، لا بدّ وأنّ زوجي ينتظرني الآن، فما إن يفتح لي الباب حتى يبدأ بتأنيبي على تأخّري في العودة إلى المنزل بالقول:

- ألم أنبّهك من قبل ألّا تتأخّري خارج المنزل حتى هذا الوقت، ألا تعلمين أنّ اسطنبول مدينة مليئة باللصوص! اذهبي وحضّري ليّ العشاء، فأنا جائع جداً.

- وماذا عني؟ أنا أيضاً جائعة! جائعة منذ أكثر من خمسة وعشرين عاماً، ألم تلاحظ ذلك يوماً؟

- وهل أمنع عنكِ الطعام كي تجوعي كلّ هذا الجوع!

سأعانقه بقوة، ليس حباً، ولكن أريد أن أتأكد بأنِّي نجحت في الإفلات منك هذه المرة فحسب، وأن العصافير التي رسمها عباسٌ على حيطان الفقراء استطاعت أن تطير أخيراً.

